الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الإسلام

أحمد بن تيمية

الجزء الثالث

تحقيق

مجدي قاسم

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

□ **قال الحسن بن أيوب** : وقد بينا الحجج في بطلان كل قول لكم مما عقدتم به شريعة إيمانكم ، ووجدنا قوماً منكم إذا نوظروا في ذلك قالوا : قد وجدنا أكثر الأديان يختلف أهلها فيها ، ويتفرقون على مقالات شتّى ، هم عليها وكل منهم يدّعي أن الصواب في يده .

وهذا أيضاً من سوء الاختيار ، وذهاب القلوب عن رشدها ، وانصرامها عن سبيل حقها .

فلم يختلف أهل دين من الأديان في عقد معبودهم ، ولا شكّوا فيه ، ولا تفرقوا القول فيما اختاروه إلا أهل مِلَل النصرانية فقط .

وسائر من سواهم إنما اختلفوا في فرع من فروع الدين وشرائعه . مثل اختلاف اليهود في أعيادهم وسنن لهم ، ومثل اختلاف المسلمين في القدر .

فمنهم من قال به ، ومنهم من دفعه .

وفي تفضيل قوم من أصحاب محمد ﷺ على نظرائهم بعد اتفاق جماعتهم على إلههم ومعبودهم وخالقهم ، وأن الله إله الخلق كلهم ، واحد لا شريك له ولا ولد.

ثم اتفاقهم بعد ذلك على نبيهم محمد ﷺ لا يشكون فيه ، وعلى القرآن ، وأنه كتاب الله المنزل على محمد المرسل لا يختلفون فيه .

فإذا صح اتفاقهم على هذه الأصول ،كان ما سواها جللاً لا يقع منه كفر ، ولا يبطل بها دين ، والبلاء العظيم الاختلاف في المعبود .

فلو أن قوماً لم يعرفوا إلهاً ولا ديناً ، ثم عرض عليهم دين النصرانية ، وجب أن يتوقفوا

عنه ، إذا كان أهله لم يتفقوا على شيء فيه .

ودل اختلافهم في مقالاتهم وما بينها مما في كتبهم ، على باطله .

فأما قولنا في باب التوحيد ، واعترافنا بوحدانية الله تعالى ، ونَفْيُنَا عنه الشركاء والأنداد والأمثال والأولاد ، فهو قول لا يشكون في صحته ، ولا يشك فيه أحد من أهل الكتب وسائر الملل ولا غيرهم من أهل القول بالدهر وسائر عبدة الأصنام والأوثان وكل منهم يُقِرُّ به ويرجع إليه .

إلا أن منهم من يتابعنا على تحديد التوحيد . ومنهم من يدخل العلل فيه ، بأن يقول: ثلاثة ترجع إلى واحد ، وصنماً نعبده إجلالاً لله ليقربنا إلى ربنا وربه ، ومدبر للأمور قديم لابد أن نعترف به خالقها وباريها .

وكل منهم مقر بقولنا وذاهب إلى مذهبنا على الاعتراف بالله على الجهة التي يذهب إليها وأنه واحد لا شريك له .

فقد صح عقدنا بلا شك منكم ، ولا من أحد من الأمم فيه ، ولا في شيء منه ، بل تقودكم الضرورة إلى الإقرار به والاجتماع معنا عليه .

والحمد لله رب العالمين على توفيقه ، وإياه نسأل أن يتم علينا تسديده بقدرته ، وأن يحيينا ويميتنا على الإسلام ، غير مشركين ولا جاحدين ولا مبدلين ، إنه على كل شيء قدير ، وكل مستصعب عليه يسير ، وهو بمن خافه واتقاه وطلب ما عنده ولم يلحد في دينه رءوف رحيم .

■ **قلت** : هذا آخر ما كتبته من كلام **الحسن بن أيوب** وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى وأخبر الناس بأقوالهم ، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره .

وقد ذكر في كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية ، ما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية ، ما يبين ذلك .

ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذهبهم من أئمتهم المنتصرين لدين النصرانية ،

ونذكر ماذكروه من حججهم ، مثل ابن البطريق ، بترك الإسكندرية ، فإنه صنف كتابه الذي سماه « نظم الجوهر » وذكر فيه أخبار النصارى ومجامعهم واختلافهم وسبب إحداثهم ما أحدثوه مع انتصاره لقول الملكية والرد على من خالفهم .

قال سعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية في تاريخه المعروف عند النصارى الذي سماه « نظم الجوهر » وذكر فيه مبدأ الخلق وتواريخ الأنبياء والملوك والأمم وأخبار ملوك الروم وأصحاب الكراسى برومية وقسطنطينية وغيرهما ، ووصف دين النصرانية وفِرَقَ أهلها ، وهو ملكى ، رد على سائر طوائف النصارى ، لما ذكر مولد المسيح صلوات الله عليه ، وأنه ولد في عهد ملك الروم قيصر المسمى أغسطس لثنتين وأربعين سنة من ملكه ، قال : وملك ستًا وخمسين سنة .

قال : وملك بعده ابنه «طيباريوس» قيصر برومية ، وللمسيح خمس عشرة سنة .

وكان لقيصر هذا صديق يقال له « بلاطس » من قرية على شط البحر الذي تحت «قسطنطينية » ويسمى ذلك البحر « السطس » ولذلك يسمى « بلاطس النبطى » فولاه على أرض« يهوذا » .

قال : وفي خمس عشرة سنة من ملك طيباريوس قيصر هذا ظهر « يحيى » ابن زكريا المعمداني ، فعمد اليهود في الأردن لغفران الخطايا .

فجاء المسيح إلى يحيى بن زكريا فعمده يحيى في الأردن ، ولسيدنا المسيح ثلاثون سنة وذكر قصة قتل يحيى ، وقصة الصلب المعروفة عند النصارى .

إلى أن قال : وكتب « بلاطس » إلى « طيباريوس » الملك بخبر سيدنا المسيح وماتفعل تلاميذه من العجائب الكثيرة من إبراء المرضى وإحياء الموتي .

فأراد أن يؤمن بسيدنا المسيح ويظهر دين النصرانية فلم يتابعة أصحابه على ذلك . وملك اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر .

وذكر أن في عصره بُنِيَتْ ممدينة « طبرية » مشتقة من اسمه .

قال : وملك بعده قيصر آخر أربع سنين وثلاثة أشهر ، قتل بلاطس وولّى شخص

كان شديداً على تلاميذ المسيح ، وقتل رئيس الشهداء والشمامسة ، فرجم بالحجارة حتى مات .

وذكر أنه لَقِيَ من اليهود ومن الروم شدة شديدة ، وقتل منهم خلق كثير ، وأنه مات هذا وولى بعده آخر ،وفى زمنه وقع جوع ووباء ، وفى زمنه كتب « متّى » وبين إنجيله بالعبرانية فى بيت المقدس ، وفسره من العبرانية إلى الرومية « يوحنا » صاحب الإنجيل .

قال : وفى سنين من ملكه كان « مرقس » صاحب الإنجيل بمدينة الإسكندرية يدعو الناس إلى الإيمان بالمسيح ، وإنه أول شخص جعل بطريركاً على الإسكندرية ، وأنه صيَّر معه اثنى عشر قسيساً وأمرهم إذا مات البطريرك أن يختاروا واحداً من الاثنى عشر قسيساً ، ويضع الاثنا عشر أيديهم على رأسه ويبركونه ويصلحونه بطريركا ، ثم يختارون رجلا فاضلا قسيساً ويصيرونه معهم بدل القسيس الذى أصلحوه بتركاً ، ليكونوا اثنى عشر أبداً .

فلم يزل رسمهم بالإسكندرية على هذا إلى زمن الثلاثمائة وثمانية عشر .

أمرهم بطريرك الإسكندرية الذى كان من جملة الثلاثمائة وثمانية عشر ان لا يفعل هذا فيما بعد ، ومنع أن يصلح الأقساء البترك ، بل يختاروا من أى بلد كان ، رجلا فاضلا ، وإذا مات البترك ، اجتمع الأساقفة فأصلحوا البترك أى بلد كان من أولئك الأقِسَّة ، أو من غيرهم .

فانقطع الرسم الأول من إصلاح الأقساء البترك ، وجعل التيسير لهم فى إصلاح البترك بابا .

ثم سُمِّيَ بترك الإسكندرية بابا ، ومعناه ، الجد .

ومن حنانيا الذى أصلحه مرقس البشير إلى حادى عشر بطركا بالإسكندرية لم يكن فى عمل مصر أسقف ، ولم يكن البطاركة قبله أصلحوا أسقفا ، وأن العامة لما سمعت الأساقفة يسمون البطريرك أباً قالوا : إذا كنا نحن نسمى الأسقف أباً ،

والأسقف يسمى البطريرك أبًا ، فيجب علينا أن نسمى البطريرك بابا (أى الجد) إذا كان أبًا لأبينا نسمى بطريرك الإسكندرية من وقت « هرقل » بابا (أى الجد) .

قال : وخرج مرقس إلى « بُرْقَة » يدعو الناس إلى الإيمان بالسيد المسيح .

ومات فلوريوس قيصر ، وملك بعده ابنه « بارون » ثلاث عشرة سنة .

قال : وهو أول من هاج على النصارى الشرّ والبلاء والعذاب .

قال : وفي عصره كتب « بطرس » رئيس الحواريين الإنجيل (إنجيل مرقس) عن مرقس بمدينة رومية ، ونسبه إلى مرقس .

قال : وفي عصر هذا الملك كتب « لوقا » إنجيله بالرومية إلى رجل شريف من عظماء الروم يقال له « فوفيلا » فكتب له أيضًا الأبركسس الذي فيه أخبار التلاميذ .

وقد كان « لوقا » البشير صاحب « بولس الرسول » يقول في بعض رسائله : إن « لوقا» الطبيب يقول : عليكم السلام .

وقال : وأخذ بارون قيصر لبطرس فصلبه منكسًا ، ثم قتله ، لأن بطرس قال له : إن أردت أن تصلبنى فاصلبنى منكسًا لئلا أكون مثل سيدى المسيح فإنه صُلِبَ قائمًا ، وضرب عنق بولس الرسول بالسيف .

وأقام بطرس بعد صعود المسيح اثنين وعشرين سنة .

قال : وكان مرقس صاحب الإنجيل بالإسكندرية وبرقة يدعو الناس إلى الإيمان فأقام سبع سنين .

وفي أول سنة من ملك بارون قيصر قتل مرقس بالإسكندرية ، وأحرق جسده بالنار ، وذكر بعده عدة قياصرة ، وذكر أن طيطس خرب البيت المقدس بعد المسيح بسبعين سنة بعد أن حاصرها ، وأصاب أهلها جوع عظيم ، وقتل كل من كان فيها من ذكر وأنثى حتى كانوا يشقون بطون الحبالى ، ويضربون بأطفالهم الصخور

.وضرب المدينة والهيكل ، وأضرم بهما النار ، وأحصى القتلى على يده فكانوا ثلاثة آلاف ألف .

وذكر عدة قياصرة بعد ذلك وأنه وَلِيَ واحد منهم خمس عشرة سنة يقال له « ذوما طيانوس » وكان شديداً جداً على اليهود ، وأنه بلغه أن النصارى يقولون : أن المسيح ملكهم وأن ملكه إلى الدهر .

فغضب غضباً شديداً ، وأمر بقتل النصارى ، وأن لايكون في ملكه نصراني ، وكان « يوحنا » صاحب الإنجيل هناك ، فسمع بهذا فخاف وهرب إلى أفسس ، ثم إنه أمر بإكرامهم وترك الاعتراض عليهم .

ثم تولى بعده قيصر آخر سنة وبعض أخرى ، ثم ملك آخر بعد تسع عشرة سنة يسمى طرايانوس .

قال : وهذا الملك أثار على النصارى بلاء عظيماً وحزناً طويلا ، وقتل شهداء كثيرة ، وقتل بطريرك إنطاكية برومية ، وقتل أسقف بيت المقدس وصلبه وله مائة وعشرون سنة ، وأمر أن يستعبد النصارى ، إذ ليس لهم دين ولاشريعة .

فلشدة ما استعبد النصارى وغلظ ما نالهم من القتل رحمتهم الروم ، وشهد وزراء الملك عنده أن النصارى لهم شريعة ودين ، وأنه لايحل أن يستعبدوا فكفَّ عنهم الأذية .

قال : وفي عصره كتب « يوحنا » إنجيله بالرومية في جزيرة يقال لها « تيمر » من أرض الروم من أرض « أثينة » في عصر رجل من عظماء الروم فيلسوف يقال له « مومودس » .

قال : وفي ذلك العصر رجع اليهود إلى بيت المقدس .

فلما كثروا وامتلأت منهم المدينة عزموا أن يملكوا منهم ملكا .

فبلغ الخبر « طيباريوس قيصر » فوجّه بقائد من قواده بجيش عظيم إلى بيت المقدس فقتل من اليهود مالا يحصى كثرة .

قال : وخرج على قيصر هذا خارجِيٌّ مقاتل ببابل ، فخرج إليه بنفسه فوقعت بينهم حرب شديدة ، وقتل من الفريقين خلق عظيم ، وقتل قيصر في الحرب .

وملك بعده « أندريانوس قيصر » عشرين سنة فخرج إلى ذلك الخارجى ببابل فهزمه ، وصار إلى مصر فلقى منه أهل مصر شدة شديدة ، وأخذ الناس بعبادة الأصنام وقتل من النصارى خلقًا كثيراً وأصاب « إيليا » ابنه علّة في بدنه فكان ينفذ إلى البلدان يطلب شفاء لعلته ، فوصفوا له بيت المقدس .

فلما وافاه ، رآها خرابًا ليس فيها أحد إلا كنيسة للنصارى فأمر أن تبنى المدينة وتُحَصَّن بحصن قوىّ .

فلما سمع اليهود أقبلوا من كل بلد وكل مدينة .

فما كان إلا زمان قليل حتى امتلأت منهم المدينة فلما كثروا ملكوا عليهم ملكا .

فاتصل الخبر بإيليا بن قيصر أندريانوس ، فوجّه إليهم بقائد من قواده مع خلق كثير فحاصر المدينة ، فمات كل من فيها من الجوع والعطش ثم فتحها فقتل من اليهود مالايحصى ، وهدم الحصن ، وخرّب المدينة حتى صيّرها صحراء .

قال : وهذا آخر خراب بيت المقدس وهرب من اليهود من هرب إلى مصر وإلى الشام ، وإلى الجبال ، وإلى الغور .

وأمر الملك أن لايسكن المدينة يهودى وأن يقتل اليهود ويستأصلوا ، وأن يسكن المدينة اليونانيون ، ويبنوا على باب الهيكل برجًا ، ويجعل فوقه ألواح ويكتبوا عليها اسم « إيليا الملك » وذلك من ثمان سنين من ملكه .

قال : والبرج اليوم على باب مدينة بيت المقدس ، وسمى محراب داود .

قال : فسمي بيت المقدس إلى هذا الوقت « إيليا » .

فمن الخراب الأول الذي أخربه « طيطس » إلى هذا الخراب ثلاث وخمسون سنة ، وامتلأت بيت المقدس من اليونانيين فنظروا إلى النصارى يأتون إلى تلك المزبلة التى فيها القبر والأفرانيون ، فيصلون . فمنعوهم من ذلك .

وبنى اليونانيون على تلك المزبلة هيكلا على اسم الزهرة ، فلم يقدر أحد من النصارى بعد ذلك أن يقرب ذلك الموضع .

قال : ثم مات « إيليا الملك » وملك بعده « أنطوينوس قيصر » برومية اثنى وعشرين سنة .

قال : وفي إحدى عشرة سنة من ملكة صير يهودا أسقفًا على بيت المقدس ، أقام سنتين ومات .

قال : فمن يعقوب أسقف بيت المقدس الأول إلى يهودا أسقف بيت المقدس هذا ، كانت الأساقفة الذين صيروا على بيت المقدس مختونين .

وذكر أنه وَلِيَ بعد هذا قيصر آخر اسمه « مرقس » تسع عشرة سنة ، وأنه أثار على النصارى بلاء عظيما ، وحزنًا شديدًا واستشهد في زمانه شهداء كثيرون .

قال : وكان في أيامه جوع شديد ، ووباء عظيم ، لم تمطر السماء سنين ، وكاد الملك وجميع أهل مملكته أن يهلكوا من الجوع .

فسألوا النصارى أن يبتهلوا ، إلى إلههم فدفعوا ، فأمطر الله عليهم مطرًا عظيماً . وارتفع الوباء والقحط .

قال : وكان بأيامه بأرض اليونانيين « مغنوس » الحكيم .

قال : وفي خمس سنين من ملكه صير « لوليانوس » بطريركا وهو أول بطريرك أصلح الأساقفة في عمل مصر . أقام ثلاثا وأربعين سنة ومات .

فصــل

قال : وفى ذلك العصر كتب بطريرك الإسكندرية إلى أسقف بيت المقدس ، وبطرك أنطاكية ، وبطرك رومية فى حساب فصح النصارى وصومهم ، وكيف يستخرج من فصح اليهود ، فوضعوا فى ذلك كتبا كثيرة على ما هو عليه اليوم .

قال : وذلك أن النصارى كانوا بعد صعود سيدنا المسيح إلى السماء إذا عيدوا عيد الغطاس من الغد ، يصومون أربعين يوما ، ويفطرون كما فعل سيدنا يسوع المسيح ، لأن سيدنا المسيح لما اعتمد بالأردن خرج إلى البرية ، فأقام بها صائما أربعين يوما ، وكان النصارى إذا أفصح اليهود ، عيدوا هم الفصح .

فوضع هؤلاء البطاركة حسابا للفصح ، ليصوم النصارى أربعين يوما ، ويكون فطرهم يوم الفصح ، ليتم فرحهم بذلك .

قلت : فقد أخبر عن المسيح أنه لما صام أربعين يوما عقب المعمودية وكان يعيد مع اليهود فى عيدهم لا يعيد عقب صومه ، شاركه النصارى فى ذلك مدة ، فصاروا يصومون أربعين عقب الغطاس الذى هو نظير المعمودية ، ويعيدون مع اليهود العيد .

ثم إنهم بعد هذا ، ابتدعوا تغير الصوم ، فلم يصوموا عقب الغطاس ، بل نقلوا الصوم إلى وقت يكون عيدهم مع عيد اليهود ، فيكون عيدهم مع عيد اليهود ، وهو فصح المسيح ، ويكون ذلك وقت قيامته من قبره.

قال : ومات « مرقس » الملك ، وملك بعده « قموذوس » قيصر برومية ، اثنى عشرة سنة .

وفى أيامه كان فى أرض اليونانيين فى مدينة أفرغامس « جالينوس » الحكيم صاحب صناعة الطب .

وذكر « جالينوس » فى فهرست كتبه أنه ربى « قموذوس » الملك.

وذكـر « جـالينوس » فى المقـالة الأولى من الكتـاب المعـروف بـ « كتـاب أخـلاق النفس » : أنه كـان فى عصـر « قمـوذوس » رجل يقال له « بولس » طلـبه قـموذوس الملك ليقـتله ، فهـرب منه ، وكان له غـلامان فقـبضـهما الملك ، فـضربهـما الملك ، وطلب منهمـا أن يدلاه على مولاهمـا فلم يفعلا ، لكرم أنفـسهمـا ونخوتهمـا وشدة محاماتهمـا على مولاهما ، فقتلهما ، وأن من الإسكندرية إلى بولس خـمسمائة سنة وست عشرة سنة ، وذلك فى السنة التاسعة من ملك قمـوذوس قيصر . فهذا ما ذكر جالينوس .

قال : وكان أيضاً فى أيامه « ديمقراطيس » الحكيم .

قلت : هذه المدة أكثـر مما ذكره « سعيد » هذا ، فإنه لم يذكـر من المسيح إلى هنا مـائتى سنة ، بل ذكـر إلـى الخراب مـائـة وثلاثة وعشـرين سنة ، وقـد تقـدم ذكـره لديمقراطيس قبل هذا .

قال : وفى سنين من ملكه ، ظهرت الفرس ، فغلبت على « بابل » وأمدوا فارس ، وتملك أزدشيـر بن ساسـان بابل من أهل أصطخر ، وهو أول ملك مُـلِّك على فارس فى المرة الثانية .

قال : ومات قموذوس قيصر ملك الروم ، وملك بعـده قيصر آخر ثلاثة أشهر أُخر ، وملك بعده بروميـة « سويرس » قيصر سبـع عشرة سنة ، وذلك فى أربع سنين من ملك أزدشير .

وكان هذا الملك شديداً ، قد أثار على النصارى بلاء عظيما ، وعذاباً كبيراً ، وقتل كل عام منهم ، وقـتل خلقاً كثيـراً ، واستشهـد فى أيامه خلق كثيـر من النصارى فى كل موضع ، ثم قـتل كل من كان بمصر والإسكندرية مـن النصارى ، وهدم الكنائس ، وبنى بالإسكندرية هيكلا ، وسماه هيكل الآلهة .

ثلاث عشر سنة ، كانت النصاري فى أيامة فى هدوء ، وسلامة ، وكانت أمه تحب النصارى .

وفي أيامه سمى بطرك الإسكندرية « بابا » (أي الجد) وملك بعده قيصر آخر ثلاث سنين .

وهذا أثار على النصارى بلاء طويلا وحزنًا عظيما ، وقتل منهم خلقًا كثيراً ، وأخذ الناس بعبادة الأصنام ، وقتل من الأساقفة خلقًا كثيراً ، وقتل بطرك أنطاكية .

فلما سمع أسقف بيت المقدس بقتله ، هرب وترك الكرسى .

قال : ومات قيصر هذا في السنة الثانية من ملك بهرام بن هرمز ، وملك بعده قيصر آخر ثلاثة أشهر ، ثم بعده آخر أربع سنين ، واسمه « عزدمانوس » وفي ثلاث سنين من ملكه مات بهرام بن هرمز ، وملك بعده بهرام بن بهرام على الفرس تسع عشرة سنة .

وفي أيامه ظهر رجل فارسي يقال له « ماني » فأظهر دين المانية ، وزعم أنه نبي .

فأخذه بهرام بن بهرام ملك الفرس فشقّه نصفين ، وأخذ من أصحابه وممن يقول بقوله مائتي رجل ، فغرس رءوسهم في الطين منكسين حتى ماتوا منكسين .

وملك بعد قيصر هذا « فيلبس » قيصر على الروم برومية سبع سنين ، وآمن بالسيد المسيح ، ووثب عليه قائد من قواده فقتله .

ثم ملك بعد قيصر آخر اسمه « ذاقنيوس » وهو « دقيانوس » وذلك من عشر سنين من ملك بهرام بن بهرام ، فلقي النصارى منه حزنًا طويلا ، وعذابًا شديداً ، وقتل منهم من لايحصى ، واستشهد في أيامه من الشهداء خلق كثير ، وقتل بطرك رومية .

ثم خرج إلى مدينة أفسس فبنى في وسطها هيكلاً عظيمًا ، وصيّر فيه الأصنام

وأمر أن يسجد للأصنام ، ويذبح لها ، ومن لم يفعل ذلك قتل .

فقتل من النصارى بأفسس خلقًا عظيمًا وصلبهم على الحصن واتخذ من أولاد عظماء « أفسس » سبعة غلمان من خواصه وعلى كسوته وقدمهم على جميع من عنده وذكر أسماءهم ، أسماء أصحاب الكهف .

قال : وهؤلاء السبعة الغلمان لم يسجدوا للأصنام ، فأعلموا الملك بخبرهم ، فأمر بحبسهم .

ثم خرج إلى بعض المواضع وأطلق سبيلهم إلى حين رجوعه .

فلما خرج من المدينة ، أخذ الغلمان كل مالهم فتصدقوا به ، ثم خرجوا إلى جبل عظيم يقال له « جاوس » شرقيّ « أفسس » فيه كهف كبير ، فاختفوا في الكهف ، فكان واحد منهم في كل يوم يتنكر ويدخل المدينة ، فيسمع مايقول الناس في شأنهم ويشترى لهم طعامًا ويرجع ، فيعلمهم بقدوم « دقيانوس » الملك ، فسأل عنهم فقيل له : إنهم في جبل جاوس في الكهف مختفين .

فأمر الملك أن يبنى باب الكهف عليهم ليموتوا ، وصب الله عليهم النعاس فناموا كالأموات .

وأخذ قائد من قواده صفيحة من نحاس ، وكتب فيها خبرهم وقصتهم مع دقيانوس الملك ، وصيّر الصفيحة في صندوق نحاس ودفنه داخل الكهف ، وبنى الكهف .

ومات الملك دقيانوس قيصر ، وملك بعده قيصران برومية سنتين ثم قيصر آخر اسمه « غنيونوس » خمسة عشرة سنة ، وملك بعده قيصر آخر سنة واحدة ، وذلك من ثلاث سنين من ملك هرمز .

وفي أول سنة من ملك هذا ، صيّر « بولس » بطركًا على أنطاكية ويسمى

« بولوس الشمشاطي » قال : وهو الذي ابتدع دين البوليانية ، فسمى التابعون لدينه والقائلون بمقالته بوليانيين .

قال : وكانت مقالته : أن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت إنسانًا كواحد منا في جوهره ، فإن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطفى ليكون مخلصًا للجوهر الإنسي ، صحبته النعمة الإلهية ، فَحَلَّت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمي : ابن الله .

وقال : إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد ، ولانؤمن بالكلمة ، ولا بروح القدس .

قال : وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر أسقفًا في مدينة أنطاكية ، ونظروا في مقاله « بولس » فأوجبوا على هذا الشمشاطي اللعن فلعنوه ، ولعنوا من يقول مقالته وانصرفوا .

قال : وبعده ملك قيصر آخر ست سنين ، اسمه « أوراغوس قيصر » .

قال : وكان النصارى بالاسكندرية في أيامه يصلون في المطامير والبيوت فزعًا من الروم ، ولم يكن يظهر بترك بالإسكندرية لئلا يقتلوهم .

فلما صار « نارون » بطركًا ، ظهر ، ولم يزل يداري الروم حتى بنى بالإسكندرية كنيسة « حنا » و « مارمريم » وملك بعده قيصران ، ثم قيصر اسمه « فاروس » وذلك في تسع سنين من ملك سابور بن هرمز ، وكان شاديداً على النصارى ، قتل الأخوين قرمان ودميان الشهيدين ، وملك بعده دقيطيانوس .

قال : فمن خراب طيطس لبيت المقدس إلى ملك دقيطيانوس مائتان وست سنين ، ومن مولد سيدنا المسيح إلى دقيطانوس ، مائتان وست وسبعون سنه ، ومن الإسكندر إلى دقيطيانوس خمسمائة وخمس وتسعون سنة ، ومن سَبى بابل إلى دقيطيانوس ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثون سنة ، ومن داود إلى دقيطيانوس ألف وتسعمائة وإحدى وأربعون سنة .

قال : وملك دقيطيانوس في إحدى عشرة سنة من ملك سابور بن هرمز ملك الفرس ، وملك معه اثنان ، تملكا على الروم إحدى وعشرين سنة ، وهؤلاء أثاروا على النصارى بلاء عظيما ، وحزنًا طويلا ، وعذابًا أليمًا ، وشدة شديدة ، تجل عن الوصف ، من القتل ، والعذاب ، واستباحة الأموال واستشهدوا ألوفًا من الشهداء وعذبوا « ماري جرجس » أصناف العذاب وقتلوه بفلسطين ، وقتلوا « ماري مينا » و « ماري بقطر » و « أيتماخوس » و « مركورس » وغيرهما .

قال : وفي عشر سنين من ملكهما صير « بطرس » بطركًا على الإسكندرية فأقام عشر سنين ، وقتل .

وفي عشرين سنة من ملكهما ، ضُرِبَ عنق بطرس هذا البطرك بالإسكندرية .

قال : وكان لبطرس تلميذان ، اسم أحدهما « أشلا » والآخر « الأكصندروس » وكان بالإسكندرية رجل يقال له « أريوس » يقول : إن الأب – وحده – الله الفرد ، و « الابن » مخلوق مصنوع ، وقد كان « الأب » إذ لم يكن الابن .

فقال « بطرس » البطرك لتلميذيه : إن المسيح لعن « أريوس » فاحذرا أن تقبلا قوله ، فإني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب ، فقلت له : ياسيدي ، من شقّ ثوبك ؟ فقال لي : أريوس ، فاحذروا أن تقبلوه ويدخل معكم الكنسية كنيسة الله .

قال : وبعد قتل بطرس بخمس سنين صيِّر « أشلا » بطركًا على الإسكندرية فأقام ستة أشهر ومات .

وكان « أريوس » قد استعان على « أشلا » بأصدقائه فأورى أنه قد رجع عن تلك المقالة ، فقبله « أشلا » وأدخله الكنيسة وجعله قسيسًا .

قال : وأما « دقيطيانوس » الملك ، فكان يطلب النصارى فيقتلهم .

فبينما هو يسير في طلبهم إذ بلغ موضع يقال له « ملطية » فصبَّ الله عليه نقمته ،

فوقع في علل عظيمة ، وأمراض عظيمة حتى ذاب جسمه ، وكان الدود يتساقط من بدنه إلى الأرض ، وسقط لسانه من حنكه ومات .

وملك بعده قيصران ، أحدهما المشرق والشام وأرض الروم ، والآخر رومية ونحوها ، وكان أحدهما اسمه « علانيوس » والآخر « مقصطيوس » فكانا كالسباع الضارية على النصارى ، وأثاروا عليهم البلاء والجلاء ومالا يصفه واصف وفعلا بهم مالم يفعله أحد من الملوك قبلهم .

وملك معهما على بزنطية وما والاها « قسطس » أبو قسطنطين ، وكان رجلا دينًا مبغضًا للأصنام ، محبًا للنصارى .

فخرج « قسطس » إلى ناحية الجزيرة و « الرها » فنزل في قرية من قرى الرها ، يقال لها « كفرجاث » فنظر فيها امرأة حسنة يقال لها « هيلانة » وكانت قد تنصرت على يدى أسقف الرها ، وتعلمت قراءة الكتب .

فخطبها قسطس من أبيها فزوجه إياها فحبلت منه ، ورجع قسطس إلى بزنطية .

وولدت هيلانة قسطنطين فتربى بـ « الرها » ، وتعلم حكم اليونانيين ، وكان غلامًا حسن الوجه ، قليل الشر ، وديعًا محبًا للحكمة .

وأما « علانيوس » فكان رجلا وحشيًا ، شديد البأس مبغضًا للنصارى جدًا ، كثير القتل لهم ، محبًا للنساء ، ولم يترك للنصارى بنتا بكرًا إلا أخذها وأفسدها وقتلها ، وكذلك أصحابه ، هكذا كانوا يفعلون بالنصارى ، وكان النصارى في شدة شديدة جدًا معهم .

وبلغه خبر « قسطنطين » وأنه غلام هادٍ قليل الشر ، كثير العلم والخير .

وأخبره الحكماء الذين له والمنجمين أن « قسطنطين » سيملك ملكا عظيما فهمَّ بقتله .

وعلم « قسطنطين » بذلك فهرب من الرها ، وذهب إلى مدينة « بزنطية » وصل إلى أبيه « قسطس » فسلم إليه الملك .

وبعد قليل مات « قسطس » وصبّ الله على « علانيوس » الملك عللا عظيمة ، حتى تقطع لحمه وتهرأ ، وبقى مطروحًا لايقدر أحد أن يقترب منه .

فعجب الناس مما ناله ، ورحمه أعداؤه مما حلّ به .

فرجع إلى نفسه وقال : لعل هذا الذي بي مما أقتل النصارى .

فكتب إلى جميع عماله أن يطلقوا النصارى من الحبوس ، وأن يكرموهم ولايؤذوهم ، ويسألونهم أن يدعوا له في صلاتهم .

فصلى النصارى على الملك ودعوا له ، فوهب الله له العافية ورجع إلى أفضل مما كان عليه من الصحة والقوة .

فلما صح وقوى ، رجع إلى شر ماكان عليه من الردى .

وكتب إلى جميع عماله أن يقتلوا النصارى ولايعيش في مملكته نصرانى ، ولايسكنوا مدينة ولاقرية له .

فمن كثرة القتلى ، كانوا يحملون على العجل ، ويرمون بهم في البحار والصحارى .

وقتل « مارجرجس » وأخاه بمدينة « قباذوقية » وهما من أهلها ، وقتل « برباره » وذكر حربا جرت بينه وبين سابور ، لما تنكر سابور ، وجاء إليه متنكرًا وعرفه .

قال : وأما مقسطيوس ، فكان شريرًا على أهل « رومية » واستعبد كل من كان برومية وخاصة النصارى ، فكان ينهب أموالهم ، ويقتل رجالهم ونساءهم وصبيانهم .

فلما سمع أهل رومية بملك « قسطنطين » وأنه مبغض للشر ، محب للخير ، وأن

أهل مملكته معه في هُدُوّ وسلامة ، كتب رؤساء رومية إلى قسطنطين يسألونه ويطلبون إليه أن يخلصهم من عبودية « مقسطيوس » عدو الله .

فلما قرأ كُتُبَهُمْ اغْتَمَّ غما شديداً ، وبقي متحيراً ، لايدرى كيف يصنع .

فبينما هو متفكر ، إذ ظهر له من نصف النهار في السماء صليب من كواكب تضئ ، مكتوبًا حوله (بهذا تغلب) .

فقال لأصحابه : رأيتم مارأيت ؟ قالوا : نعم .

فآمن من ذلك الوقت بالنصرانية وذلك لست ستين من بعد موت أبيه .

فتجهز قسطنطين ، واستعد لمحاربة مقسطيوس ملك رومية ، وعمل صليبًا كبيراً من ذهب ، وصيره على رأس البند ، وخرج يريد مقسطيوس .

فلما سمع مقسطيوس ، أن قسطنطين قد وافاه لمحاربته ، استعد لحربه ، وعقد جسراً على النهر الذي قدام رومية ، وخرج مع جميع أصحابه يحارب قسطنطين فأعطي قسطنطين النصرة عليه فقتل من أصحاب مقسطيوس مقتلة عظيمة ، وهرب مقسطيوس ، وغرق هو وأصحابه حتى امتلأ البحر – وهو النهر الذي عند رومية – غرقى وقتلى .

وخرج أهل رومية إلى قسطنطين بالإكليل الذهب وكل أنواع اللهو واللعب ، فلقوا قسطنطين وفرحوا به فرحًا عظيما .

فلما دخل المدينة أمر أن تدفن أجساد النصارى الشهداء المصاليب ، وكل من كان من النصارى هرب أونفاه مقسطيوس يرجع إلى بلده وموضعه ، ومن أخذ له شئ ردَّ إليه .

وأقام أهل رومية سبعة أيام يُعَيدونَ للملك وللصليب ويفرحون .

فلما سمع الخبر « علانيوس » جمع ماقدر عليه وتجهز لقتال قسطنطين .

فلما عاينه ، انهزموا بين يديه وأخذهم السيف ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ومنهم من أسِرَ ، ومنهم من استأمن .

وأفلت علانيوس عريانا فلم يزل يتقرى موضعًا موضعًا حتى وافى مدينته ، فجمع الكهنة والسحرة والعرافين الذين كان يحبهم ويقبل منهم ، فضرب أعناقهم لئلا يقعوا في يد قسطنطين .

وصيّر الله على علانيوس نارًا في جوفه حتى كانت أحشاؤه تتقطع من الحر الذي كان يجده في جوفه ، وسقط على الأرض وتهرأ لحمه على عظمه ومات .

وملك قسطنطين الدنيا في هُدُوّ وسلامة ، وذلك في إحدى وأربعين سنة من ملك « سابور » بن هرمز ، ملك الفرس .

قال : وتنصر قسطنطين في مدينة يقال لها « فيقوميذيا » وذلك في اثنى عشرة سنة من ملكه ، وأمر ببناء الكنائس في كل بلد ، وأن يخرج من بيت المال الخراج مما يعمل به أبنية الكنائس .

قال : وفي خمس سنين من ملكه ، صيّر « الإكصندروس » بطريركا على الإسكندرية ، وهو تلميذ بطركها بطرس الذي قتل ، وهو رفيق « أشلا » فأقام ست عشرة سنة . وفي خمس عشرة سنة من رياسته ، كان المجمع بمدينة « نيقية » الذي رتبت فيها الأمانة الأرتدكسية .

فمنع الأكصندروس بترك الإسكندرية أريوس من دخول الكنيسة ولعنه وقال : إن أريوس ملعون ، لأن بطرك البترك قبل أن يستشهد قال لنا : إن الله لعن أريوس فلاتقبلوه ولاتدخلوه الكنيسة .

وكان على مدينة « أسيوط » من عمل مصر ، أسقف يرى رأيَ أريوس . فلعنه أيضًا .

وكـان بالإسـكندرية هيكل عظيـم كـانت « كـلاوبطرة » الملكة بنتـه على اسم زحل ، وكان فيـه صنم من نحاس عظيم يسمى « ميكائيل » وكان أهل الإسكندرية ومصـر في اثنى عشـر يوما من شـهر « هتور » وهـو « تشرين الثانـي » يُعَيِّدُون لذلك الصنم عيداً عظيماً ، ويذبحون الذبائح الكثيرة .

فلما صار هذا بطركا على الإسكندرية وظهرت النصرانية ، أراد أن يكسر الصنم ويبطل الذبائح .

فامتنع عليـه أهل الإسكندرية ، فاحتـال لهم بأن قـال : إن هذا صنم لامنفـعة فيه ولامضرة ، فلو صيرتم العيد لميكائيل الملاك ، وجعلتم هذه الذبائح له ، كان أنفع لكم عند الله ، وكان خيراً لكم من هذا الصنم فأجابوه إلى ذلك .

فكسر الصنم . وأصلح منه صليباً وسـمى الهيـكل « كنيسـة ميـكائيل » ، وهى الكنيسة التي تسـمى قيسـارية ، احترقت بالنار وقت مـوافاة الجيوش من المغاربة القرامطة ، مع المسـمى أبو عبيـد الله ، وكان معـه أمير من أصحـابه يسمى حباسة ، وذلك في خلافة المعتضد بالله .

وكان عـامله على مصـر يومئـذ ، مولاه المعروف « بتكين الحـاجب » رجل تركى فنفر إلى المغاربة ، وجاء مدد من الشرق مع الخادم الملقب بـ « مونس » الأستاذ .

فهرب منه أبو عبيد الله وحباسه وجنودهما وصير العيد لميكائيل الملك والذبائح .

وإلى اليوم القبط بمصر والإسكندرية يُعَيِّدُونَ في هذا اليـوم عيد مـيكائيل الملاك ، ويذبحون فـيه الذبائح الكثيرة ، وكـذلك الملكية يُعَيِّدون في هذا اليوم عيـد ميكائيل الملاك ، وصار رسما إلى اليوم .

قـال : فلما منع بتـرك الإسكندرية « أريوس » من دخـول الكنيـسة ولعنه ، خـرج أريوس مستعديا عليه ، ومعه أسقفان ، فاستغاثوا إلى قسطنطين الملك .

وقال أريوس : إنه تعدى عليّ وأخرجني من الكنيسة ظلمًا .

وسأل الملك أن يشخص «الأكصندروس» بطرك الإسكندرية ليناظره قدام الملك .

فوجّه « قسطنطين » برسول إلى الإسكندرية فأشخص البطرك وجمع بينه وبين « أريوس » ليناظره فقال قسطنطين لأريوس : اشرح مقالتك .

قال أريوس : أقول إن الأب كان إذْ لم يكن الابن ، ثم الله أحدث الابن فكان كلمة له إلا أنه محدث مخلوق ، ثم فوّض الأمر إلى ذلك الابن المسمى « كلمة » فكان هو خالق السموات والأرض ومابينهما ، كما قال في إنجيله ، إذ يقول : « وهب لي سلطانًا على السماء والأرض»، فكان هو الخالق لهما بما أعطى من ذلك .

ثم إن الكلمة تجسدت من مريم العذراء ومن روح القدس ، فصار ذلك مسيحًا واحدًا .

فالمسيح الآن معنيان ١: كلمة و ٢: جسد ، إلا أنهما جميعًا مخلوقان .

قال : فأجابه عند ذلك بطرك الإسكندرية وقال : تخبرنا الآن ، أيما أوجب علينا عندك : عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا ؟

قال أريوس : بل عبادة من خلقنا .

قال له البطرك : فإن كان خالقنا الابن كما وصفت ، وكان « الابن » مخلوقا ، فعبادة الابن المخلوق أوجب من عبادة الأب الذي ليس بخالق ، بل تصير عبادة الأب الخالق للابن كفراً ، وعبادة الابن المخلوق إيمانًا ، وذلك من أقبح الأقاويل .

فاستحسن الملك وكل من حضر مقالة البطرك ، وشنّع عندهم مقالة أريوس ، ودار بينهما أيضًا مسائل كثيرة .

فأمر قسطنطين للبطرك الأكصندروس أن يلعن « أريوس » وكل من قال بمقالته .

فقال له : بل يوجه الملك فيشخص البطاركة والأساقفة حتى يكون لنا مجمع

ونضع فيه قضية ، ونلعن أريوس ، ونشرح الدين ونوضحه للناس .

فبعث « قسطنطين » الملك إلى جميع البلدان ، فجمع البطاركة والأساقفة .

فاجتمع في مدينة « نيقية » بعد سنة وشهرين ، ألفان وثمانية وأربعون أسقفا ، وكانوا مختلفى الآراء مختلفى الأديان .

فمنهم من يقول : المسيح ومريم إلهان من دون الله ، وهم المريمانية ، ويسمون المريميين .

ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الأب ، بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها ، وهي مقالة « سبارينون » وأشياعه .

ومنهم من كان يقول : لم تحبل مريم لتسعة أشهر ، وإنما مرَّ نور في بطن مريم كما يمر الماء في الميزاب ، لأن « كلمة الله » دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها ، وهي مقالة « البان » وأشياعه .

ومنهم من كان يقول : إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت ، كواحد منا في جوهره ، وأن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطُفِيَ ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى ، صحبته النعمة الإلهية فحلَّت فيه بالمحبة والمشيئة ، فلذلك سُمِّيَ « ابن الله » ويقولون : إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد يسمونه بثلاثة أسماء ، ولايؤمنون بالكلمة ، ولابروح القدس ، وهي مقالة « بولص الشمشاطي » بطرك أنطاكية وأشياعه ، وهم البوليانيون .

ومنهم من كان يقول بثلاثة آلهة ، لم يزل صالح وطالح وعدل بينهما ، وهي مقالة « مرقيون » وأشياعه .

وزعموا أن « مرقيون » رئيس الحواريين ، وأنكروا « بطرس » السليح .

ومنهم من كان يقول : ربنا هو المسيح ، وهي مقالة بولس الرسول ، ومقالة

الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا .

قال : فلما سمع قسطنطين الملك مقالاتهم ، عجب من ذلك وأخلى لهم دارًا ، وتقدم لهم بالإكرام والضيافة ، وأمرهم أن يتناظروا فيما بينهم لينظر من معه الحق فيتبعه .

فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا على دين واحد ورأيٍ واحد فناظروا بقية الأساقفة المختلفين فأفلحوا عليهم حججهم وأظهروا الدين المستقيم ، وكان أيضًا باقي الأساقفة مختلفى الأديان والآراء .

وصنع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفًا ، مجلسًا عظيما ، وجلس في وسطه ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعها إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم المملكة لتصنعوا ما بدا لكم ، ولتصنعوا ماينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين .

فباركوا على الملك وقلدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية وذُبَّ عنه .

ووضعوا له أربعين كتابًا ، فيها السنن والشرائع ، وفيها مايصلح أن يعمل به الأساقفة ومايصلح للملك أن يعمل بما فيها .

وكان رئيس المجمع والمقدم فيه الأكصندروس بطريرك الإسكندرية ، وبطرك الأنطاكية ، وأسقف بيت المقدس .

ووجَّه بطرك رومية من عنده رجلين ، فاتفقوا على نفى « أريوس » وأصحابه ولعنوهم ، وكل من قال مقالته ، ووضعوا الأمانة وثبتوا أن الابن مولود من الأب قبل كون الخلائق ، وأن الابن من طبيعة الأب غير مخلوق .

واتفقوا على أن يكون فصح النصارى في يوم الأحد الذي يكون بعد فصح اليهود ، وأن لايكون فُصْحُ اليهود مع فصح النصارى في يوم واحد ، وثبتوا ما

وضعه من تقدم ذكره من حساب الصوم والفصح وأن يكون فطر النصارى يوم فصحهم يوم الأحد الذي يكون بعد فصح اليهود .

لأن النصارى - كما قلنا من قبل - كانوا إذا عيّدوا عيد الحميم - وهو عيد الغطاس - صاموا من الغد أربعين يومًا ويفطرون .

فإذا كان عيد اليهود عيّدوا معهم الفصح ، فصيّروا يوم الفصح للفطر ، ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة ، وذلك أن الأساقفة منذ وقت الحواريين إلى مجمع الثلاثمائة وثمانية عشر كان لهم نساء ، لأنه كان إذا صيّر واحد أسقفًا ، وكانت له زوجة ، تبينت معه ولم تتنحّ عنه ، ماخلا البطاركة ، فإنه لم تكن لهم نساء ، ولا كانوا أيضًا يُصَيِّرون أحدًا بطركا له زوجة .

قال : وانصرفوا مكرّمين محظوظين ، وذلك في سبع عشرة سنة من ملك « قسطنطين » .

قال : وسن قسطنطين الملك ثلاث سنن إحداها : كسر الأصنام وقتل كل من يعبدها .

والثانية : أن يثبت في الديوان إلا أولاد النصارى ، ويكونون أمراء وقوادًا .

والثالثة : أن يقيم الناس جمعة الفصح والجمعة التي بعدها ، لايعملون فيها عملا ، ولايكون فيها حرب .

قال : وتقدم قسطنطين إلى أسقف بيت المقدس أن يطلب موضع المقبرة والصليب ، ويبني الكنائس ، ويبدأ ببناء القمامة المقدسة .

فقالت « هيلانة » أم قسطنطين الملك : إني نذرت أن أصيّر إلى بيت المقدس ، فأطلب المواضع المقدسة فأبنيها . فدفع الملك إليها أموالاً كثيرة جزيلة .

وسارت إلى بيت المقدس مع أسقف بيت المقدس ، فلما وصلت ، لم يكن لها

حرص ولاهمة ، إلا طلب الصليب .

فجمعت اليهود والسكان في بيت المقدس ، واختارت منهم عشرة ، ومن العشرة ثلاثة ، كان واحد منهم يقال له « يهوذا » فسألتهم أن يدلوها على موضع الصليب فامتنعوا وقالوا : ليس عندنا علم منه ولاخبرة بالموضع .

فأمرت بهم فطرحتهم في جُبّ ليس فيه ماء . فأقاموا سبعة أيام لم يطعموا ولم يسقوا. فقال أحدهم - الذي اسمه يهوذا - لصاحبيه : إن أباه عرفه بالموضع الذي تطلب هذه المرأة ، وإن جده عرَّف أباه .

فصاح الاثنان من الجب : أخرجونا حتى نعلم الملكة بحال هذا الرجل .

فأخرجوهم ، فأخبروا الملكة بما قال لها « يهوذا » فأمرت بضربه بالسياط ، فأقرّ أن يعرف الموسع فخرج حتى جاء إلى الموضع الذي فيه المقبرة والأقرانيون ، وكانت مزبلة عظيمة هناك ، فصلى ، وقال : اللهم إن كان هذا الموضع المقبرة فأسألك أن تزلزل المكان ، وتخرج منه دخانًا حتى يؤمن ، فزلزل الموضع وخرج منه دخان كما سأل فآمن .

فأمرت « هيلانة » بكنس الموضع من التراب ، فظهرت المقبرة والأقرانيون ، ووجد ثلاثة صلبان . قالت « هيلانة » : كيف لنا أن نعلم بصلب السيد المسيح ؟ وكان بالقرب منهم عليل شديد العلة ، قد يئس منه ، فوضع الصليب الأول عليه والثانى والثالث ، فقام المريض وليس به شئ يكره .

فعلمت « هيلانة » أنه الصليب الذي لسيدنا المسيح ، فجعلته في غلاف من ذهب ، وحملته معها ، وجملته بما تقدر عليه وأظهرت كل ماكان مدفونًا من آثار سيدنا المسيح وحملته إلى ابنها « قسطنطين » وبنت كنيسة القمامة في موضع الصليب والأقرانيون وكنيسة قسطنطين ، وانصرفت . وأمرت أسقف بيت المقدس أن يبنى باقى الكنائس ، وذلك في اثنين وعشرين سنة من ملك قسطنطين .

قال : فمن ميلاد سيدنا المسيح إلى أن وجد الصليب ، ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنة ، وذكر أنه بعد هذا اجتمعوا بمجمع عظيم ببيت المقدس .

وكان معهم رجل قد دسَّهُ بطرك القسطنطينية وجماعة معه ليسألوا بطرك الإسكندرية وكان هذا الرجل لما رجع إلى الملك أظهر أنه مخالف لأريوس وكان يرى رأيه ويقول بمقالته . فقام هذا الرجل واسمه « مانيوس » فقال : إن أريوس لم يقل إن المسيح خلق الأشياء ولكن قال : به خلقت الأشياء لأن « كلمة الله » التى بها خلق السموات والأرض وإنما خلق الله الأشياء بكلمته ، ولم تخلق الأشياء كلمته كما قال سيدنا المسيح في الإنجيل المقدس « كل بيده كان ، ومن دونه لم يكن شئ » فقال : به كانت الحياة والحياة نور البشر ، وقال في العالم والعالم به تكون ، فأخبر أن الأشياء به تكونت ولم يخبر أنها كونت له . قال : فهذه كانت مقالة « أريوس » ولكن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا تعدوا عليه وظلموه وحرموه ظلمًا وعدوانًا .

فردَّ عليه بطرك الإسكندرية وقال : أما أريوس فلم يكذب عليه الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا ولاظلموه ، لأنه إنما قال : إن « الابن » خالق الأشياء دون الأب .

وإذا كانت الأشياء إنما خلقت بالابن دون أن يكون الأب لها خالقا فقد يجب أن يكون ماخلق منها شيئًا ، وفي ذلك تكذيب المسيح قوله : « الأب يخلق وأنا أخلق » وقال : « إن أنا لم أعمل عمل أبى فلاتصدقوني » وقال : « كما أن الأب يحيى من يشاء ويميته ، كذلك الابن يحيى من يشاء ويميته » .

فدل على أنه يحيى ويخلق ، وفي هذا تكذيب لمن زعم أنه ليس بخالق ، وإنما خلقت به دون أن يكون خالقًا له . وأما قولك : إن الأشياء كونت به ، فإنا كنا لانشك أن المسيح حىٌّ فعال ، وكان قد دل بقوله : « إنما أفعل الخلق والحياة » كان قولك : « به كونت الأشياء » إنما هو راجع في المعنى إلى أنه كَوَّنها فكانت به مُكَوَّنة . ولو لم يكن ذلك كذلك لتناقض القولان .

قال : ورد عليه أيضًا فقال : « أما قول من قال من أصحاب « أريوس » : إن الأب يريد الشيئ فيكوّنه الابن ، والإرادة للأب ، والتكوين للابن » فإن ذلك يفسد أيضًا ، إذ كان الابن عنده مخلوقًا فقد صار حظ المخلوق في الخلق أوفى من حظ الخالق فيه ، وذلك أن هذا أراد وفعل ، وذاك أراد ولم يفعل ، فهذا أوفر حظًا في فعله من ذاك ، ولابد لهذا أن يكون في فعله لما يريد ذلك ، بمنزلة كل فاعل من الخلق لما يريد الخالق منه ، ويكون حكمه كحكمه في الجبر والاختيار . فإن كان مجبوراً فلاشيئ له في الفعل ، وإن كان مختاراً فجائز أن يطاع ، وجائز أن يعصى ، وجائز أن يثاب ، وجائز أن يعاقب ، وهذا أشنع في القول .

قال : ورد عليه أيضًا وقال : إن كان الخالق إنما خلق خلقه بمخلوق ، فالمخلوق غير الخالق بلا شك ، فقد زعمتم أن الخالق يفعل بغيره ، والفاعل بغيره محتاج إلى متمم ليفعل به ، إذ كان لايتم له الفعل إلا به ، والمحتاج غيره منقوص ، والخالق يتعالى عن هذا كله .

قال : فلما دحض بطرك الإسكندرية حجج أولئك المخالفين ، وظهر لمن حضر بطلان قولهم ، تحيروا وخجلوا فوثبوا على بطرك الإسكندرية فضربوه حتى كاد يقتل ، فخلصه من أيديهم ابن أخت قسطنطين ، وهرب بطرك الإسكندرية المحتج على أصحاب « أريوس » وصار إلى بيت المقدس من غير حضور أحد من الأساقفة . ثم أصلح دهن « الميرون » ، وقدس الكنائس ومسحها بدهن الميرون وسار إلى الملك فأعلمه بالخبر فصرفه الملك إلى الإسكندرية .

فصل

قال : وأمر الملك أن لايسكن يهودي بيت المقدس ولايجوز بها ، ومن لم يتنصر يقتل ، فتنصر من اليهود خلق كثر ، وظهر دين النصرانية .

فقيل لقسطنطين الملك : إن اليهود يتنصرون من فزع القتل وهم على دينهم .

قال الملك : كيف لنا أن نعلم ذلك منهم ؟

قال بولس البترك : إن الخنزير في التوراة حرام ، واليهود لايأكلون لحم الخنزير ، فَأمُرْ أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها وتطعمهم منها ، فمن لم يأكل منه علمنا أنه مقيم على دين اليهودية .

فقال الملك : إذا كان الخنزير في التوراة حرامًا فكيف يجوز لنا أن نأكل لحم الخنزير ونطعمه الناس ؟

فقال له بولس البترك : إن سيدنا المسيح قد أبطل كل مافي التوراة ، وجاء بناموس آخر وبتوراة جديدة . وهو الإنجيل ، وفي إنجيله المقدس أن كل مايدخل البطن ليس بحرام ولابنجس ، وإنما ينجس الإنسان الذي يخرج من فيه .

وقال بولس الرسول في رسالته إلى أهل مدينة فورينيوس الأولى : الطعام للبطن آلته لها ، والبطن للطعام ، وله يلعن ومكتوب في الأتركسس - يعنى أخبار الحواريين - أن بطرس رئيس الحواريين كان في مدينة « يافا » في منزل رجل دباغ يقال له « سيمون » وأنه صعد إلى المنزل ليصلى وقت ست ساعات من النهار ، فوقع عليه سُبَاتٌ فنظر إلى السماء قد تفتحت ، وإذا إزار قد نزل من السماء حتى بلغ الأرض .

وفيه : كل ذي أربع قوائم على الأرض من السباع والذئاب وغير ذلك من طير السماء ، وسمع صوتًا يقول له : يابطرس ، قم فاذبح وكل .

فقال بطرس : يارب ما أكلت شيئًا نجسًا قط ولاوسخًا قط .

فجاء صوت ثانٍ : يارب ماطهره الله فليس بنجس .

وفي نسخة أخرى : ماطهره الله فلاتنجسه أنت .

ثم جاءه الصوت بهذا ثلاث مرات ، ثم إن الإزار ارتفع إلى السماء ، فعجب

بطرس وتحير فيما بينه وبين نفسه .

فبهذا المنظر وبما قال سيدنا المسيح في إنجيله المقدس أمر بطرس وبولس أن نأكل كل ذي أربع قوائم من الخنزير وغيره من جميع الحيوان حلالاً لنا .

فأمر الملك أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها ، وتقطع صغاراً صغاراً ، وتصير على أبواب الكنائس في كل مملكته يوم أحد الفُصْح . وكلٌ من خرج من الكنيسة يلقم لقمة من لحم الخنزير ، فمن لم يأكل منه يقتل ، فقتل لأجل ذلك خلق كثير .

قال سعيد : وكان لقسطنطين ثلاثة أولاد أكبرهم قسطنطين بن قسطنطين ، وذلك حين ملك أزدشير بن سابور بن هرمز على الفرس ، وملك بعده سابور بن سابور لخمس سنين من ملك قسطنطين .

قال : وفي ذلك العصر اجتمع أصحاب « أريوس » وكل من قال بمقالته إلى الملك قسطنطين ، فحسنوا له دينهم ومقالتهم ، وقالوا : إن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا الذين كانوا اجتمعوا بنيقية قد أخطأوا وحادوا عن الحق في قولهم : إن الابن متفق مع الأب في الجوهر . فتأمر أن لايقال هذا ، فإنه خطأ . فأراد الملك أن يفعل ذلك .

قال : وفي ذلك العصر ظهر على الأقرانيون - وهو الجلجلة - نصف النهار صليب من نور ، من الأرض إلى السماء يفوق ضوؤه ضوء الشمس ، فكان يبلغ طور زيتا ، فرأى ذلك كل من كان في بيت المقدس من كبير وصغير .

فكتب أسقف بيت المقدس إلى قسطنطين بن قسطنطين بالخبر وقال : في أيام أبيك السعيد ظهر صليب كواكب من السماء في نصف النهار ، وفي أيامك ظهر أيها الملك على الأقرانيون صليب من نور يفوق نوره نور الشمس في نصف النهار .

وكتب إليه أن لايقبل قول أصحاب أريوس فإنهم حائدون عن الحق ، كفار قد لعنهم الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، ولعنوا كل من يقول بمقالتهم . فقبل قوله .

قال : وفي ذلك الوقت غلبت مقالة « أريوس » على قسطنطينية وأنطاكية ، وبابل ، والإسكندرية .

فسمى التابعون لأريوس والقائلون بمقالته « أريوسيين » مشتقًا من اسمه .

قال : وفي ثاني سنة من ملك قسطنطين ، صير على أنطاكية بطرك أريوسى ثم بعده آخر أريوسى ، ثم بعده آخر منانى ، وصير على قسطنطينية بترك مناني .

قال : ففي عشر سنين من ملكه صير على قسطنطينية بطرك ، وكان يقول : روح القدس مخلوقة ، وأقام عشر سنين ومات .

ونقل بعد ذلك بطرك أنطاكية فصير على القسطنطينية ، وكان منانيًا .

قال : وأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين ومنانيين . فغلبوا على كنائس مصر فأخذوها ، ووثبوا على بترك الإسكندرية ليقتلوه فهرب منهم واستخفى وصيروا على إسكندرية بتركًا منانيا .

وفي ذلك الزمان ، قدم من القسطنطينية إلى الإسكندرية قائد وكان أريوسيًا . فنفى الملكى وأقام بطركا أريوسيا .

فلما خرج القائد قتل الملكيون ذلك البترك الأريوسى وأحرقوه بالنار . ومات الملك قسطنطين بن قسطنطين وله في الملك أربع وعشرون سنة .

وملك بعده بوليانوس الملك الكافر على الروم سنين وأراد أن يرد الناس إلى عبادة الأصنام ، وقتل من الشهداء خلقًا .

وفي أول سنة من ملكه وثب الأريوسيون ببيت المقدس على أسقفها الملكى الذي كتب بظهور الصليب ليقتلوه ، فهرب منهم فصيروا أسقفا أريوسيا .

قال : وفي ثانى سنة من ملكه صير على أنطاكية بطركا على الأمانة ، أقام خمسا وعشرين سنة .

وفي إحدى وعشرين سنة من رياسته ، كان المجمع الثاني بقسطنطينية .

قال : وكان في عصره أهل مدينة « نيريار » كلهم صابئون ، فوضع أسقف « نيريار » و « أميمرا » في ميلاد المسيح ويقول في ابتدائه : السيد ولد مختونا فخذوا المسيح من السماء واستقبلوه على الأرض .

فلما قرأه عليهم ، استهزأوا به ، وأقبلوا يضحكون منه .

فلما كان عيد الحميم وضع « ميمرا » في عيد الحميم ، هتك فيه دين الصابئين وفضحهم فيه ، ومكن فيه دين النصرانية .

قال : وكان في عصر بوليانوس الملك الكافر أول راهب سكن برية مصر ، وبنى الديارات ، وجمع الرهبان .

وكان آخر بالشام ، وهو أول من سكن بَرِّيَّة « الأردن » وجمع الرهبان . وبنى الديارات .

قال : وخرج هذا الملك الكافر لقتال « سابور » ملك الفرس .

فَلِسوْءِ مذهبه ، ورداءة دينه ، وما أراد أن يأخذ بعبادة الأصنام ، ظفر به ملك الفرس فقتله ، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة .

وذكر أسقف « قيسارية » أنه كان جالسًا في محرابه ، وحذاؤه لوح ، فيه صورة « مارى مركورس » الشاهد ، فنظر إلى اللوح فلم ير فيه صورة الشاهد فعجب من ذلك إذ غابت ، فلم يكن إلا ساعة ، حتى عادت صورة الشاهد إلى اللوح ، وفي طرف الحربة المصورة التى في يد الشاهد شبيه بالدم ، فتعجب من ذلك وبقى متحيراً ، حتى بلغه أن الملك الكافر قتل في الحرب .

فعلم أن « مارى مركوس » الشاهد قتله ، لشدة بغضه الذي كان للنصارى ، وما كان عزم عليه من عباده الأصنام .

وذكر بعد هذا جماعة من البتاركة والأساقفة ، كان بعضهم أريوسيا ، وبعضهم منانيا ، وبعضهم ملكيا ، وذكر فتنا بينهم وتعصُّبَ كل طائفة لبتركها ، حتى يقتل بعضهم بعضا ، وينفي بعضهم بعضًا .

وذكر أنه اختلفت آراء النصارى ، وكثرت بمقالاتهم ، وغلبت عليهم مقالة « أريوس » وأنهم ملكوا عليهم ملكا اسمه « تذوس » وأن الوزراء والقواد اجتمعوا إليه ، ذاكرين أن مقالات الناس اختلفت وفسدت ، وغلبت عليهم مقالة « أريوس » و « مقدينوس » فينظر الملك في هذا ويذب عن النصرانية ، ويوضح الأمانة المستقيمة .

وكتب إلى بطرك إسكندرية ، وإنطاكية ، ورومية ، وأسقف بيت المقدس ، فحضروا مع أساقفتهم بقسطنطينية ، إلا بطرك رومية فإنه كتب وأنفذ بالأمانة المستقيمة .

فاجتمع بقسطنطينية مائة وخمسون أسقفًا ، وكان المقدم البطاركة الثلاثة .

فدفع الملك إليهم كتاب بطرك رومية ، فكان صحيحًا موافقًا ، وكان يزعم أن روح القدس إله ، ولكن مخلوق مصنوع .

فقال بطرك الإسكندرية : ليس روح القدس عندى معنى غير حياته ، فإذا قلنا : إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا : إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا : إن حياته مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حيّ ، وإذا زعمنا أنه غير حيّ ، فقد كفرنا ، ومن كفر وجب عليه اللعن .

فاتفقوا على لعن مقدونيوس فلعنوه وأشياعه ، ولعنوا البطاركة الذين كانوا بعده يقولون بقوله ، ولعنوا أسقف لونية وأشياعه ، ولعنوا بوليناريوس وأشياعه ، لأنه كان يقول : إن الأب والابن وجه واحد .

ولعنوا بوليناريوس وأشياعه لأنه كان يقول : إن جسد سيدنا المسيح بغير فعل .

وثبتوا أن روح القدس خالقة غير مخلوقة ، إله حق ، وأن طبيعة الأب والابن جوهر واحد ، وطبيعة واحدة .

وزاد في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفًا الذين اجتمعوا في مدينة نيقية « وبروح القدس المحيى ، المميت ، المنبثق من الأب » .

وثبتوا أن الأب وحده والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، ذو ثلاثة وجوه ، وثلاث خواص في وحدانية واحدة ، وكيان واحد ، وثلاثة أقانيم إله واحد ، جوهر واحد ، طبيعة واحدة .

ثبتوا أن جسد سيدنا المسيح بنفس ناطقة عقلية .

قال : فمن المجمع الأول إلى هذا المجمع الثاني ، ثمان وخمسون سنة .

قال : وأطلق بطرق الإسكندرية للبطاركة والأساقفة والرهبان ، أكل اللحم من أجل المنانية ، ليعرف المناني منهم ، لأن المنانية لايرون أكل اللحم ، ولا شيئًا من الحيوان ألبتة .

وكان أكثر أساقفة مصر منانية ، فأكل بطاركة مصر وأساقفتهم اللحم .

وأما بطاركة رومية وقسطنطينية وأساقفتها ورهبانها ، فلم يأكلوا اللحم وأكلوا بدل اللحم السمك ، وأقاموه مقام اللحم إذ كان حيوانا .

قال سعيد بن البطريك : لم يطلق أكل اللحم على أنهم يعتاضون منه بالسمك ، إذ ليس بذبيحة ويمنعون أكل اللحم إذ كان قد أخطأ الذين أقاموا السمك مقام اللحم ، وسيدنا المسيح فقد أكل اللحم ، فوجب - ضرورة - أكل اللحم ، اقتداء بالسيد المسيح ولو يوما واحدا في السنة ، ليزيلوا الشك من مذهب المنانية .

قال : وفي الأبركسس مكتوبًا ، مانظره بطرس السليح بـ « يافا » من تنزل السبنية ، وفيها كل ذي أربع قوائم ، ولهذا الحكم كلٌ من لم يأكل اللحم مخالف

لشريعة النصرانية ، ومضاهٍ لمذهب الصابئة والروم ، وهم لايغتسلون إلى اليوم ، لأن المنانية لايرون الغسل بالماء ، فلما طال بهم الزمان أقاموه على هذه السنة .

وقال قوم : إنما تركوا الغسل بالماء لشدة برد بلادهم وبرد الماء عندهم ، وأنه لايتهيأ لهم بالجملة أن يقربوا الماء في الشتاء ، لثلجه وبرده ، فصار سنة جارية ، شتاء وصيفًا .

والمنانية صنفان ، السماعون ، والصديقون .

فالسماعون يصومون في كل شهر أيامًا معلومة ، والصديقون يصومون الدهر كله ، ولايأكلون إلا مانبت من الأرض .

فلما تنصروا خافوا أن يتركوا أكل اللحم فيعلم بهم فجعلوا لأنفسهم صياما ، فصاموا الميلاد والحواريين .

فلما طال بهم الزمان وتربوا في هذا الصوم ، أكلوا اللحم ، فتبعتهم في ذلك النساطرة ، واليعاقبة ، والمارونية ، وصارت سنة ، استحسنها الملكية فتبعوهم وخاصة المقيمون ببلاد الشام .

وأما الروم فما تركوا أكل اللحم في أيام صوم الميلاد وصوم الحواريين ، وتلك الأيام التي نظن أنها من جملة الصوم الكبير .

فمن أحب أن يصوم الميلاد والحواريين والسيدة ولايأكل لحمًا ، فليس بواجب وليس لأحد قطع اللحم طول السنة إلا في صوم الأربعين المقدسة فقط ، ومن فعل بضد ذلك فهو مخالف راجع إلى أصحاب الآراء المختلفة .

قال : وفي ثمان سنين من ملك « ثذوس » ظهرت فتية الذين كانوا هربوا من « ذاقيوس » الملك ، واختفوا في الكهف .

وذلك أن الرعاة – على طول الزمان – كانوا إذا جازوا بذلك الموضع الذي هو

الكهف قلموا الطوب المبنّى على باب الكهف حتى عاد مفتوحًا كالباب .

فلما انتبهت الفتية توهموا أنهم كانوا نيامًا ليلة واحدة ، فقالوا لصاحبهم الذي كان يذهب يبتاع لهم الطعام : امض واشتر لنا طعاما واستعلم خبر « ذاقنوس » .

فلما خرج إلى باب الكهف نظر إلى البنيان والهدم ، ثم مضى حتى بلغ باب المدينة وهي « أفسس » فرأى باب المدينة عليه صليب كبير منصوب فأنكر ذلك في نفسه ، وقال : أحسب أني نائم ، فأقبل يمسح عينيه وينظر يمينًا وشمالا : هل يرى من يعرفه ، فلم ير . فبقي متحيرا وقال : لعلى أخطأت الطريق ولعل هذه مدينة أخرى .

ثم دخل المدينة فدفع دراهم مما كان معه عليها صورة « ذاقيوس » الملك ، فأنكر عليه ، وقالوا : لعله أصاب كنزا ، ثم قالوا : من أين لك هذه الدراهم وإلا قتلناك فلم يكلمهم .

وصاح الناس ، فاجتمع إليه خلق كثير وكلموه فلم يكلمهم ، فصاروا به إلى طريق المدينة وكلمه فلم يتكلم ، فهدده فلم يتكلم ، فجاء إليه أسقف المدينة فكلمه وخوفه وقال : إنك إن لم تكلمنى وتقل لى من أين لك هذه الدراهم ، وإلا قتلتك .

وإنما كان يمتنع من الكلام خوفًا من « ذاقيوس » الملك .

فقالوا له : إنه قد مات وملك بعده جماعة ملوك ، فضربوه حتى آلمه الضرب فخبرهم بحاله على جليتها .

فقالوا له : إن ذاقيوس قد مات وملك بعده ملوك كثيرة ، والملك اليوم « تذوس » الكبير وقد ظهر دين النصرانية .

ثم سار معهم إلى الكهف فنظروا إلى أصحابه والصندوق النحاس الذي فيه الصحيفة الرصاص مكتوب فيها قصتهم وخبرهم .

فكثر تعجبهم وكتبوا إلى الملك يعلمونه بخبرهم ، فركب وسار إلى مدينة أفسس فنظر إليهم وكلمهم .

وبعد ثلاثة أيام دخل إليهم فوجدهم أمواتًا ، فأمر أن يتركوا في الكهف ولايخرجوا ، ولكن يدفنوا فيه وتبنى عليهم كنيسة ، وتسمى بأسمائهم ويُعيَّدَ لها عيد في كل سنة في ذلك اليوم ، وانصرف إلى قسطنطينية .

قال : فمن وقت هرب الفتية من ذاقيوس إلى الكهف إلى الوقت الذي ظهروا فيه وماتوا ، مائة وسبع ، أو تسعة وأربعين سنة .

قلت : هذا مما أخطأ فيه ، فإن الله تعالى أخبر أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا .

لكن بعض المفسرين ، زعموا أن هذا قول بعض أهل الكتاب لقوله « الله أعلمُ بمَا لبِثُوا » وليس كذلك ، فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب بل ذكره كلامًا منه تعالى .

قال سعيد : وفي زمنه كانت قصة بترك قسطنطينية « يوحنا » الملقب بـ « فم الذهب » وتولى بعد ابنه « ثذوس » الصغير اثنين وأربعين سنة لإحدى عشرة سنة من ملك « يزدجرد بن بهرام » .

وفي زمنه جعل « نسطورس » الذي تنسب إليه مقالة النسطورية بطركا على قسطنطينية .

قال : وكان نسطورس يقول : إن مريم العذراء ليست بوالدة إلهًا على الحقيقة ، ولذلك كان اثنان .

إحداهما : — الذي هو إله مولود من الأب .

والآخر : — الذي هو إنسان مولود من مريم ، وأن هذا الإنسان الذي يقول : إنه

مسيح بالمحبة ، متوحد مع ابن إله ، ويقال له إله وابن الإله ، ليس بالحقيقة ، ولكن موهبة. واتعاق الاسمين والكرامة شبيهًا بأحد الأنبياء .

فبلغ قوله بطرك الإسكندرية فأنكر ذلك ، وكتب إليه يقبح عليه فعله ومقالته ، ويعرفه فساد ماهو عليه ويسأله الرجوع إلى الحق ، فجرت بينهما رسائل كثيرة ، ولم يرجع نسطورس عن مقالته .

فكتب إلى بطرك أنطاكية يسأله أن يكتب إلى نسطورس ويعرفه قبح فعله ورأيه وفساد مقالته ، ويسأله الرجوع إلى الحق .

فكتب إلى نسطورس . إن هو لم يرجع اجتمعوا ولعنوه ، وجرت بينهما رسائل كثيرة ، فلم يرجع .

فكتبوا إلى بطرك رومية وأنطاكية ، وبطرك بيت المقدس أن يجتمعوا في مدينة « أفسس » لينظروا في مقالة نسطورس .

فاجتمع بالمدينة مائتا أسقف ، مقدمهم بطرك إسكندرية ، وتأخر بطرك أنطاكية فلم ينتظروه ، وبعثوا إلى نسطورس فلم يحضر معهم ، فنظروا في مقالته وأوجبوا عليه اللعن فلعنوه ونفوه ، وثبّتوا أن مريم العذراء والدة الإله ، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين متوحدة في الأقنوم .

وهذا هو خلاف المحبة لأن نسطورس كان يقول : إن التحيد (أي الاتحاد) اتفاق الوجهين ، وأما التحيد (أي الاتحاد المستقيم) فإنما هو أن يكون أقنوما واحداً من طبيعتين .

فلما لعنوا نسطورس ، قدم يوحنا بطرك أنطاكية ، فلما وجدهم قد لعنوه قبل حضوره ، غضب وقال : ظلمتم نسطورس ولعنتموه باطلا وتعصب مع نسطورس فجمع الأساقفة الذين قدموا معه فنطع بطرك إسكندرية وقطع أسقف أفسس .

فلما رأى أصحاب بطرك إسكندرية قبح فعاله وقع بينهم شر عظيم ، وخرجوا من أفسس ، وصار أصحاب بطرك إسكندرية والمشرقيون حزبين ، فلم يزل ثذوس الملك حتى أصلح بينهم .

وكتب المشرقيون صحيفة وثبتوا فيها الأمانة الصحيحة ، وقالوا فيها : إن مريم العذراء القديسة ولدت إلهًا ربنا يسوع ، الذي هو مع أبيه في الطبيعة ، ومع الناسوت في الناسوت ، وأقروا بطبيعتين ووجه واحد ، وأقنوم واحد ، ولعنوا نسطورس ، ووجهوا بالصحيفة إلى بطرك إسكندرية فقبل الصحيفة ، وأجابهم عنها بموافقتهم على ذلك .

وقال قوم : لما قبل صحيفة المشرقيين بدا له ، ولم يقبل طبيعتين ووجهًا واحدًا .

وقال سعيد بن البطريق : وهم في ذلك كاذبون ، لأن كتبه تنطق بذلك .

ثم أرسل نسخة صحيفة المشرقيين إلى جماعة من الأساقفة يعلمهم أن المشرقيين رجعوا إلى الإيمان ، وأنهم غير موافقين لنسطورس .

قال : فمن المجمع الثاني إلى المائة والخمسين أسقفًا المجتمعين بمدينة قسطنطين ولعنوا مقدونيوس إلى هذا المجمع المائتين أسقفًا المجتمعين بأفسس على نسطورس ، إحدى وخمسون سنة .

قال : ولما نفي نسطورس صار إلى مصر ، فأقام بضيعة في صعيد مصر يقال لها « أخميم » ومات ودفن بها .

وكانت مقالته قد اندرست فأحياها من بعده نرمان طويل مطران « نصيبين » في عصر بوسطيانوس ملك الروم ، و « قباد بن فيروز » ملك الفرس ، فبثها بالمشرق ، فلذلك كثر النسطورية بالمشرق ، وخاصة أرض أهل فارس بالعراق ، والموصل ، ونصيبين ، والفرات ، والجزيرة .

قال سعيد بن البطريق : رأيت أن أرد على النسطورية في هذا الموضع ، وأبين بطلان قولهم وفساده ، لأن النسطورية في عصرنا هذا خالفوا قول نسطور القديم ، وزعموا أن نسطور كان يقول : إن المسيح جوهران وأقنومان إله تام بأقنومه وجوهره ، وإنسان تام بأقنومه وجوهره .

وإن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لامن جهة لاهوته ، لأن الأب عندهم ولد إلهًا ولم يلد إنسانًا ، ومريم ولدت إنسانًا ولم تلد إلهًا .

فيقال لهم : إن كان الأمر على ماتقولون ، فالمسيح مسيحان وابنان ، فمسيح إله وابن إله ، ومسيح إنسان وابن إنسان ، لأنه لابد لمريم من أن تكون ولدت المسيح ، أو لم تلده .

فإن كانت ولدته ، فلابد أن تكون ولادًا روحانيًا أو جسمانيًا .

فإن كان جسمانيًا ، فهو غير الذي ولده الأب ، وذلك يوجب أن يكون مسيحان .

وإن كان روحانيًا ، فالمسيح ابن واحد ، أقنوم واحد ، مسيح واحد .

والدليل على ذلك صفيحة الحديد التي تتحد بها النار ، فإنها سيف واحد تحرق وتمنع ، وتقطع وتضيئ .

لايجوز أن يكون من الجهة الحديدية هي المحرقة المضيئة من غير جهة النار ، إذ كان مالم يكن فيه نار من الحديد غير محرق .

ولا الجهة النارية هي القاطعة المانعة ، إذ كان شأن النار الإضاءَة والإحراق لا القطع .

فقد ثبت بهذا وصح ماتعتقده الملكية من أن المسيح أقنوم واحد ، وبأن زيف قول النسطورية : إن المسيح أقنومان .

قلت : يقال لهذا : إن قول النسطورية والملكية ، وإن كانا باطلين ، فقول الملكية أشد بطلانًا وأعظم كفرًا وتناقضًا ، وماذكره هذا باطل .

أما قوله : لو كان الأمر على ماتقولون ، فالمسيح مسيحان .

فيقال له : هذا إنما يلزم أن لو كان اللاهوت بمجرده يسمى مسيحًا ، فإن النسطورية وافقوهم على باطل ، وهو أن الرب ولد إلها ، وهذا باطل .

ولم يقل أحد قط من الأنبياء ، لافي الإنجيل ولاغيره : إن صفة الله القائمة به مولودة ، ولا إن الرب له مولود قديم أزلي .

لكن إذا قدر أن الأمر كذلك ، فصفة الله لم يسمها أحد مسيحيًا .

فإذا قدر أن اللاهوت والناسوت جوهران أقنومان لا اتحاد بينهما ، لم يلزم أن يكون اللاهوت مسيحيًا ، ولا هناك مسيح هو إله ، ولا مسيح هو ابن إله .

وقد تقدم عن نسطور أنه كان يقول : إن هذا الإنسان الذي نقول : إنه مسيح متوحد بالمحبة مع ابن إله ويقال له وإله وابن إله ، ليس بالحقيقة .

فقد صرح بأن المسيح هو الإنسان فقط دون اللاهوت ، وأن المسيح ليس بإله ولا ابن إله في الحقيقة .

فبطل ما ألزمه إياه ، من أنه يلزم أن يكون هنا مسيحان .

وأما قوله : لابد لمريم من أن تكون ولدت المسيح ، أو لم تلده .

فيقال : بل ولدت المسيح وهو الإنسان ، وهو غير اللاهوت الذي تزعمون أن الأب ولده ، وليس في ذلك مسيحان ، بل مسيح واحد إنسان مخلوق .

وأيضًا فقوله : فإن كان ولدته فلابد أن يكون ولادًا روحانيًا أو جسمانيًا ، فإن كان روحانيًا ، فالمسيح ابن واحد ، أقنوم واحد ، مسيح واحد ، تقسيم باطل ، وحجة فاسدة داحضة .

فإن مريم لم تلد ولادة روحانية ، بل خرج الولد من فرجها كما تخرج أولاد النساء من فروجهن ، سواء كانت عذريتها باقية أو لم تكن .

وأما ما ذكره من التمثيل بصفيحة الحديد ، فلو قدر أنه مثل مطابق لم يدل على صحة قولهم ، بل غايته أنه يدل على إمكانه .

فأين الدليل على أن هذا هو الواقع ؟ فليس فيه مايدل على صحة قول الملكية ، وفساد قول خصومهم ، فكيف وهو تمثيل غير مطابق ؟

فإن الحديد إذا اتحدت به النار ، كان الحديد قد استحالت عن صفته ، فلم يبق حديداً محضاً ، وليست ناراً محضة ، والخشب وغيره إذا أحرق وصار ناراً ، فليس هو خشباً محضاً ، وليس هو ناراً محضة بسيطة .

فمن شأن الشيئين - إذا اتحدا - أن يستحيل كل منهما إلى جوهر ثالث وطبيعة ثالثة ، ليست لاهذا ولاهذا ، كالماء واللبن إذا اتحدا ، فإن ذلك يصير جوهراً ثالثاً وطبيعة ثالثة ، لالبناً محضاً ، ولا ماء محضاً ، وكذلك النار مع الحديد أو الخشب أو غير ذلك ، فإن ذلك يصير جوهراً ثالثاً ، ليس حديداً محضاً ولا خشباً محضاً ، ولاناراً محضة ، لكن الحديد إذا برد فهو حديد ، لكنه تغيرت حقيقته ، فالنار تلينه وتذهب خبثه ، ولايبقى - بعد اتحاده بالنار - كما كان قبل ، والخشب يصير فحماً وهو جوهر ثالث ، إذ كان من طبع النار أنها تؤثر في كل جسد بحسبه ، فتؤثر في الحديد بحسبه ، وفي الخشب بحسبه .

وكل شيئين اتحدا فإنهما يصيران جوهراً ثالثاً وأقنوماً ثالثا وطبيعة ثالثة .

فإن كان اللاهوت والناسوت قد اتحدا - كما زعموا - فقد استحالت صفة اللاهوت ، واستحالت صفة الناسوت ، فلم يبق اللاهوت لاهوتاً ولا الناسوت ناسوتاً ، بل صار جوهراً ثالثاً ، لا لاهوت ولا ناسوت ، وهم ينكرون هذا القول ، وهو باطل .

فإن رب العالمين لايتبدل ، وتستحيل (الأصل هكذا والسياق يقتضي أن يقال : لا تستحيل) صفاته بصفات المحدثات ، ولاينقلب القديم ولا شئ من صفاته محدثًا ، ولايستحيل القديم الرب الخالق والمخلوق المحدث إلى شئ ثالث .

بل صفات الرب التي لم يزل ولايزال موصوفًا بها لاتتبدل ، ولاتنقلب ، ولاتستيحل ، فضلا عن أن تستحيل إلى أمر ثالث .

ثم هذا الثالث ، إن كان قديمًا خالقًا ، صار هنا خالقان قديمان .

وإن كان مخلوقًا محدثًا ، كان الخالق قد صار مخلوقًا محدثًا ، ومعلوم أن استحالة الخالق إلى خالق آخر أو إلى مخلوق ، ممتنع ظاهر الامتناع .

ومما يوضح هذا ، أن مامثلوا به من الحديدة المحماة بالنار هي جوهر ثالث ، يجري على نارها مايجرى على حديدها ، فإذا طرقت ، فالتطريق واقع على نارها كما هو واقع على حديدها ، وكذلك إذا مدت ، وكذلك إذا بصق عليها ، وكذلك إذا ألقيت في الماء .

فإن كان هذا التمثيل مطابقًا ، لزم أن يكون ماحلَّ بالناسوت قد حلَّ باللاهوت .

فيكون رب العالمين ، هو الذي كان يأكل ويشرب ، ويبول ويتغوط ، وهو الذي صُفِعَ عندهم ، وبُصِقَ في وجهه ، وجعل الشوك على رأسه ، وضُرِبَ بالسياط ، وصُلِبَ ومات ، وتألم ، كما يحكى مثل هذا عن اليعقوبية .

وهذا لازم لكل من قال بالاتحاد ، حتى النسطورية إن قالوا : إنهما متحدان بالمشيئة ، بمعنى أن مشيئة هذا عين مشيئة هذا .

بخلاف ما إذا قالوا : إن مشيئته موافقة لمشيئته ليست إياها ولهذا قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إن الله هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ : اعْبُدُوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّه مَن يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاه

النَّار وَمَاللظَّالِمينَ مِنْ أنصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِين قَالُوا : إنَّ اللـه ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَامِنْ إلهٍ إلاَّ إلـه وَاحِدٌ وإن لَّمْ يَنتَهُوا عمَّا يَقُولُون لَيَمَسَّنَّ الَّذِيـن كَفَروا مِنْهُمْ عذَابٌ ألِيـمٌ * أفَلاَ يَتُوبُون إلى اللـهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ واللهُ غَفورٌ ، رَحِـيمٌ ﴾ إلىَ قـوله : ﴿ مَا المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأمُّهُ صِدِّيقَةٌ كـانَا يَأكُلاَن الطَّعَام انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّن لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أنَّى يُؤفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٢ - ٧٥] .

فذكر سبحانه وتعالى : أنهـما كانا يأكلان الطعام ، لأن ذلك من أظهر الأدلة على أنهما مخلوقان مربوبان ، إذ الخالق أحد صمد ، لايأكل ولايشرب .

وذكر مـريم مع المسيح لأن من النصـارى من اتخذها إلها آخـر ، فعبـدها كما عـبد المسيح .

والذين لايقولون بهـذا كثير ، منـهم يطلب منها كل مايطلب من الله حـتى يقول لها : اغفري لي وارحميني ، وغير ذلك . بناء على أنها تشفع في ذلك إلى ابنها .

فتارة يقـولون : ياوالدة الإله ، اشفعى لنا إلى الإله ، وتارة يسئلـونها الحوائج التي تطلب من الله ولايذكرون شفاعة وآخرون يعبدونها كما يعبدون المسيح .

وقد ذكر سعيد بن البطـريق هذا عنهـم ،لما ذكـر اجتماعهم عند قسـطنطين بـ «نيقية» .

قال : وكانوا مختلفي الآراء مختلفى الأديان.

فـمنهم من يقول : المسيح وأمه إلهـان من دون الله ، وهم المريمانيـون ، ويسمـون المريمانيـة . كذلك قـال ابن حزم وقـد قال تعـالى : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابـن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافي نفسى ولا أعلم مافي نفسك إنك أنت عـلام الغيوب * مـاقلت لهم إلا مـا أمرتني به أن اعـبـدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيـهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على

كل شئ شهيد ﴾ [المائدة : ١١٦ - ١١٧] وهو سبحانه لم يحك هذا على جميع النصارى بل سأل المسيح سؤالا يقرع به من اتخذه وأمه إلهين من دون الله .

قال ابن البطريق : ويقال للنسطورية أيضاً : أخبرونا عن الناسوت التى اتحدت بها اللاهوت وسمى مسيحًا : هل هو لم يزل مسيحًا منذ كان في بطن مريم إلى حين وضعته وأرضعته وشب وصلب وقتل ، أم كان ثلاثين سنة وهو واحد من الناس ، ثم اتحد بعد ذلك اللاهوت بالناسوت فكان مسيحًا ؟

فإن قالوا : لم يكن مسيحًا وهو في بطن مريم ، وإنما ولدت مريم إنسانًا كان ثلاثين سنة واحداً من الناس ، ثم اتحد بعد ذلك اللاهوت بالناسوت فكان مسيحًا ، تركوا قولهم وكذبوا الإنجيل وبولص ، وجميع كتب الكنيسة وخرجوا عن مقالة النصرانية .

وإن قالوا : إن اللاهوت اتحد في الناسوت عند الحمل وأنه كان مسيحًا وهو محمول ومولود ومرضع إلى أن صلب وقتل ، فقد أقروا أن مريم ولدت إلهًا مسيحًا واحداً ، أقنوما واحداً .

فيقال له : هذا التقسيم يدل على بطلان قول النصارى الذين ابتدعه طوائفهم الثلاثة وغيرهم ، فإن الاتحاد يزعمون أنه كان من حين حملت به مريم ، وأنه كان ينمو قليلا قليلا ، كنمو جسد المسيح ، والاتحاد باطل كما قد قرر غير مرة ولو قدر أنه ممكن ، لظهر أثر ذلك .

فإن الله لما كلم موسى من الشجرة ، ظهر من الآيات والعظمة مادل على ذلك .

ولذلك كان إذا كلم موسى يظهر آيات ذلك .

وكذلك ما أخبر به في التوراة وغيرها من مصاحبته لبنى إسرائيل ، وهو مما ظهر أثره ، وإن لم يكن متحداً ولا حالا في شئ من ذلك .

ولما تجلّى من طور سيناء وأشرق من « ساعير » واستعان من جبال « فاران » بما

أنزله من كتبه ، ظهر آثار ذلك ، وإن لم تكن ذاته متحدة ولا حالة بفاران ولاطور سيناء ، باتفاق الأمم .

فكيف تكون ذاته متحدة بما في بطن مريم ، أو حالّة فيه ، ولايظهر أثر ذلك ؟

وأيضًا فيقال له : قد يقول النسطورية له : الناسوت كان مسيحًا من حين الحمل ، بمعنى أنه كان طاهرًا مقدسًا لابمعنى اتحاد اللاهوت به .

وإن قالوا : المسيح اسم اللاهوت والناسوت جميعًا ، فيقال : ليس في كتب الأنبياء مايقتضى هذا ، والنسطورية يسلمون ذلك لكن قد يقولون : إن المسيح اسم لهما كما أن الإنسان اسم للروح والجسد .

ثم قد يقال لجسد الإنسان الميت : هذا الإنسان ، فيقال وهو في بطن مريم أمه قبل نفخ الروح فيه : هذا الجنين وهذا الحمل . فكذلك إذا قيل له : مسيح بدون اللاهوت وأيضًا فقد تقول النساطرة باقتران اللاهوت من حين الحمل ، ولايلزم أن يكون قد ولدت إلهًا ، إذا لم يقولوا بالاتحاد ، بل قالوا : هما جوهران أقنومان ، ولدت أحدهما ولم تلد الآخر كما تقول الملكية معهم : إنه صلب أحدهما ولم يصلب الآخر ، ومات أحدهما ولم يمت الآخر ، وتألم أحدهما ولم يتألم الآخر .

فكيف جوز الملكية حين الموت أن يحل الموت والصلب ، والأكل والشرب ، وسائر الأمور البشرية بأحد الجوهرين دون الآخر ، ولم يجوزوا حين الولادة – أن تلد مريم أحد الجوهرين دون الآخر ؟ وهل هذا إلا من تناقضهم ؟ كقولهم جميعًا : إنه صعد إلى السماء . وقعد عن يمين أبيه مع قولهم : إن اللاهوت مع الناسوت قعد عن يمين الأب .

ويقولون مع ذلك : إن اللاهوت القاعد عن يمين الآخر هو ذلك الآخر وهما جوهر واحد ، وإله واحد ، مع قوله : إنه حق من إله حق . فمناقضاتهم كثيرة .

ولاريب أن قول النسطورية أيضًا متناقض . لكن لايمكن أن نصحح قول الملكية

دون قولهم . بل قول الملكية أعظم فساداً وتناقضاً .

فالنسطورية يقولون : الإله لم يولد ولم يصلب .

واليعقوبية يقولون : ولد وصلب .

والملكية يقولون : ولد ولم يصلب .

ومتى جاز أن يولد ، جاز أن يموت ويصلب ، وإن لم يجز أن يصلب ويموت ، لم يجز أن يولد .

فتجويز أحدهما ومنع الآخر ، تناقض .

ويقال للملكية : أنتم تقولون : إن اللاهوت اتحد بالناسوت عند الحمل ، وكان مسيحًا وهو مصفوع ومصلوب وميت ومتألم ، وتقولون : هذا كان بالناسوت دون اللاهوت ، فهذا التناقض من جنس تناقض النساطرة .

قال ابن البطريق : ويقال للنساطرة أيضًا : متى اتحدت الكلمة بالإنسان ؟ أقبل الولادة أم في حال الولادة ؟

فإن قالوا: قبل الولادة ، قلنا لهم : قبل الولادة ، قبل الحمل ، أو قبل الولادة وهو حمل؟

فإن قالوا : قبل الولادة وقبل الحمل ، فقد زعموا أنه اتحد قبل أن يكون إنسانًا وقبل أن يصور . وقولك : فإن كان ذلك فسد قول النسطورية : إن القديم اتحد بإنسان جزئي ، لأن الإنسان الجزئي إنما كان إنسانًا جزئيًا لما صار مصوراً بشريًا .

فيقال له : هذا السؤال لازم للطوائف الثلاثة ، فإنهم يقولون بالاتحاد أعظم من النساطرة .

فإن قيل : هم يقولون : إنه اتحد بإنسان كلى ، كان هذا من أفسد الأقاويل فإن المسيح بشر معين جزئي ، يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، لم يكن إنسانًا كليًا .

ثم قال : ويلزمهم ، أن يزعموا أن اللاهوت قد كان حل مع الناسوت تسعة أشهر ونحوها من بدء الحمل مقيما معه في الموضع الذي يحمل فيه الجنين ثم ولدا معًا ، وهذا خلاف قولهم : إن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته ، لا من جهة لاهوته .

فيقال : قد يقولون : إنه ولد الناسوت دون اللاهوت كما يقول الملكية : إنه صلب الناسوت دون اللاهوت .

وإن كان هذا متناقضًا ، فالنساطرة أقل تناقضًا ، لأن الملكية يقولون : إنهما شخص واحد ، أقنوم واحد ، فقد اتحد أحدهما بالآخر .

فإذا جاز مع هذا أن يفارق أحدهما الآخر في الأكل والشرب والصلب والموت ، فمن قال : إنهما جوهران أقنومان ، هو أولى أن يقول : ولدت أحدهما دون الآخر .

ثم قال : وإن قالوا : اتحد به وهو حمل صورة تامة .

قلنا لهم : فقد كان الإله حملا قبل الولادة ، وإذا جاز أن يحمل ، جاز أن يولد .

فيقال : هم لايقولون بأنهما صارا شخصا واحدًا ، أقنوما واحدًا ، بل يقولون : جوهران أقنومان وحينئذ فلايقولون : حملت بإله ، ولا ولدت إلها ، كما لايقول الملكية : صلب اللاهوت ، ومات اللاهوت ، مع قولهم بأن اللاهوت والناسوت اتحدا .

قال : فإن قالوا : كان الاتحاد في حال الولادة .

قلنا : فقد ولدت مريم الكلمة إذًا مع الإنسان ، والكلمة عندنا وعندهم إله ، فقد ولدت مريم إلها .

فإن قالوا : نعم ، قلنا : فإذا جاز أن يولد فلم يجوز أن يكون حملا ؟ فإذا أجازوا ذلك تركوا قولهم ، وإن لم يجيزوه قلنا : فما الفرق بين أن يكون مولودًا ، وبين أن يكون محمولا؟ فإن قالوا : ليس الإله مولودًا ، ولم يكن الاتحاد قبل الولادة ، وهو أن

يكون محمولا ، ولافي حال كونه ولداً في حال الولادة .

قلنا : فهذا نقض قولكم : إن مريم ولدت المسيح ، لأن المسيح – عندكم – ليس هو الإنسان وحده ، ومريم – عندكم – إنما ولدت الإنسان وحده .

وإذا كان المسيح ليس هو الإنسان وحده ، وعندكم إنما ولدت الإنسان وحده قبل الاتحاد ، فإنما ولدت إذاً ، ماليس بمسيح ، إذ كان إنما كان مسيحا بالاتحاد ، وكان الاتحاد بعد الولادة ، إنما كان مسيحًا بعد الولادة .

فإذا كان هذا – عندكم – فاسداً ، وكانت مريم ولدت المسيح ، فمريم لم تلد الإنسان وحده ، وهذا يوجب أنها قد ولدت الإله مع الإنسان ، ويوجب أن الاتحاد كان قبل الولادة .

قال : فقد تبين زائف ماتعتقده النسطورية ، من أن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لامن جهة لاهوته ، وصح أن مريم ولدت إلها مسيحا واحداً .

قال : ويقال لهم : إذا زعمتم أن المسيح جوهران ، جوهر قديم ، وجوهر محدث ، ثم زعمتم أن مريم ولدت المسيح ، فقد أقررتم أن مريم ولدت هذين الجوهرين اللذين هما المسيح ، وإذا ولدتهما ، وأحدهما إله ، فقد ولدت إلها قديما ، ولايجوز أن تلد إلا ماكان محمولا ، فهذا يوجب أنها قد كانت حاملة لذلك أقنوما واحداً .

فقد تبين زيف ماتعتقده النسطورية ، أن مريم لم تحمل إلها ، ولم تلده ، وصح ماتعتقده الملكية أن مريم ولدت إلها مسيحا واحداً ، ابنًا واحداً ، أقنوما واحدا .

فيقال له : ليس هذا التناقض من النسطورية بأعظم من تناقض الملكية ، فإنهم – مع قولهم باتحاد اللاهوت والناسوت ، وأنهما شخص واحد – يقولون : إن أحدهما كان يأكل ويشرب ؛ ويصوم ويصلى ويتصرف ، وأنه أخذ وصفع ووضع الشوك على رأسه وصلب وألم ، ومات دون الآخر .

فإذا كان قول النسطورية متناقضاً ، فقول الملكية أعظم تناقضا ، فإذا منعوا أن تحمل المرأة وتلد الناسوت دون اللاهوت لأجل الاتحاد الذي بينهما ، وجب أن يمنعوا أن يأكل ويشرب ، ويصلب ويقتل أحدهما دون الآخر لأجل الاتحاد بطريق الأولى .

وكون الصلب والقتل أعظم منافاة للربوبية من حمل مريم به وولادته إياه لايمنع كون كل ذلك ممتنعًا على الله .

ومن جوز عقله أن يكون رب العالمين خرج من فرج مريم وهي بكر ، فقد جعل رب العالمين يخرج من ثقب صغير ، وهذا أعظم مايكون من الامتناع .

وحين جوز عليه هذا ، جوز عليه أن يخرج من كل ثقب مثل ذلك الثقب وأكبر منه ، وجوز أن يخرج رب العالمين من فم كل حيوان وفرجه ، ومن شقوق الأبواب وغير ذلك من الثقوب .

وإن قالوا : ذاك مكان طاهر ، قيل : أفواه الأنبياء والصالحين أطهر من كل فرج في العالم ، فيجوز أن يخرج من فم كل نبى وولىّ لله ، ومن أذنه ، ومن أنفه ، فإن كل هذه الخروق والثقوب أفضل من فروج النساء ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فهؤلاء النصارى يقولون : إن كون الله مولوداً من فرج مريم ، غير كونه مولوداً في الأزل من الأب ، بل هما ولادتان روحانية وجسمانية .

وهم إذا طولبوا بتفهيم مايقولون ، وقيل لهم : هذا لايتصور أن يكون رب العالمين يخرج من ثقب ضيق ، لافرج ، ولافم ، ولا أذن ، ولاغير ذلك من الأثقاب ، قالوا : هذا فوق العقل ، واعترفوا بأن هذا لايتصوره العقل .

فيقال لهم : هذا الكلام لم يقله نبى من الأنبياء ، ولم ينطق نبى من الأنبياء بأن مريم حملت برب العالمين وولدته ، بل ولانطق نبى من الأنبياء بأن الله مولود ولاشئ من صفاته مولود ، لاعلمه ، ولاحياته ، ولاغير ذلك .

ولانطق نبى من الأنبياء لا المسيح ولاغيره بأن الله اتحد بشئ من المخلوقات .

وليس في الإنجيل وغيره مما ينقل عن الأنبياء شئ من ذلك ، بل غاية مافيها كلمات مجملة متشابهة كقوله : أنا وأبي واحد ، كما قال الله لمحمد ﴿ إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ [الفتح : ١٠] وقوله : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠] .

فإذا قال بعض ملاحدة المسلمين من الشيعة ، أو المتصوفة ، أو غيرهم : إن الله اتحد بمحمد . لقوله ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ كان هذا من جنس قول النصارى .

والآية لم تدل على ذلك ، بل مبايعة الرسول مبياعة لله ، لأن الرسول أمر بما أمر الله به ، ونهى عما نهى الله عنه .

فليس في كلام الأنبياء أن الله ولاشيئًا من صفاته ، مولود الولادة التي يسمونها ولادة عقلية وروحانية ، ولافي كتبهم أن شيئًا من صفات الله تسمى ابنا لله ، ولا أن اللاهوت ابن الله فضلا عن أن ينطقوا بأن الله مولود من امرأة ولادة ، وخرج من فرجها ، فيكون مولوداً ولادة جسمانية .

ولهذا تنازعت النصارى في ذلك لم يكن لمن ادعاه على من نفاه حجة من نصوص الأنبياء ، غاية ماعندهم التمسك بألفاظ متشابهة وتغيير ألفاظ صريحة محكمة ، تبين أن المولود إنما هو بشر .

فإذا قالوا في الألفاظ المتشابهة : لانعلم مراد الرسول بها ، كان هذا مما قد يعذرون به ، فإن المتشابه من النصوص لايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم .

فإذا قالوا : لسنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله ، كانوا شاهدين على أنفسهم بعدم العلم ، وشهادة الإنسان على نفسه مقبولة .

بخلاف القول الذي تكلموا به هم ؛ وزعموا أن معناه يدل عليه كلام الأنبياء ؛ أو يدل عليه العقل ، فإن عليهم أن يبينوا معناه الذي عنوه به ، وعليهم أن يبينوا أنه قد دل على ذلك شرع أو عقل .

فإذا قالوا : نفس الكلام الذي قلناه لانتصور معناه . كانوا معترفين أنهم يقولون على الله مالا يعلمون ؛ وهذا حرام عليهم .

وإن قالوا : إن كلام الأنبياء دل على ذلك . كان غاية ماعندهم التمسك بالمتشابه وحينئذ فيطالبون بتفسير المتشابه ؛ والجمع بينه وبين المحكم على وجه صحيح معلوم ، وإلا فإذا قالوا : هذا فوق العقل لانفهمه .

قيل لهم : فدعوا المتشابه لاتحتجون به . ولاتذكرون له معنى . تزعمون أنكم لاتعقلونه .

فمتى ثبت عن الأنبياء قول وقال قوم : إنا لانفهمه أنهم يصدقون أنفسهم .

وأما إذا فسروا كلام الأنبياء بقول عبروا به عن مراد الأنبياء ، وقالوا : هذا مرادهم مع تعبيرهم عنه بعبارات أخرى . طولبوا بأن يبينوا ذلك المعنى وقيل لهم : إن فهمتم ماقلتموه فبينوه ؛ وإن لم تفهموه فلا تتكلموا بلا علم .

قال سعيد بن البطريق : إن أئمة الضلالة - أعنى نسطوريوس وأرطيوس وديسقورس وسورس ويعقوب البراذعى وأشياعهم - الذين أرادوا أن يقيموا الزيف والمحال ولم يراجعوا إلى خشية الله وزاغوا من سبيل الحق لسوء رأيهم فقد تورطوا في بحر الضلالة .

وهم - جميعا - فما ارتطموا فيه من ضلالتهم يضمرون جهلا منهم باتحاد لاهوت سيدنا المسيح بناسوته ؛ ويتورط كل واحد منهم في وجه من وجوه الخلطة ؛ ويتمسك به .

فقد رأيت أن أوضح وجه الخلطة : وأبين ذلك لتقف على فساد قولهم : إن من عظيم تدبير الله وكمال عدله وجليل رحمته ؛ أن يبعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شئ من جوهره ليست مخلوقة . ولكن مولودة منه من قبل كل الدهور ، ولم يكن الله بلا كلمته ولاروحه قط ؛ ولاكانت الكلمة بَرِيَّةً منه قط ولامن روحه ولامن جوهره . فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت ، الذي لم يزل ولايزال فالتحمت من مريم العذراء وهي جارية طاهرة مختارة من نسل داود ، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين ، وطهرها بروح القدس وروحه الجوهرية . حتى جعلها أهلا لحلول كلمة الله الجوهرية بها ؛ فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها . بمسرة الأب وموازرة روح القدس . خلقًا جديداً من غير نطفة آدمية جرت عليها الخطيئة . ومن غير مجامعة بشرية ولا انفكاك عذره . تلك الجارية المقدسة . فهو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية وروحه الكلمانية التى من صورة الله في الإنسان وشبهه . فكانت مسكنًا لله في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع مالطف من الخلائق كلهم .

واعلم أنه لايرى شئ من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق . ولايرى ماهو لطيف من اللطيف إلا مع ماهو أغلظ منه فيما يظهر لأهل الأثقال من غليظ الخلق .

وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية ألطف من لطيف الخلق ، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله ، فكانت لها حجابًا ، ولمن هو ألطف منها ، وكانت النفس الدموية حجابًا والجسد الغليظ حجابًا .

فعلى هذا ، خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة بجسدها ودمها وروحها العاقلة الكلمانية ، وصارت كلمة الله بقوامها قواما لتثليث الناسوت التي كمل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله إياها ، لأنها لم تخلق ولم تك شيئًا .

ألا نقول من كلمة الله الذي خلقها وكونها لامن شئ لاسبق قبل ذلك في بطن

مريم ولامن شئ كان لها من نطفة ولا من غير ذلك غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهى ، فذلك القوام معدود معروف مع الناس لما ضم إليه وخلقه له ، التحم به من جوهر الإنسان ، فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد ، قوام لكلمة الله الخالقة واحد في التثليث بجوهر لاهوته ، واحد في الناس بجوهر ناسوته وليس باثنين ، ولكن واحد مع الأب والروح ، وهو اباه ، واحد مع الناس جميعاً بجوهرين مختلفين من جوهر اللاهوت الخالق ، وجوهر الناسوت المخلوق ، بتوحيد القوام الواحد ، قوام الكلمة التي هي الابن المولود من الله قبل الأدهار كلها ، وهو اباه المولود من مريم العذراء في آخر الزمان من غير مفارقة من الأب ولا من روح القدس .

قلت : فهذا كلام سعيد بن البطريق الذي قرر به دين النصارى ، وفيه من الباطل مايطول وصفه . لكن نذكر من ذلك وجوها :

الوجه الأول : - قوله : إن من عظيم تدبير الله أن بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شئ من جوهره ليست مخلوقة ولكن مولودة منها ، فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها الدائم ، فالتحمت من مريم العذراء .

فيقال : قد جعلت الكلمة خالقة ، وقلت - بعد هذا - : ولا كانت الكلمة بريّة منه ، ولامن روحه الخالقة ، وقلت - بعدها - : فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة روح القدس جميعًا ، خلقًا جديداً .

فيقال لهم : أخالق العالم - عندكم - خالق واحد وهو إله واحد ، أم للعالم ثلاثة آلهة خالقون ؟

فإن قالوا : إن الخالق واحد ، وهم ثلاثة آلهة خالقون ، كما أنهم في كثير من كلامهم يصرحون بثلاثة آلهة ، وثلاثة خالقين ، ثم يقولون : إله واحد ، وخالق واحد .

فيقال : وهذا تناقض ظاهر ، فإما هذا ، وإما هذا .

وإذا قلتم : الخالق واحد ، له ثلاث صفات ، لم ننازعكم في أن الخالق له صفات لكن لايختص بثلاثة .

فإن قالوا : بثلاثة آلهة ، ثلاثة خالقين ، كما قد كثر منهم في كثير من كلامهم ، بأن كفرهم وعظم شركهم ، وبان أن شركهم أعظم من كل شرك في العالم ، فغاية المجوس الثنوية ، إثبات اثنين ، نور ، وظلمة ، وهؤلاء يتبعون ثلاثة .

ثم الأدلة السمعية في التوراة والإنجيل والزبور وسائر كلام الأنبياء مع الأدلة العقلية المبينة لكون الخالقة واحداً ، كثيرة جداً ، لايمكن حصرها هنا .

وإن قالوا : إن الخالق واحد ، له صفات . قيل لهم : فهذا مناقض لقولكم : إنه بعث كلمته الخالقة ، وقولكم : « ولا كانت الكلمة بريّة منه ولا من روحه الخالقة » وقولكم : « فهبطت الكلمة الخالقة » وقولكم : « فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق ، خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة الروح » فهذا يقتضى أن الكلمة خالقة وأن الروح خالقة ، وأنها خلقت بمسرة الأب الخالق وموازرة الروح الخالقة ، وهذا الخالق هبط ، والأب لم يهبط .

فإذا كان الخالق واحداً له صفات ، لم يكن هنا إلا خالق واحد .

الوجه الثاني :- قولكم : « بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شئ وقد نطقت الكتب بأن الله يخلق الأشياء بكلامه فيقول لها « كن فَيَكُونُ » هكذا في القرآن ، والتوراة وغيرهما .

لكن الخالق هو الله تعالى يخلق بكلامه ، ليس كلامه خالقاً .

ولايقول أحد قط : إن كلام الله خلق السموات والأرض .

والتوراة كلام الله ، والإنجيل كلام الله ، ولايقول أحد : إن شيئاً من ذلك خلق السموات والأرض ، ولايقول أحد : ياكلام الله اغفر لي وارحمني .

فقول هؤلاء : إن كلمته هي الخالقة وإنه خلق بها ، كلام متناقض .

فإنها إن كانت هي الخالقة ، لم تكن هي المخلوق به ، فالمخلوق به ليس هو الخالق .

الوجه الثالث :- أن يقال قولكم : « كلمة الله الخالقة » أهي كلام الله كله ، أم هي بعض كلام الله ، أم هي المعنى القائم بالذات القديم الأزلى ، الذي يثبته ابن كلاب ، أم حروف وأصوات قديمة أزلية كما يقوله بعض الناس ، أم هي الذات المتكلمة ؟

فإن كانت هي الذات المتكلمة ، فهى الأب والرب ، وتكون هي الموصوفة بالحياة . فلا يكون هناك كلام مولود ، ولا كلمة أرسلت ولاغير ذلك مما ذكروه . وهذا خلاف قولهم كلهم ، فإن الكلمة المتحدة بالمسيح ليست هي الأب عندهم . وإن قالوا : بل هي كلام الله كله .

قيل لهم : فيكون المسيح هو التوراة ، والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله ، وهذا لايقولونه ، ولم يقله أحد ولايقوله عاقل .

وإن قالوا : إنها هى المعنى الواحد القديم الأزلي ، أو الحروف والأصوات القديمة الأزلية .

قيل لهم : هذان القولان ، وإن كانا باطلين ، فإن قلتم بهما ، لزمكم أن يكون المسيح هو كلام الله كله ، فإن هذين – عند من يقول بهما – هما جميع كلام الله .

والتوراة ، والإنجيل وسائر كلام الله عبارة عن ذلك المعنى القائم بذات الله ، وهو الحروف والأصوات القديمة القائمة بالذات عند من يقول بهذين .

وإن قلتم : إن المسيح بعض كلمات الله : فحينئذ لله كلمات أخر غير المسيح ، فاجعلوا كل كلمة خالقًا ، كما جعلتم الكلمة المتحدة بالمسيح خالقة ، إذ كنتم تقولون : « الكلمة هي الخالقة وهي المخلوق بها » فقولوا عن سائر كلمات الله : إنها

خالقة مخلوق بها ، وحينئذ فيتعدد الخالق بتعدد كلمات الله .

وإذا كانت كلمات الله لانهاية لها ، كان للخلق خالقون لانهاية لهم ، وهذا غاية الباطل والكفر .

وبالجملة أي شئ فسروا به الكلمة تبين به فساد قولهم ، ولكنهم يتكلمون بما لايفهمونه ، ويقولون الكذب والكفر المتناقض . وإنما عندهم تقليد من أضلهم . كما قال تعالى : ﴿ قل ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [المائدة : ٧٧]

الوجه الرابع : أن يقال لهم : مالم يعلم بالمعقول ، فليس في المنقول مايدل عليه ، وأنتم لاتدعون أنكم عرفتموه بالعقل ، لكن بما نقل عن الأنبياء وأنتم قد فسرتم كلمته بعلمه وحكمته ، والروح القدس بحياته ، فعن أى نبى تنقلون أن علم الله وحكمته مولودة منه ، وأنه يسمى ابنًا ، وأن علمه أو حكمته خلق كل شئ ، وأن حياته خلقت كل شئ ، وأن علمه خالق وإله ورب ، وحياته خالقة وإله ورب ، وليس في الأنبياء من سمى شيئًا من صفات الرب ولدًا له ولا ابنًا ، ولاذكر أن الله ولد شيئًا من صفاته . فدعواكم أن صفته القديمة الأزلية ولدت مرتين ، مرة ولادة قديمة أزلية ، وولادة حادثة من فرج مريم ، كذب معلوم على الأنبياء لم يقل أحد منهم : إن الله ولد ، ولا إن شيئًا من صفاته ولده ، لا ولادة روحانية ولاولادة جسمانية .

وهذا وإن أبطل قول الملكية ، فهو لقول اليعقوبية ، أشد إبطالا ، وهو مبطل أيضًا لقول النسطورية ، فإنهم يقولون بالأمانة التي فيها أنه مولود قديم أزلى ، فإن طوائفهم الثلاثة متفقون على الأمانة التى ابتدعوها في زمن قسطنطين بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من المسيح .

الوجه الخامس : قولكم بعث كلمته الخالقة ، فهبطت كلمة الله الخالقة التي بها خلق كل شئ ، ليست مخلوقة ، ولكن مولودة منه ، ولم يكن الله بلا كلمته

ولاروحه قط .

من قال من الأنبياء : إنه لم يكن بلا روحه قط أو إن روحه صفة له قديمة ، أو إنها حياته ؟

وكلام الأنبياء كله ينطق بأن روح الله وروح القدس ونحو ذلك هو ماينزله على الأنبياء ، كالوحي والتأييد ، أو الملائكة ، فليست روح الله صفة قائمة به ولاغيرها ، ولكنها أمر بائن عنه .

الوجه السادس : أنه إذا كان قد بعث كلمته الخالقة وهبطت والتحمت من مريم ، فهو نفسه رب العالمين ، هبط والتحم من مريم أم رب العالمين نفسه ، لم يهبط ولم يلتحم من مريم ، وإنما هبط والتحم الكلمة التي أرسلها .

فإن قلتم هو نفسه هبط والتحم ، كان الأب الوالد للكلمة ، هو الذي هبط والتحم ، وكان الأب هو الكلمة ، وهذا مناقض لأقوالكم .

وإن قلتم : إن المبعوث الهابط الملتحم ليس هو الأب ، بل هو كلمة الرب فقد جعلتموه الخالق ، فيكون هناك خالقان ، خالق أرسل فهبط والتحم ، وخالق أرسل ذلك ولم يهبط ولم يلتحم ، وقد أثبتم خالقًا ثالثًا وهو الروح ، وهذا تصريح بثلاثة آلهة خالقين .

الوجه السابع : أنه قال : إن الله بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شئ ، فمع كونه جعلها خالقة ، جعل أنه بها خلق كل شئ ، والذي خلق بها كل شئ هو خالق فجعلها خالقة ، وجعل خالقًا آخر ، وجعل أحد الخالقين قد خلق الآخر به كل شئ . وجعل هذا الخالق قد بعث ذاك الخالق الذي به خلق كل شئ ؛ وجعل الكلمة الخالقة احتجبت بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة روح القدس خلقًا جديدًا .

وإذا كانت هي الخالقة بمسرة الأب الخالق على الخلق . فالأب لم يخلقه ؛ بل سر

بذلك . وروح القدس وازرت ذلك ؛ والخالق خلق الخلق .

ومعلوم أنه إذا كان للخالق من يوازره على الخلق لم يكن مستقلا بالخلق بل يكون له فيه شريك .

فهذه الكلمة ، تارة يقولون : هي الخالقة ؛ وتارة يقولون : خلق بها الخالق ، فخلقت ، وتارة يقولون : إن روح القدس وازرها في الخلق ، فهذه أربعة أقوال ينقض بعضها بعضًا .

فإن كان الله هو الخالق لكل شئ فالخالق واحد ، فليس هناك خالق آخر ولاشريك له في الخلق .

والخالق إذا خلق الأشياء بقوله : « كن » لم يكن كلامه خالقًا ، ولو كانت كل كلمة إلهًا خالقًا ، لكان الآلهة الخالقون كثيرين لانهاية لهم .

ثم قال : ليست بمخلوقة ولكن مولودة منه قبل كل الدهور .

فيقال : مَنْ من الأنبياء سمّى شيئا من صفات الله مولودًا قديما أزليا؟ فكيف يكون مولود قديم أزلي ؟ وهل يعقل مولود إلا محدثًا ؟!

وأيضًا ، فإذا جاز أن تكون الكلمة التي يفسرونها بالعلم أو الحكمة مولودة منه . فكذلك تكون مولودة منه ؛ وإن كانت حياته منبثقة منه فكلمته منبثقة منه .

فجعل إحدى الصفتين الأزليتين مولودة من الأزل غير منبثقة ؛ والأخرى ليست مولودة من الأزل . بل منبثقة ، مع كونه باطلا ، فهو متناقض وتفريق بين المتماثلين .

فإن جاز أن يقال للصفة القديمة الأزلية : إنها مولودة منه فالحياة مولودة .

وإن جاز أن يقال : إنها منبثقة فالكلمة منبثقة .

وأيضًا فكون الصفة إلها خالقًا ؛ وإثبات ثلاثة آلهة خالقين مع قولهم : إن الخالق واحد ، تناقض آخر .

وأيضًا فقوله : « ولم يكن الله بلا كلمته ولاروحه قط » إن أراد بروحه حياته ، فهذا صحيح ، مَنْ من الأنبياء سمى حياة الله روحه ؟ . ومن الذي جعل الله روحا قديمة أزلية ؟ وهل هذا إلا افتراء على الأنبياء ؟

وليس لقائل أن يقول : إن هذا نزاع لفظي فلا اعتبار به لأن هذا تفسير لكلام الأنبياء ، فهم الذين تكلموا بروح الله وروح القدس ونحو ذلك ، ولم يرد أحد بذلك حياة الله قط .

فتسمية حياة الله روحا ، وتفسير مراد الأنبياء بذلك ، افتراء على الله ورسله .

الوجه الثامن : قوله : « فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت الذي لم يزل ولايزول ، فالتحمت من مريم العذراء ، وهي جارية طاهرة ، مختارة من نسل داود ، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين وطهرها بروح القدس ، روحه الجوهرية ، التي جعلها أهلا لحلول كلمة الله الجوهرية بها ، فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها ، بمسرة الأب ، وموازرة روح القدس ، خلقًا جديدًا » .

فيقال : إن الكتب دلت على أن المسيح تجسّد من روح القدس ، ومن مريم العذراء البتول ، وهكذا هو في الأمانة التي لهم ، وبهذا أخبر القرآن حيث أخبر في غير موضع ، أنه نفخ في مريم من روحه مع إخباره أنه أرسل إليها روحه .

قال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا * فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ [مريم : ١٦ - ٢٣] قال تعالى

﴿ والتـي أحصنت فرجـها فنفخنا فيها مـن روحنا وجـعلناها وابنها آية للعـالمين ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

قـال تعالى : ﴿ ومـريم ابنة عمـران التى أحصنـت فرجـها فنفـخنا فيـه من روحنا وصدقت بكلمـات ربها وكتبـه وكانت من القانتين ﴾ [التحـريم : ١٢] . فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً .

لكن دعواكم أن روح القدس ، روح الله الجوهرية (أي حياته القديمة الأزلية) أمر مخالف لجميع كتب الله وأنبيائه .

فلم يفـسر أحـد منهم روح القدس بـصفـة الله ، لا جوهرية ، ولا غـير جـوهرية ، ولاقديمة ، ولاغير قديمة ، ولا أرادوا بذلك حياة الله .

فقـولكم هذا ، تبديل لكلام الله وكـلام أنبيـائه ورسله ، كما أنكـم في قولكم إن كلمـة الله أو علمـه ، أو حـيـاته ، مـولود منه ، وإن صـفـتـه القـديمة الأزليـة هي ابنه ماحرفتـم فيه كلام الأنبياء ، فلم يرد أحـد منهم هذا المعنى بهذا اللفظ قط ، ولـم يطلق في جمـيع الكتب التى عندكم لفظ الابن والمولود ، إلا عـلى محدث مـخلوق لا على شئ قديم أزلى ، لا موضوف ولاصفة ، لا علم ولا كلام ، ولاحكمة ، ولاغير ذلك .

وكل ولادة في الكتب الإلهـية التي عندكم وغـيرها ، فـهي ولادة حادثة زمـانية . وكل مـولود ، فهـو محـدث مخلوق زمـاني ، ليس في الكتب ولادة قديمة أزلـية ولا مولود قديم أزلي ، كما أنكم ذكرتم ذلك في أمانتكم وغيرها .

فلو كان ماذكرتموه ممكنًا في العقول ، لم يجز أن تجعلوه موجودًا واقعًا ، وتقولوا : الأنبياء أرادوا بذلك إلا أن يكونوا بينوا أن ذلك مرادهم .

فإذا كان كلامهم صريحًا في أنهم لم يريدوا ذلك ، والمعقول الصريح يناقض ذلك كـان ماقلتـمـوه كذبًا عـلى الله وعلى أنبـيائه ورسله ومـسيحـه ، وكـان باطلاً في المعـقول ، وكنتم ممن قـيل فيـه ﴿ لو كنا نسـمع أو نعـقل ما كنا في أصحـاب

السعير ﴾ [الملك : ١٠] .

أنتم قلتم : « إن الكلمة الخالقة هبطت فالتحمت من مريم واحتجبت بإنسان مخلوق خلقته لنفسها » وقلتم : « إن مريم حملت بالإله الخالق وولدته ، الذي هو الابن » .

فإذا جوزتم أن تكون مريم هى أمًّا للخالق الذي هو الابن حملته وولدته فَلِمَ لايجوز أن تكون زوجة الخالق الذي هو الأب ، مع أن الخالق التحم من مريم ؟ وقد قلتم : لم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط ، ولا كانت الكلمة بَرِيَّةً منه قط ، ولا من روحه الخالقة ، ولا من جوهره ؟

فجعلتم الروح خالقة ، والله الذي هو الأب خالقًا ، والمسيح قد تجسد من الروح الخالقة ومن مريم ، فكما أن مريم أمه ، فالروح الخالقة بمنزلة أبيه .

وأيضًا فمريم ، لها اتصال بالأب وبروح القدس ، وكلاهما أب للمسيح على ماذكرتموه .

فإذا كانت مريم متصلة بكل واحد ممن جعلتموه أبًا للمسيح ، وقلتم إن الخالق التحم من مريم ، فهذا أبلغ مايكون من جعل الخالق زوج مريم .

ومهما فسرتم به اتحاد اللاهوت بناسوت المسيح المخلوق منها ، كان تفسير التحام اللاهوت بناسوت مريم حتى يصير زوجًا لمريم أولى وأحرى ، وليس في ذلك نقص ولاعيب إلا وفي كون اللاهوت ابن مريم ، ماهو أبلغ منه في النقص والعيب .

ومعلوم أن الإنسان أعلى قدرًا عنده من زوجته وأن تسلطه على زوجته أعظم منه على أمه ، فإن الرجل مالك للزوجة ، قَوَّامٌ عليها . والمرأة أسيرة عند زوجها ، بخلاف أمه .

فإذا جعلتم اللاهوت الخالق القديم الأزلى ابنًا لناسوت مريم بحكم الاتحاد مع كونه

خالقًا لها بلاهوته وابنًا لها بناسوته ، ولم يكن هذا ممتنعًا عندكم ولاقبيحًا . فأن تكون مريم صاحبة له وزوجة وامرأة بحكم الالتحام بالناسوت أولى وأحرى .

وإن كان هذا ممتنعًا وقبيحا ، فلذلك أشدْ امتناعا وقبحا .

ولهذا ذهب طوائف من النصارى إلى أن مريم امرأة الله وزوجته وقالوا : إنما هو أبلغ من ذلك ، حتى ذكروا شهرة النكاح .

ولقد قال بعض أكابر عقلاء الملوك ممن كان نصرانيا : إنهم كانوا إذا نبهوا على قولهم : إن عيسى ابن الله لم يفهموا من ذلك إلا أن الله أحبل أمه وولدت له المسيح ابنه ، كما يحبل الرجل المرأة وتلد له الولد ، فيكون قد انفصل من الله جزء في مريم بعد أن نكحها ، وذلك الجزء الذي من الله ومن مريم ، ولدته مريم ، كما تلد المرأة الولد الذي منها ومن زوجها ، وقد قالت الجن المؤمنون : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ﴾ ، [الجن : ٣] فنزهوه عن هذا وهذا وهؤلاء الجن المؤمنون أكمل عقلا ودينا من هؤلاء النصارى .

وقال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ﴾ ، [الأنعام : ١٠١] فقوله : ﴿ أنى يكون له ولد ﴾ تقديره : من أين يكون له ولد ؟! فـ « أنى » في اللغة بمعنى « من أين ذلك » وهذا استفهام إنكار .

فبين - سبحانه - أنه يمتنع أن يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، مع أنه خالق كل شئ ، وأن هذا الولد يمتنع أن يكون ، وأن هذا الامتناع مستقر في صريح المعقول .

ثم إذا كانت الكلمة التي هي الخالق المخلوق به ، قد حلّتْ في جوف مريم ، والتحمت من مريم وخلقت منها إنسانا هو المسيح خلقته لنفسها واحتجبت به واتحدت به ، فهل كان خلقها لهذا الإنسان قبل الاتحاد والاحتجاب أم حين ذلك ؟.

فإنه بعد ذلك ظاهر الامتناع ، محال أنها بعد الاحتجاب به والاتحاد خلقته ، بل لابد أن تكون خلقته قبله أو معه .

فإن كان معه ، لزم كون المخلوق متحداً بالخالق دائماً ، لم تمر عليه لحظة إلا وهو متحد به .

فإذا أمكن أن يقارن المخلوق خالقه – وعندهم أنه أقام تسعة أشهر حملاً كعامة الناس وقد ذكر سعيد بن البطريق هذا – فإذا كان كذلك ، كان الرب متحداً بالمضغة والجماد ، الذي لاروح فيه .

وإذا جاز عليه هذا ، جاز أن يتحد بسائر الجمادات ، وهذا على قول الأكثرين الذين يقولون : إن الروح إنما نفخت فيه بعد أربعة أشهر .

ومن قال إنها نفخت فيه من حين أخذ الجسد من مريم – وهذا يشبه قول جمهور النصارى الذين يقولون : إن المسيح مات وصلب وفارقته الروح الباطلة المنفوخة فيه والإله المتحد به لم يفارقه أبداً – فإنهم يقولون : إنه من حين اتحد بناسوت المسيح لم يفارقه ، بل هو الآن متحد به ، وهو في السماء قاعد عن يمين أبيه ، وذلك القاعد هو الخالق القديم ، والأب هو الإله الخالق القديم الأزلى ، وهما مع ذلك إله واحد .

والمقصود هنا أنهم يقولون باتحاد اللاهوت بجسد لاروح فيه قبل النفخ وبعد الموت إلى أن قام من قبره ، فعادت الروح إليه ، وحينئذ لم يظهر من تلك المضغة من العجائب .

وهم يستدلون على إلهية المسيح بالعجائب ، مع أنه كان الإله متحداً به قبل أن يظهر العجائب ، وحينئذ فلا يلزم من عدم ظهور العجائب من شئ ، الجزم بأن الرب لم يتحد مع إمكان الاتحاد .

ويلزم أن كل جامد وحي ظهرت منه العجائب ، أن يكون ذلك دليل على أن الرب اتحد به .

وحينئذ فعباد العجل أعذر من النصارى .

وإن كان من عباد الأصنام من يقول : إن الصنم خالق السموات والأرض ، فهو أعذر من النصارى ، لأن ظهور العجائب من الحيوان الأعجم والجماد ، أعظم من ظهورها من الإنسان الناطق ، لاسيما الأنبياء والرسل .

فإن الأنبياء والرسل ، معروفون بظهور العجائب على أيديهم .

فإذا ظهرت على يد من يقول : إنى نبى مرسل ، كانت دليلا على نبوته ، لاعلى إلهيته .

والمسيح كان يقول : إنى نبى مرسل ، كما ذكر ذلك في الإنجيل في غير موضع . فأما الحيوان الأعجم والجماد ، فلايجوز أن يكون نبياً .

فإن جاز الاتحاد بالمضغة والجسم المقبور الذي لاروح فيه ، فاتحاده بالعجل وبالصنم أولى ، وحينئذ فخوار العجل عجيب منه .

فاستدلال عباد العجل بذلك على أنه إله ، خير من استدلال النصارى على إلهية المضغة إن قدر ظهور شئ من العجائب التى قد يستدلون بها .

وإن كانت تلك لاتدل إلا على نبوته صلى الله عليه وسلم وسلم تسليما .

الوجه التاسع :- قوله « فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها » وقول : « فكانت مسكنا في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع مالطف من الخلائق كلهم » .

يقال له - أولا - : من أين لك أن روح الإنسان ألطف من جميع المخلوقات ؟ وأنها ألطف من الملائكة والروح الذي قال الله فيه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن ﴾ ، [النبأ : ٣٨] ، وأنها ألطف من الروح التي نفخ في آدم منه بقوله ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ ؟ .

وبتقدير أن تكون ألطف ، فأنت لاتقول : إن الاحتجاب والاتحاد كان بروح الإنسان مجردة ، بل بالجسد الناسوتي الدموى الغليظ ، وتقول : « إن الخالق التحم من مريم العذراء » فتجعل الخالق قد التحم من لحم مريم ومن رحمها الذي هو لحم ودم ، وهذه أجساد كثيفة ، بل جمهورهم يقول : اتحد بجسد لاروح فيه قبل النفخ وبعد الموت وقبل أن يقوم من قبره .

وحينئذ فقولك : « فكانت مسكنًا لله في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع مالطف من الخلائق كلها وصف ممنوع والتعليل به باطل فإنه لو كان مسكنًا للطفه ، لم يجز أن يسكن إلا في الروح اللطيفة ، فلما أثبت اتحاداً بالجسد الكثيف ، بطل قولك : « إنه اتحد بالإنسان للطفه » .

الوجه العاشر – قولكم : « واعلم أنه لايرى شئ من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق ، ولايرى ماهو لطيف من اللطيف إلا مع ماهو أغلظ منه » .

يقال لهم : إما أن يكون الله لما اتحد بالمسيح عندكم قد رآه الناس وعاينوه أو لم يره أحد .

فإن قلتم : قد رآه الناس وعاينوه . فهذا مخالف للحس والشرع والعقل .

أما الحس ، فإن أحدًا ممن رأى المسيح لم ير شيئًا يتميز به المسيح عن غيره من البشر ، غير العجائب التى ظهرت على غيره ، منها ماهو أعظم مما ظهر عليه ولم ير إلا بدن المسيح الظاهر ، لم ير باطنه ، لاقلبه ولاكبده ولاطحاله ، فضلا عن أن يرى روحه ، فضلا عن أن يرى الملائكة الذين يوحون إليه ، فضلا عن أن يرى الله ، إن قدر أنه كان متحداً به ، أوحالاً فيه .

فدعوى المدعى أن من رأى المسيح ، فقد رأى الله عيانًا ببصره في غاية المباهتة والمكابرة والكذب ، لو قدر أن الله حالٌ فيه ، أو متحد به .

فإنه من المعلوم أن الملائكة تنزل على المسيح وغيره ، وتتصل بأرواحهم ، والناس

لايرون الملائكة ، بل الجن تدخل في بنى آدم والناس لايرونهم ، وإنما يرون جسد المصروع .

وكل إنسان معه قرينه من الملائكة ، وقرينه من الجن ، وهو – نفسه – لايرى ذلك ، ولايراه من حوله .

وتحضره الملائكة وقت الموت ، ولايراهم من حوله ، مع أنه هو يراهم .

قال تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ ، [الواقعة : ٨٣ – ٨٧] .

فإذا كانت هذه المخلوقات ، التي اتفق أهل الملل على اقترانها بالإنسان واتصالها بهم ، وأن رؤيتها ممكنة ، لايراها الناس ، فكيف يقال : إن المسيح الذي لم ير الناس منه إلا مارأوه من أمثاله من الرسل ، كإبراهيم ، وموسى ، ولم يكن له قط شئ يتميز به عن جنس الرسل ، كيف يقال : إن الذين رأوه رأوا الله عيانًا بأبصارهم ؟

وأما الشرع ، فموسى والمسيح وغيرهما من الأنبياء أخبروا أن أحدًا لا يرى الله في الدنيا .

وأما العقل ، فإن رؤية بعض ملائكة الله ، أو بعض الجن يظهر لرائيها من الدلائل والأحوال مايطول وصفه ، فكيف بمن رأى الله ؟!

والذين رأوا المسيح ، لم يكن حالهم إلا كحال سائر من رأى الرسل منهم الكافر به المكذب له .

ومنهم المؤمن به ، المصدق له ، بل هم يذكرون من إهانة ناسوته مالايعرف عن نظرائه من الرسل ، مثل ضربه ، والبصاق في وجهه ، ووضع الشوك على رأسه وصلبه وغير ذلك .

وأيضًا ، فمعلوم أن من رأى الله ، إما أن يعرف أنه الله ، أو لايعرف .

فإن عرف أنه رأى الله ، كان الذين رأوا المسيح قد علموا أنه الله ، ولو عملوا ذلك لحصل لهم من الاضطراب مايقصر عنه الخطاب .

وإن كانوا لم يعرفوه ، فهذا في غاية الامتناع ، حيث صار رب العالمين لايميز بينه وبين غيره من مخلوقاته ، بل يكون كواحد منهم ولايميز بينه وبينهم ، ولايعرف الرائي ، أن هذا هو الله .

ولوازم هذا القول الفاسدة كثيرة جداً .

وإن قالوا : إن الله لم ير ، لما اتحد بالمسيح ، وإنما رُئِيَ جسد المسيح الذي احتجب به الله . فقولهم بعد ذلك : « واعلم أنه لايرى شئ من لطيف الخلق إلا في غليظ الخلق ، ولايرى ماهو لطيف من اللطيف إلا مع ماهو أغلظ منه » كلام لافائدة فيه إذ كان هذا مثلا ضربوه لله ، ليبينوا أنه يرى .

فإذا سلموا أنه لم ير ، لم يكن في هذا المثل فائدة ، بل كان هذا استدلالا على شئ يعلمون أنه باطل .

وأيضًا فما ذكروه ، من أن اللطيف لايرى إلا في الغليظ ، باطل ، فإن اللطيف كروح الإنسان ، لاترى في الدنيا وإن علم وجودها ، وأحس الإنسان بروحه وصفاتها ، فرؤيتها بالبصر غير هذا . يبين ذلك .

الوجه الحادى عشر : قوله : « وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية - يعنون النفس الناطقة - ألطف من لطيف الخلق ، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله ، فكانت له حجابًا ، وكانت النفس الدموية لها حجابًا ، والجسد الغليظ حجاباً .

فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة لجسدها ، ودمها ،

وروحها العاقلة الكلمانية ، وصارت كلمة الله ، بقوامها ، قواماً لتثليث الناسوت التي كمل جوهرها بتقويم قوائم كلمة الله إياها ، لأنها لم تخلق ولم تك شيئاً إلا بقول من كلمة الله خلقها وقومها ، لامن شئ سبق قبل ذلك في بطن مريم ، ولا من سبب كان لها من غير ذلك غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهى .

فيقال لهم : هذا الكلام يقتضى أن الخالق احتجب بالنفس الناطقة ، والنفس الناطقة احتجبت بالبدن .

وأنتم تصرحون بأن نفس الكلمة التي هى الخالق ، وهى الله عندكم ، والتي خلقت لنفسها إنساناً احتجبت به . وقلتم : هو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية ، وروحه الكلمانية ، أى نفسه الناطقة التي هى صورة الله في الإنسان وشبهه فكانت مسكناً لله في حلوله واحتجابه .

فصرحتم بأن البدن مع الروح ، مسكن لله في حلوله واحتجابه ، وأنه هو الذي خلق البدن والروح ، وقلتم : إن هذه الكلمة الخالقة المحتجبة التي قلتم إنها الله ، التحمت من مريم العذراء .

فإذا كان الله الخالق قد التحم من مريم العذراء ، فمعلوم أن ذلك قبل نفخ النفس الناطقة التي سميتموها : الروح الكلمانية في المسيح .

وإذا كان الخالق تعالى ، قد التحم بجسد لاروح فيه ، والتحامه به أبلغ من حلوله فيه ، ثم اتخذ الجسد حجاباً قبل نفخ الروح الكلمانية فيه ، فكيف يقال : إنما حل في الروح لافي البدن ، وهو قد التحم بالبدن واتخذ منه جزءاً مسكنا له وحجابا قبل أن ينفخ فيه الروح الكلمانية ؟

وقلتم أيضاً : فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة ، بجسدها ودمها ، وروحها العاقلة الكلمانية .

هذا تصريح بأن الخالق خالط الإنسان بجسده ودمه وروحه .

وتقولون : إنما احتجبت بالروح اللطيفة ، مع تصريحكم بأن الخالق اختلط بالجسد والدم .

وهذا أيضًا يناقض قول من قال : انه اتحد به اتحادًا بريًا من الاختلاط .

فقد صرحتم هنا أنه اختلط به ، وسيأتي بعض نظائر هذا في كلامهم ، يصرحون فيه باختلاط اللاهوت بالناسوت .

الوجه الثاني عشر :- قولكم : « غير قوام الكلمة الخالقة الذي هو أحد التثليث الإلهى ، فذلك القوام معدود معروف مع الناس ، لما ضم إليه وخلقه له التحم به من جوهر الإنسان ، فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد قوام لكلمة الله الخالقة ، واحد في التثليث بجوهر لاهوته ، واحد من الناس بجوهر ناسوته ، وليس باثنين ، ولكن واحد مع الأب والروح ، وهو إياه واحد مع الناس جميعًا بجوهرين مختلفين ، من جوهر اللاهوت الخالق ، وهو الناسوت المخلوق بتوحيد القوام الواحد قوام الكلمة ، التي هي الابن المولود من الله من قبل كل الدهور ، وهو إياه المولود من مريم العذراء في آخر الزمان من غير مفارقة من الأب ، ولا من روح القدس ».

فيقال : في هذا الكلام ، بل فيما تقدم ذكره ، مايطول تعداده ووصفه من التناقض والفساد ، والكلام الباطل ، والكلام الذي تكلم به قائله ، وهو لايتصور مايقول مع سوء التعبير عنه ، كقوله « وهو إياه » فيضع الضمير المنفصل موضع المتصل ، ويعطف أحدهما على الآخر بلا واو عطف إلى أمثال ذلك مما يطول ذكر معايبه ، وذلك أن قولهم في نفسه باطل لاحقيقة له ، وهم لم يتصوروا معنى معقولاً ، ثم عبروا عنه ، حتى يقال : قصروا في التعبير ، بل هم في ضلال وجهل ، لايتصورون معقولا ، ولايعرفون مايقولون ، بل ولا لهم اعتقاد يثبتون عليه في المسيح ، بل مهما قالوه من بدعهم كان باطلا ، وكانوا هم معترفين بأنهم لايفقهون مايقولون .

لهذا يقولون : « هذا فوق العقل » ويقولون : « قد اتحد به بشر لايدرك » فما

لايدرك وماهو فوق العقل ، ليس لأحد أن يعتقده ولايقوله برأيه .

لكن إذا أخبرت الرسل الصادقون بما يعجز عقل الإنسان عنه صدقهم ، وإن نقل عنهم ناقل مايعلم بصريح العقل بطلانه ، علم أنه يكذب عليهم ، إما في اللفظ والمعنى ، وإما في أحدهما .

وأما إذا كان هو يقول القول الذي يذكر أنه علم صحته ، أو أنه فسر به كلام الأنبياء . وهو لايتصور مايقوله ولايفقهه . فهذا قائل على الله وعلى رسله مالايعلم ، وهذا قد ارتكب أعظم المحرمات ، قال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالاتعلمون ﴾ ، [الأعراف : ٣٣] وقال تعالى عن الشيطان ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ [البقرة : ١٦٩] وقال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافي السموات ومافي الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليمًا ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرًا ﴾ ، [النساء : ١٧١ - ١٧٣] وقد اتفق أهل الملل على أن القول على الله بغير علم حرام ، والله سبحانه نهاهم أن يقولوا على الله إلا الحق فكان هذا نهيًا أن يقولوا الباطل ، سواء علموا أنه باطل أو لم يعلموا.

فإنهم إن لم يعلموا أنه الباطل : فلم يعلموا أنه حق أيضًا ، إذ الباطل يمتنع يعلم أنه حق ، وإن اعتقد معتقد اعتقاداً فاسداً أنه حق ، فذلك ليس بعلم ، فلاتقولوا على الله مالاتعلمون .

وإن علموا أنه باطل ، فهو أجدر أن لا يقولوه .

وعامة النصارى ضُلَّالٌ لايعلمون أن مايقولونه حق ، بل يقولون على الله مالا يعلمون .

والمقصود أن الباطل في كلامهم كثير ، كقولهم « فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد قوام لكلمة الله الخالقة » .

والمسيح عندهم اسم اللاهوت والناسوت جميعًا ، اسم للخالق والمخلوق ، وأحدهما متحد بالآخر ، فهو بتوحيد ذلك القوام قوام لكلمة الله الخالقة .

وسواء أريد بذلك أن الناسوت واللاهوت قوام اللاهوت ، أو أن الناسوت قوام للاهوت ، وهم يمثلون ذلك بالروح والجسد والنار والحديد فيكون كما لوقيل : إن الجسد والروح ، أو الجسد قوام للروح ، أو النار والحديد ، أو الحديد قوام للنار .

فيقال : الخالق الأزلى الذي لم يزل ولايزال ، هل يكون المحدث المخلوق قوامًا له ؟ فيكون المخلوق المصنوع المحدث المفتقر إلى الله من كل وجه قوامًا للخالق الغنى من كل وجه ؟ وهل هذا إلا من أظهر الدور الممتنع ؟

فإنه من المعلوم بصريح العقل واتفاق العقلاء ، أن المخلوق لاقوام له إلا بالخالق ، فإن كان الخالق قوامه بالمخلوق ، لزم أن يكون كل من الخالق والمخلوق قوامه الآخر ، فيكون كل منهما محتاجًا إلى الآخر ، إذ ماكان قوام الشئ به ، فإنه محتاج إليه .

وهذا - مع كونه يقتضى أن الخالق يحتاج إلى مخلوقه - وهو من الكفر الواضح ، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل ، وهذا لازم للنصارى ، سواء قالوا بالاتحاد أو بالحلول بلا اتحاد ، وإن كانت فرقهم الثلاث يقولون بنوع من الاتحاد ، فإنه مع الاتحاد كل من المتحدين لابد له من الآخر ، فهو محتاج إليه كما يمثلون به في الروح مع البدن والنار مع الحديد .

فإن الروح التي في البدن محتاجة إلى البدن ، كما أن النار في الحديدة محتاجة إلى الحديدة .

وكذلك الحلول ، فإن كل حالٍّ محتاج إلى محلول فيه ، وهو من الكفر الواضح فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل .

فإن ذلك المخلوق إن قدر أنه موجود بنفسه قديم أزلى ، فليس هو مخلوقًا ومع هذا فيمتنع أن يكون كل من القديمين الأزليين محتاجًا إلى الآخر ، سواء قدر أنه فاعل له ، أو تمام الفاعل له ، أو كان مفتقرا إليه بوجه من الوجوه ، لأنه إذا كان مفتقرا إليه بوجه من الوجوه ، لم يكن موجودا إلا به .

فإن الموجود لايكون موجودا إلا بوجود لوازمه ومالايتم وجوده إلا به . فكل ماقدر أنه محتاج إليه لم يكن موجودا إلا به .

فإذا كان كل من القديمين محتاجًا إلى الآخر ، لزم أن لايكون هذا موجودًا إلا بخلق ذلك مابه تتم حاجة الآخر ، وأن لايكون هذا موجودًا إلا بخلق ذلك مابه تتم حاجة الآخر .

والخالق لايكون خالقًا ، حتى يكون موجودا ، ولايكون موجودًا إلا بلوازم وجوده ، فيلزم أن لايكون هذا موجودا حتى يجعله الآخر موجودا ، ولايكون ذلك موجودا حتى يجعله الآخر موجودا ، إذ كان جعله لما لم يتم به وجوده ، يتوقف وجوده عليه ، فلا يكون موجودا إلا به ، فلا فرق بين أن يحتاج أحدهما إلى الآخر في وجوده أو فيما لايتم وجوده إلا به ، وهذا هو الدور القَبْلِيُّ الممتنع باتفاق العقلاء وأما الدور المعيُّ ، وهو أنه لايوجد هذا إلا مع هذا ، ولاهذا إلا مع هذا كالأبوة مع البنوة ، وكصفات الرب بعضها مع بعض ، وصفاته مع ذاته ، فإنه لايكون عالمًا إلا مع كونه قادراً ، ولايكون عالمًا قادراً إلا مع كونه حيًا ، ولايكون حيًا إلا مع كونه عالمًا قادراً ، ولاتكون صفاته موجودة إلا بذاته ، ولاذاته موجودة إلا بصفاته ، فهذا

جائز في المخلوقين الذين يفتقران إلى الخالق الذي يحدثهما جميعًا كالأبوة والبنوة وجائز في الرب الملازم لصفاته تعالى .

وأما إذا قدر قديمان أزليان ربان فاعلان ، امتنع أن يكون أحدهما محتاجًا إلى الآخر ، إذ كان وجوده لايتم إلّا بما يحتاج وجوده إليه ، ولايكون فاعلا لشئ إن لم يتم وجوده ، فيمتنع مع نقص كل منهما عن تمام وجوده ، أن يكون فاعلا لغيره تمام وجود ذلك الغير ولهذا لم يقل بهذا أحد من الأمم .

ولكن الذي قاله النصارى أنهم جعلوا قوام الخالق تعالى بالمخلوق .

فيقال لهم : هذا أيضًا ممتنع في صريح العقل ، أعظم من امتناع قيام كل من الخالقين بالآخر ، وإن كان هذا أيضًا ممتنعًا ، فإن المخلوق مفتقر في جميع أموره إلى الخالق ، فيمتنع - مع فقره في وجوده وتمام وجوده إلى الخالق - أن يكون قوام الخالق به ، لأن ذلك يقتضى أن يكون مقيما له ، وأن يكون تمام وجوده به ، فيكون المخلوق لا وجود لشئ منه إلا بالخالق .

فالقدر الذي يقال : إنه يقيم به الخالق هو من الخالق والخالق خالقه ، وخالق كل مخلوق ، فلا وجود له ولاقيام إلا بالخالق ، فكيف يكون به قيام الخالق ؟

وليس هذا كالجوهر وأعراضه اللازمة ، أو كالمادة والصورة عند من يزعم أن الصورة جوهر إذا كانا متلازمين ، فإن هذا من باب الدور المعيّ ، كالبنوة مع الأبوة ، وهذا جائز كما تقدم ، إذ كان الخالق لهما جميعًا هو الله .

وأما مع كون كل منهما هو الخالق ، فهو ممتنع ، ومع كون أحدهما خالقا ، والآخر مخلوقا ، فهو أشد امتناعا .

والرب تعالى غنى عن كل ماسواه من كل وجه ، وكل ماسواه فقير إليه من كل وجه ، وهذا معنى اسمه « الصمد » فإن الصمد الذي يصمد إليه كل شئ لافتقاره إليه وهو غنى عن كل شئ لايصمد إلى شئ ، ولايسأله شيئًا سبحانه وتعالى ، فكيف

يكون قوامه بشئ من المخلوقات ؟!

وهذا الاتحاد الخاص من النصارى يشبه – من بعض الوجوه – قول أهل الوحدة والاتحاد العام ، الذين يقولون كما يقوله ابن عربي صاحب « الفصوص » و « الفتوحات المكية » : إن أعيان المخلوقات ثابتة في العدم ، ووجود الحق فاض عليها ، فهى مفتقرة إليه من حيث الوجود المشترك العام ، وهو وجوده ، وهو مفتقر إليها من حيث الأعيان الثابتة في العدم ، وهو مايختص به كل عين عين ، فيجعل كل واحد من الخالق والمخلوق مفتقراً إلى الآخر .

ويقولون : الوجود واحد ، ثم يثبتون تعدد الأعيان ، ويقولون : هى مظاهر ومجالى .

فإن كان المظهر والمجلى غير الظاهر ، فقد ثبت التعدد ، وإن كان هو إياه فلاتعدد ، فلهذا يضطرون إلى التناقض كما يضطر إليه النصارى ، حيث يثبتون الوحدة مع الكثرة ، وينشدون (فيعبدني وأعبده ويحمدنى وأحمده) وهؤلاء بنوا قولهم على أصلين فاسدين .

أحدهما :– أن أعيان الممكنات ثابتة في العدم ، كقول من يقول من أهل الكلام : إن المعدوم شئ ثابت في العدم ، وهذا القول فاسد عند جماهير العقلاء .

وإنما حقيقة الأمر أن المعدوم يراد إيجاده ويتصور ويخبر به ويكتب قبل وجوده ، فله وجود في العلم والقول والخط . وأما في الخارج ، فلا وجود له .والوجود هو الثبوت ، فلا ثبوت له في الوجود العينىّ الخارجىّ ، إنما ثبوته في العلم ، أى يعلمه العالم قبل وجوده .

والأصل الثاني : أنهم جعلوا نفس وجود رب العالمين الخالق القديم الأزلى الواجب بنفسه ، هو نفس وجود المربوب المصنوع الممكن . كما قال ابن عربي .

ومن عرف ماقررناه في الأعداد وأن نفيها عين إثباتها ، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه . فالأمر الخالق هو المخلوق ، والأمر المخلوق هو الخالق كل ذلك من عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة ، وهو العيون الكثيرة وهو « يَا أَبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ » إلى أن قال : فما ذبح سوى نفسه . ومانكح سوى نفسه .

وقال : ومن أسمائه الحسنى العليّ ، على من يكون عَلِيًا وما هو إلا هو ؟ أو عن ماذا يكون عليًا وماثَمّ إلا هو ؟ فَعُلوُه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات فالمسمى محدثات هى العلية لذاتها ، وليست هو .

وقد نقل عن أبي سعيد الخراز أنه قيل له : بماذا عرفت ربك ؟

قال : بجمعه بين الأضداد وقرأ قوله ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] أراد بذلك أنه مجتمع في حقه سبحانه مايتضاد في حق غيره ، فإن المخلوق لايكون أولا آخرًا ، باطنًا ظاهراً .

وقد ثبت في الصحيح (١) عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « أنت

---

(١) « صحيح » وقد ورد عن :

أ ـ أبي هريرة

رواه مسلم في كتاب « الذكر » باب « ما يقول عند النوم وأخذ المضجع » (٤ / ٢٠٨٤ ح ٢٧١٣)، ورواه أبو داود في كتاب « الأدب » باب « ما يقول عند النوم » (١٣/ ٣٩٢ ح ٥٠٣٠) ، ورواه الترمذي في كتاب « الدعوات » باب « ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه » (٩ / ٣٤٣ ، ٣٤٤ ح ٣٤٦٠) ، وقال هذا : « حديث حسن صحيح »

ورواه أيضًا برقم (٣٥٤٨) وقال : « هذا حديث حسن غريب وهكذا روى بعض أصحاب الأعمش عن الأعمش نحو هذا ورواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح مرسلا ولم يذكر فيه عن أبي هريرة

ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « النعوت » باب قوله جل ثناؤه

« الأول والآخر والظاهر والباطن » (٤ / ٣٩٥ ح ٧٦٦٨ ، ٧٦٦٩)

ورواه أيضًا برقم (١٠٦٢٦) وقال : وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم »

ورواه ابن ماجه في كتاب « الدعاء » باب « ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه » (٢ / ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ح ٣٨٧٣)

ب ـ وقد ورد الحديث أيضًا من رواية عائشة

رواه النسائي في كتاب « عمل اليوم والليلة » باب « وما يقول من يفزع في منامه » (٦ / ١٩٧ ح ١٠٦٢٥)

الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ » فجاء هذا الملحد وفسر قول أبى سعيد بأن المخلوق هو الخالق ، فقال : قال أبو سعيد ، وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن الله لايعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها ، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فهو عين ماظهر وهو عين مابطن في حال ظهوره ، وماثمّ من يراه غيره ، وماثمّ من بطن عنه سواه ، فهو ظاهر لنفسه ، باطن عن نفسه ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز ، وغيره ذلك من أسماء المحدثات . ولهذا قال بعض النصارى لمن يقول مثل هذا ويحكيه عن شيوخه ، ويقول إنه مسلم : « أنتم كفرتمونا لأجل أن قلنا : إن الله هو المسيح ، وشيوخكم يقولون : إن الله هو أبو سعيد الخراز ، والمسيح خير من أبى سعيد » .

وهؤلاء يجيبون النصارى بجواب يتبين أنهم أعظم إلحاداً من النصارى .

فيقولون للنصارى : « أنتم خصصتموه بالمسيح ، ونحن نقول : هو وجود كل شئ ، لانخص المسيح ».

ولهذا قال بعضهم لأحذق هؤلاء « التلمسانى » الملقب بالعفيف : أنت نصيرى ؟

فقال نصير جزء منى ، فإن النصيرية أتباع أبى شعيب « محمد بن نصير » يقولون في علىّ بن أبى طالب نظير مايقوله النصارى في المسيح ، كذلك سائر الغلاة في علىّ ، أو في أحد من أهل بيته ، أو في الإسماعيلية بنى عبيد المنتسبين إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، كالحاكم وغيره ، أو في الحلاج ، أو في بعض من الشيوخ الذين يقولون في واحد من هؤلاء باتحاد اللاهوت أو حلوله فيه ، نظير ماتقوله النصارى في المسيح .

وهؤلاء يقولون بأن الحلول أو الاتحاد محدث ، وأن القديم حل أو اتحد بالمحدث بعد أن لم يكونا متحدين .

وأما أولئك فيقولون بالوحدة المطلقة ، فمحققوهم يقولون : إنه وجود كل شئ ، لايقولون باتحاد وجودين ، ولا بحلول أحدهما بالآخر .

بل قد يقولون : إن الوجود هو ثبوت وجود الحق ، وثبوت الأشياء ، اتحدا ، وكل منهما مفتقر إلى الآخر .

فالحق إذا ظهر كان عبداً ، والعبد إذا بطن كان ربًا .

ويقولون : إذا حصل لك التجلّي الذاتي ، وهو هذا ، لم تضرك عبادة الأوثان ولاغيرها ، بل يصرحون بأن عين الأوثان والأنداد ، وأن أحدًا لم يعبد غيره ، كما يقول ابن عربي مصوبًا لقوم نوح الكفار « وَمَكَرُوا مكرًا كُبَّاراً » لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ، فإنه ماعدم من البداية فيدعى إلى الغاية « أدعوا إلى الله » فهذا عين المكر ، فأجابوه « مكرا » كما دعاهم « مكرا » فقالوا في مكرهم : « لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا » ولايغوث ويعوق ونسرا » فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ماتركوا من هؤلاء .

فإن للحق في كل معبود وجهًا ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله ، كما قال في المحمديين ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أن لاَتَعْبُدوا إلاَّ إيَّاهُ ﴾ فما حكم الله بشئ إلا وقع. فالعارف يعرف من عبد ، وفي أي صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية في الصور الروحانية ، فما عبد غير الله في كل معبود .

وصوّبَ هذا الملحد فرعون في قوله : ﴿ أَنَا ربُّكُمُ الأعْلَى ﴾ قال : ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت ، وأنه الخليفة بالسيف وإن جار في العرف الناموسى لذلك قال : « أنا ربكم الأعلى » أى وإن كان الكل أربابًا بنسبة مًا فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم .

قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقروا له بذلك

وقالوا له : ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هذِهِ الحَيَاةَ الدُّنيَا ﴾ ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ فالدولة لك .

قال : فصح قول فرعون ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وإن كان فرعون عين الحق .

وَصَوَّب أيضًا أهل العجل في عبادتهم العجل ، وزعم أن موسى رضى بذلك فقال : ولما كان موسى أعلم بالأمر من هارون ، لعلمه بأن الله قضى أن لانعبد إلا إياه ، وماحكم الله بشئ إلا وقع ، كان عيبه على هارون لإنكاره وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق في كل شئ ، بل يراه عين كل شئ .

ومن هؤلاء طائفة لايقولون بثبوت الأعيان في العدم ، بل يقولون : ماثَم وجود إلا وجود الحق .

لكن يفرقون بين المطلق والمعين فيقولون : هو الوجود المطلق السارى في الموجودات المعينة ، كالحيوانية الثابتة في كل حيوان ، والإنسانية الثابتة في كل إنسان ، وهذا الذي يسمى الكلى الطبيعى .

ويسمون هذا الوجود ، الإحاطة فيقولون : الوجود المطلق إما بشرط الإطلاق عن كل قيد ، وهذا يسمى الكلى العقلى .

وهذا عند عامة العقلاء : لايوجد إلا في الذهن لافي الخارج ، ولكن يحكى عن شيعة ﴿ أفلاطن ﴾ أنهم أثبتوا هذه الكلمات المجردة عن الأعيان في الخارج وقالوا : إنها قديمة أزلية إنسانية مطلقة ، وحيوانية مطلقة ، ويسمونها المثل الأفلاطونية ، والمثل المعلقة .

وقد رد ذلك عليهم إخوانهم ﴿ أرسطو ﴾ وشيعته ، وجماهير العقلاء ، وبينوا أن هذه إنما هي متصورة في الأذهان لاموجودة في الأعيان ، كما يتصور الذهن عددًا مطلقًا ومقادير مطلقة ، كالنقطة ، والخط ، والسطح ، والجسم التعليمىّ ونحو ذلك مما يتصوره الذهن ، وليس في ذلك شئ من الموجودات الثابتة في الخارج .

وهذا المطلق بشرط الإطلاق ، يظن هؤلاء ثبوته ، وقد يسمونه الإحاطة ، وهو الوجود المجرد عن جميع القيود ، ثم بعده الوجود المطلق لابشرط ، وهو العام المنقسم إلى واجد وممكن ، إلى قديم وحادث ، ونحو ذلك ، كانقسام الحيوان إلى ناطق وأعجم .

وهذا المطلق لا بشرط يوجد في الخارج ، فإن الاسم العام شامل لأنواعه وأشخاصه لكن لايوجد في الخارج إلا مقيداً معيناً .

ومن قال : إنه يوجد في الخارج كلياً ، فقد غلط . فإن الكلى لايكون كلياً قط إلا في الأذهان لافي الأعيان ، وليس في الخارج إلا شئ معين ، إذا تصور منع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه ، ولكن العقل يأخذ القدر المشترك الكلى بين المعينات ، فيكون كلياً مشتركاً في الأذهان .

وهؤلاء يجعلون الوجود الواجب هذا ، وقد يجعلونه بعد هذا ، فيقولون : هذا فوق الواجب .

وهذا الوجود الكلى إذا قيل : إنه لايوجد في الخارج إلا معيناً ، فلا موجود في الخارج سوى الموجودات المعينة المشخصة ، بما فيها من الصفات القائمة بها .

وإن قدر وجوده في الخارج ، فهو إما جزء من المعينات ، وإما صفة لها فعلى الأول ، لايكون في الخارج موجود هو رب الموجودات المعينة .

وعلى الثاني : يكون رب الموجودات جزأها أو صفة لها .

ومعلوم بصريح العقل أن صفة الشئ القائمة ، لاتخلق الموصوف ، وأن جزء الشئ لايخلق الشئ ، بل جزء الشئ ، جزء من الشئ .

فإذا كان هو الخالق للجملة ، كان خالقاً لنفسه ، وكان بعض شئ خالقاً لكله .

ومن هؤلاء من يقول : إن الرب في العالم كالزبد في اللبن ، والدهن في السمسم

ونحو ذلك ، فيجعلونه جزءاً من العالم المخلوق . ونفس تصور هذا يكفي في العلم بفساده .

لكن هؤلاء يقولون : إن لم تترك العقل والنقل لم يحصل لك التحقيق الذي حصل لنا ، ويقولون : ثبت عندنا في الكشف ماينافض صريح العقل .

فقلت لبعضهم : إن الأنبياء صلوات الله عليهم أكمل الناس كشفًا ، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته ، لابما تعرف عقولهم أنه باطل ، فيخبرون بمحارات العقول لابمحالات العقول .

فمن دونهم إذا أخبر عن شهود وكشف ، يعلم بصريح العقل بطلانه ، علم أن كشفه باطل .

وأما إن كان لم يعلم بطلانه ، فهذا قد يمكن إصابته ، وقد يمكن خطؤه ، إذ غير الأنبياء ليس بمعصوم .

وهؤلاء سمعوا باسم الله وقصدوا عبادته ومعرفته ، فوقفوا على أثره في مصنوعاته فظنوا أنه هو . كمن سمع بالشمس ، فلما أن رأى الشعاع المنبسط في الهواء والأرض ، ظن أن ذلك هو الشمس ولم يصعد بصره وبصيرته إلى الشمس التي في السماء .

وكذلك هؤلاء لم تصعد بصائر قلوبهم إلى رب العالمين ، الذي فوق كل شئ المباين لمخلوقاته .

وسر ذلك ، أنهم يشهدون بقلوبهم وجوداً مطلقًا بسيطًا ، ليس له اسم خاص ، كالحى ، والعليم ، والقدير . ولا له صفة ، ولايتميز فيه شئ عن شئ ، وهذا هو الوجود المشترك .

لكن هذا الشهود هو نفوسهم ، لاحقيقة له في الخارج ، وكثير ممن يخاطبهم

لايتصور مايشهدونه ، فيظنون أنه لم يفهم ماشهدوه .

وقد خاطبت غير واحد منهم ، وبينت له أن هذا الذي يشهدونه هو في الذهن ، وبتقدير أن يكون موجوداً في الخارج ، فهو صفة للموجودات ، أو جزء منها ، ويظنون مع ظنهم أنه موجود في الخارج ، أنه لم يبق في الخارج غير ماشهدوه ، فإنهم يغيبون عن الحس الذي يدرك المعينات ، ويغيبون عقلهم عن تصورها ، حتى لايميزوا بين موجود وموجود ، ويقولون : الحس فيه تفرقة ثم يشهدون هذا الوجود المطلق مع عزلهم الحس ، فيظنون أن هذا المطلق هو نفس المعينات ، وأنه مابقي موجوداً أصلا .

فيقال لهم : لو قُدِّر أن الوجود الكلى ثابت في الخارج كليًا ، وأنكم شهدتهم ذلك ، فمعلوم عند كل عاقل أن وجود الكلى المشترك ، لايناقض وجود المعين المختص .

فالحيوانية ، والإنسانية المشتركة المطلقة ، لاتناقض أعيان الحيوان وأعيان الإنسان ، وحينئذ فثبوت أعيان الموجودات حاصل في الخارج .

وهب أنكم غبتم عن هذا ولم تشهدوه ، فالغيبة عن شهود الشئ لايوجب عدمه في نفسه .

فإذا لم يشهد العبد الشئ ، أو لم يره ، أو لم يعلمه ، أو لم يخطر بقلبه أو فَنِيَ عن شهوده ، أو اصطلم ، أو غاب ، لم يلزم من ذلك أن يكون الشئ صار في نفسه معدوماً فانيًا لاحقيقة له ، بل الفرق ثابت بين أن يعدم الشئ في نفسه ويفنى ويتلاشى ، وبين أن يعدم شهود الإنسان له وذكره ومعرفته .

وهؤلاء - من ضلالهم - يظنون أنه إذا فنى شهودهم للموجودات ، كانت فانية في أنفسها ، فلم يكن موجوداً إلا مايخيلونه من الوجود المطلق .

ويقولون : الكثرة والتفرقة في الحس ، فإذا فنى شهود القلب عن الحس ، لم يبق

تفرقة ولا كثرة ، ويظنون أن شهود الحس حينئذ خطأ ، والعقل هو الذى يشهد الكليات والمطلقات دون الحس ، فإذا أبطلوا ماشهده الحس ، لم يبق معهم إلا الوجود الكلى .

ثم يظنون – مع ذلك – أنه هو الله ، فيبقى الرب – عندهم – وهمًا وخيالا في نفوسهم ، لاحقيقة له في الخارج ، كما قال بعض حذاقهم ، وهو « الششترى » صاحب ابن السبعين ، وهمك هو يتشخص ماتحته شئ . وقال :

يرى الوجود واحد وأنت ذاك ... وليس عليك زائد ماثَمَّ سواك

وقلت لبعض حذاقهم : هب أن هذا الوجود المطلق ثابت في الخارج وأنه عين الموجودات المشهودة ، فمن أين لك أن هذا هو رب العالمين الذي خلق السموات والأرض وكل شئ ؟

فاعترف بذلك وقال هذا مافيه حيلة .

والحس الباطن أو الظاهر إن لم يقترن به العقل الذي يميز بين المحسوس وغيره وإلا دخل فيه الغلط من جنس مايدخل على النائم والممرور والمبرسم وغيرهم ، ممن يحكم بمجرد الحس الذي لاعقل معه .

والبهائم قد تكون أهدى من هؤلاء ، كما قال تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ، [الأعراف : ١٧٩] وهؤلاء يصرحون برفض السمع والعقل ، فدخلوا في قوله (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ ويلزمون أنفسهم الغيبة عن العقل والحس الظاهر والشرع . فلهذا يقول أحذقهم التلمسانى :

فَقُل لِحسِّكَ غبْ وَجْدَا وَذُبْ طَرَبَا ... فيهَا وَقُلْ لِزوَالِ العَقلِ لاَتَزُلِ

وَاصْمتْ إلىَ أَن تَرَاهَا فِيكَ نَاطِقَةً فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلاً فَقُلِ

وهؤلاء ، لبسط الكلام عليهم موضع آخر.

والمقصود – هنا – أن النصارى زعموا أن اللاهوت محتاج إلى ما اتحد به من الناسوت ، وهؤلاء زعموا أن رب العالمين محتاج إلى كل ماسواه من الأعيان الثابتة في العدم .

فإن كل من قال : إن رب العالمين اتحد بغيره ، فكل من المتحدين مفتقر عليه الآخر مع استحالة كل منهما ، وتغير حقيقته ، ولا كذلك الحلول المعقول ، فإن الحلول لايعقل إلا إذا كان الحالُّ قائمًا بالمحل محتاج إليه ، سواء أريد بذلك حلول الصفات والأعراض في الموصوفات والجواهر ، أو أريد به حلول الأعيان .

فإن كون أحد الجسمين محلا للآخر ، كحلول الماء في الظرف ، هو يوجب افتقاره إليه .

ومايحل في قلوب المؤمنين من معرفة الرب والإيمان به ، هو قائم بقلوبهم محتاج إليه .

وكذلك مايثبته الفلاسفة من الهيولى والصورة ، ويقولون : إن الهيولى محل للصورة ، ويعترفون – مع ذلك – بأن الصورة محتاجة إلى الهيولى .

والقائلون بوحدة الوجود ، فقد يجعلون الخالق مع المخلوقات كالصورة مع الهيولى كما يشير إليه « ابن سبعين » ويقول هو في الماء ماء ، وفي النار نار وفي كل شئ بصورة ذلك الشئ ، كما قد بسط الكلام على هؤلاء في مواضع غير هذا الكتاب .

وإذا قالوا : إن الرب حلَّ في المسيح ، كما حلَّ في غيره ، وهو الحلول الموجود في كلام داود عندهم ، حيث قالوا : أنت تحل في قلوب القديسين ، فقد عرف أن هذا حلول الإيمان به ومعرفته وهداه ونوره والمثال العلمى ، كما قد بسط في موضع آخر

ولهذا يسمى ظهوراً والشعاع الحالّ على الأرض والهواء ، عرض قائم بذلك ، وهو مفتقر إلى الأرض والهواء .

والرسل صلوات الله عليهم ، أخبروا بأن الله فوق العالم بعبارات متنوعة ، تارة يقولون : هو العلى وهو الأعلى ، وتارة يقولون : هو في السماء كقوله : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا ﴾ وليس مرادهم بذلك أن الله في جوف السموات ، أو أن الله يحصره شئ من المخلوقات ، بل كلام الرسل كله يصدق بعضه بعضا ، كما قال تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ ، [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢] .

وقد قال تعالى ﴿ هوَ الأوَّلُ والآخِرِ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ ﴾ وثبت في الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « أنت الظاهر فليس فوقك شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ » فأخبر أنه لايكون شئ فوقه .

ولهذا قال غير واحد من السلف : إنه ينزل إلى سماء الدنيا ، ولايخلو العرش منه ، فلايصير تحت المخلوقات وفي جوفها قط ، بل العلو عليها صفة لازمة له حيث وجد مخلوق ، فلا يكون الرب إلا عاليًا عليه .

وقول الرسل « في السماء » أي في العلو ، ليس مرادهم في جوف الأفلاك بل السماء العلو ، وهو إذا كان فوق العرش ، فهو العلى الأعلى وليس هناك مخلوق ، حتى يكون الرب محصوراً في شئ من المخلوقات ، ولا هو في جهة موجودة ، بل ليس موجودا إلا الخالق والمخلوق ، والخالق بائن عن مخلوقاته ، عالٍ عليها ، فليس هو في مخلوق أصلا ، سواء سُمِّيَ ذلك المخلوق جهة أو لم يسم جهة .

ومن قال : إنه في جهة موجودة تعلو عليه ، أو تحيط به ، أو يحتاج إليها بوجه

١- سبق تخريجه (ص ٧٦)

من الوجوه ، فهو مخطئ .

كما أن من قال : ليس فوق السموات رب ، ولا على العرش إله ، ومحمد لم يعرج به إلى ربه ، ولاتصعد الملائكة إليه ، ولاتنزل الكتب منه ، ولايقرب منه شئ ، ولايدنو إلى شئ ، فهو أيضًا مخطئ .

ومن سمى مافوق العالم جهة ، وجعل العدم المحض جهة ، وقال هو في جهة - بهذا المعنى - أى هو نفسه فوق كل شئ ، فهذا معنى صحيح .

ومن نفى هذا المعنى بقوله : ليس في جهة فقد أخطأ .

بل طريق الاعتصام أن ما أثبته الرسل الله ، أثبت له ، وما نفته الرسل عن الله ، نفي عنه .

والألفاظ التي لم تنطق الرسل فيها بِنَفْي ولا إثبات ، كلفظ « الجهة » ، و« الحيز » ونحو ذلك لايطلق نفيًا ، ولا إثباتًا إلا بعد بيان المراد .

فمن أراد بما أثبت معنى صحيحًا ، فقد أصاب في المعنى ، وإن كان في اللفظ خطأ .

ومن أراد بما نفاه معنى صحيحًا ، فقد أصاب في المعنى ، وإن كان في لفظه خطأ .

وأما من أثبت بلفظه حقًا وباطلا ، أو نفى بلفظه حقًا وباطلا ، فكلاهما مصيب فيما عناه من الحق ، مخطئ فيما عناه من الباطل ، قد لَبَّسَ الحق بالباطل ، وجمع في كلامه حقًا وباطلاً .

والأنبياء كلهم متطابقون على أنه في العلو .

وفي القرآن والسنة مايقارب ألف دليل على ذلك ، وفي كلام الأنبياء المتقدمين مالا يحصى .

فصـــل

قال سعيد بن البطريق : وذلك مثل ما أن شعاع الشمس المولود من عين الشمس ، الذي يملأ ضوؤه مابين السماء والأرض نورًا ، وفي بيت من البيوت يكون فيه ضياء بنوره ، من غير مفارقة لعين الشمس التي تولد منها حقًا ؛ لأنه لم ينقطع من العين ، ولا من الضوء . فكذلك سكن الله في الناسوت من غير أن يفارقه الأب ، فهو مع الناسوت ، وهو مع الأب وروح القدس حقًا .

فيقال : هذا التمثيل لو قدر أنه صحيح ، فإنما يشبه من بعض الوجوه قول من يقول : إنه بذاته في كل مكان ، كشعاع الشمس ، الذي يظهره في الهواء والأرض .

وأما النصارى ، فإنهم يخصونه بناسوت المسيح دون سائر النواسيت ، ولو مثل بهذا من يقول : إنه بذاته في كل مكان ، لكان باطلا ، فكيف النصارى ؟! فإن الضوء إنما يكون في الهواء وسطوح الأرض ، ولايكون تحت السقوف ، والغيران وباطن الأرض .

ثم هذا التمثيل باطل من وجوه :

أحدها :- أن الشعاع ليس متولدًا من جرم الشمس ، ولا شعاع النار متولد من جرم النار ، بل هو حادث بائن عن جرم الشمس ، ولكنها سبب في حصوله .

ولهذا يشبه به العلم الحاصل في قلب المتعلم بسبب تعلم العلم من غير أن يكون من ذات علم العالم .

ولهذا يشبه علم العالم بالسراج الذي يقتبس كل أحد من نوره ، وهو لم ينقص .

بخلاف تولد المولود عن والده ، فإنه متولد من عينه .

والشعاع القائم بالهواء والأرض ، ليس هو قائمًا بذات الشمس والنار بل هو عرض قائم بمحل آخر ، والعرض الواحد لايكون في محلين .

والنصارى يقولون : إن الكلمة التي هى علم الله أو حكمته ، متولدة منه وهي قديمة أزلية ، والصفة قائمة بالموصوف ، فالصفة مثل مايقوم بذات الشمس عن استدارة وضوء ، فذاك صفة لها ، وهو غير الشعاع القائم بالهواء، فإن ذاك بائن عنها فكيف يجعل هذا هو هذا ؟!

فإن قالوا : نحن مقصودنا أن حكمه الله وعلمه ونوره أنزله إلى المسيح وأفاضه على المسيح ، كما يفيض الشعاع عن الشمس .

قيل لهم : فهذا قدر مشترك بين المسيح وسائر الأنبياء ، فلا اختصاص للمسيح بذلك .

الوجه الثانى : قولهم : الذي يملأ ضوؤه مابين السماء والأرض نوراً ، وفي بيت من البيوت يكون فيه حقًا من غير مفارقة لعين الشمس التي تولد منها حقا .

فيقال لهم : الشعاع الذى بين السماء والأرض ، هو الضوء ، وهو النور .

فقولكم : إن الشعاع يملأ ضوؤه مابين السماء والأرض نوراً ، يقتضى أنه شعاع ، وضوء شعاع ، ونور حدث عن ذلك . وهذا غلط ، بل ليس هنا إلا جرم الشمس ، التي في السماء وشعاعها ، وهو الضوء والنور الذى مابين السماء والأرض .

والثالث : قولكم : « من غير مفارقة عين الشمس » يقتضى أن هذا الشعاع هو نفس ماقام بالشمس ، وهذا مكابرة للحس والعقل ، بل الشعاع الذي قام بالهواء والأرض ، عَرَضٌ لم يقم بالشمس قط .

وكل شعاع بقعة ، فليس هو عين الشعاع الذي في البقعة الأخرى ، وإن كان هو نظيره ومثله ، وجنس الشعاع يجمعهما ، كما أن شعاع هذا السراج ، ليس هو شعاع هذا السراج وإن قدر اختلاطهما حتى يقوى الضوء . ولاحركة هذا الهواء هي حركة هذا الهواء ، ونظائر ذلك متعددة .

الرابع : قولكم : « كذلك الله سكن في الناسوت من غير أن يفارقه الأب » تمثيل باطل .

فإن الشمس نفسها لم تسكن في الهواء والأرض ، وإنما سكن شعاعها .

فوازنه أن يقال : فكذلك سكن نور الله ، وبرهانه ، وهداه ، وروحه .

وهذا إذا قلته ، فهو منقول عن الأنبياء ، تنطق كتبهم بأن نور الله وروحه وهداه في قلوب المؤمنين ، ولكن لا اختصاص للمسيح بذلك .

قال الله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ [النور : ٣٥] .

قال أُبي بن كعب : مثل نوره في قلب المؤمن .

وفي الترمذي (١) عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا

---

(١) حديث ضعيف وقد روي الحديث عن : أبي سعيد الخدري

رواه الترمذي في كتاب « التفسير » ,تفسير سورة الحجر باب « ٦ » (٨ / ٥٥٤ ، ٥٥٥ ح ٥١٣٣)

وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقد روى عن بعض أهل العلم في تفسير هذه الآية : « إنّ في ذلك لآيات للمتوسمين » , قال : للمتفرسين »

ورواه البخاري في « التاريخ الكبير » (٤ / ١ / ٣٥٤) ، كما رواه العقيلي في « الضعفاء » (٤ / ١٢٩)، كما رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠ / ٢٨١ : ٢٨٢) ، ورواه السلمي في « طبقات الصوفية » (صـــ ١٥٦) كلاهما بلفظ

« احذروا فراسة المؤمن ..» ، ورواه الطبري في « تفسيره » (٤ / ٣١ - ٣٢) ، ورواه الخطيب في « تاريخه » (٧ / ٢٤٢)، وذكره السيوطي في « اللآلئ » (٢ / ٣٢٩) وقال : « تفرد به محمد بن كثير وهو ضعيف جداً »، وهذا الحديث « ضعيف » من هذا الطريق من أجل « عطية العوفي » قال عنه ابن حجر في التقريب (٢ / ٢٤) ، « صدوق يخطئ كثيراً ، كان شيعيًا مدلسًا من الثالثة »

٢ - عن أبي أمامة ، رواه الطبراني في الكبير كما في المجمع (١٠ / ٢٦٨) وقال الهيثمي : « وإسناده حسن » ، رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦ / ١١٨) ، ورواه ابن عدي في « الكامل » (٤ / ٢٠٧) ، ورواه الخطيب في « تاريخه » (٥ /٩٩) =

فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ قوله :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٥] .

الخامس : أنكم إذا جعلتم الله نفسه ساكنا في المسيح ، فوازنه أن تكون الشمس نفسها ساكنة في موضع صغير من الأرض .

وهذا التمثيل يبطل قولكم : إن الله أعلا وأعظم وأجل وأكبر ، والله أجل وأكبر وأعظم من كل شئ ، والشمس آية من آياته ومخلوق من مخلوقاته ، ومع هذا فلو قال قائل إن الشمس سكنت في جوف امرأة وخرجت من فرج تلك المرأة ، لكان كل عاقل يعلم فساد قوله ، وينسبه إلى الجهل العظيم ، أو الجنون ، وسواء قال : إن الشمس نفسها نزلت ؛ أو لم تنزل .

وأنتم تقولون : إن رب العالمين سكن في بطن مريم ، ويقول أكثركم - كالملكية واليعقوبية - إنه خرج من فرج مريم .

ولو قال قائل عما هو من أصغر مخلوقات الله كوكب من الكواكب ، أو جبل من الجبال ، أو صخرة عظيمة - إن ذلك كان في بطن امرأة وخرج من فرجها ، لضحك

= وذكره السيوطي في « اللآلئ » (٢ / ٣٢٩) وقال : « عبد الله بن صالح كاتب الليث ليس بشئ » .
والحديث فيه عبد الله بن صالح قال عنه ابن حجر في « التقريب » (١ / ٤٢٣) : « صدوق كثير الغلط ، ثبت في كتابه وكانت فيه غفلة من العاشرة » .

٣ - أبو هريرة ، رواه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢ / ٣٢٩ - ٣٣٠) ،وقال : « لا يصح ، أبو معاذ هو سليمان بن أرقم . متروك » ، وانظر اللالئ المصنوعة للسيوطي (٢ / ٣٢٩ ، ٣٣٠)

٤ - ابن عمر:
رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤ / ٩٤) ، ورواه الطبري في تفسيره (١٤ / ٣٢) ، وذكره السيوطي في « اللآلئ » (٢ / ٣٢٩) وقال : « لا يصح ، الفرات متروك وكذا اليماني »

٥ - ثوبان ، رواه الطبري في تفسيره (١٤ / ٣٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٤ / ٨١) ، وذكره السيوطي في « اللآلئ » (٢ / ٣٣٠) ، وللمزيد أنظر « الضعيفة » للألباني (٤ / ٢٩٩ : ٣٠٢ ح ١٨٢١)

الناس من قوله ، فكيف بم يدَّعي مثل ذلك في رب العالمين ؟!

وإذا قالوا : إن الله نزل إلى السماء الدنيا ، أو نزل إلى الطور وكلم موسى من العليقة ، أو في عمود الغمام ونحو ذلك ، فليس في شئ من ذلك أنه اتحد بمخلوق ، ولاسماء ، ولا طور ، ولاشجرة ، ولا كان كلامه قائمًا بشئ مخلوق ، ولاشجرة ، ولاغيرها .

وعندهم أنه اتحد بالمسيح ؛ وكان صوت المسيح القائم به ؛ هو صوت رب العالمين بلا واسطة .

فصـــل

قال سعيد بن البطريق : ومثلما أن كلمة الإنسان المولودة من عقله ، تكتب في قرطاس ، فهي في القرطاس كلها حقًا من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت ، ولا يفارقها العقل الذي ولدها ؛ لأن العقل بالكلمة يعرف ؛ لأنها فيه ، والكلمة كلها في العقل الذي ولدها ، وكلها في نفسها ، وكلها في القرطاس الذي التحمت به ، فكذلك كلمة الله ، كلها في الأب الذي ولدت منه ، وكلها في نفسها وفي الروح ، وكلها في الناسوت التي حلت فيها والتحمت بها .

فيقال : هذا التمثيل حجة عليكم ، وعلى فساد قولكم ، ولاحجة لكم ، وذلك يظهر بوجوه :

أحدها :- أن يقال : إن كان حلول كلمة الله – التي هي المسيح – في الناسوت مثل كتابة الكلام في القرطاس ، فحينئذ يكون المسيح من جنس سائر كلام الله ، كالتوراة ، وزبور داود ، والإنجيل ، والقرآن وغير ذلك ، فإن هذا كله كلام الله ، وهو مكتوب في القراطيس باتفاق أهل الملل ، بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب في القراطيس ، وقد قال تعالى : في القرآن : ﴿ بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ في لَوْحٍ مَحْفُوظٌ ﴾ [البروج : ٢١ - ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ إنَّه لَقُرآنٌ كريمٌ * في

كِتَابٍ مكنُونٍ * لايَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٧ - ٧٩] ، وقال : ﴿ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُب قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : ٢ - ٣] ، وقال : ﴿ إنَّها تَذْكِرَة * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِ سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [سورة عبس : ١١ - ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ والطورِ * وكِتَابٍ مَسْطُورٍ * في رقٍّ مَنشُورٍ ﴾ [الطور: ١ - ٣] وإذا كانت الكلمة التي هي المسيح عندكم هكذا ، فمعلوم أن كلام الله المكتوب في القراطيس ، ليس هو إلهًا خالقًا ، وهو كلام كثير ، لاينحصر في كلمة ، ولاكلمتين .

ولو قال قائل : ياكلام الله اغفرلي وارحمني ، أو ياتوراة ، أو يا إنجيل ، أو ياقرآن اغفرلي وارحمني ؛ كان قد تكلم بباطل عند جميع أهل الملل والعقلاء .

وأنتم تقولون : المسيح إله خالق ، وهو يُدْعَى ويُعْبَد . فكيف تشبهونه بكلام الله المكتوب في القراطيس ؟!

الثاني : أن الكلام المكتوب صفة للمتكلم ، يقوم ويكتب في القراطيس عند سلف أهل الملل وجماهيرهم .

وعند بعضهم ، هو عرض مخلوق ، يخلقه في غيره .

فالجميع متفقون ، على أن الكلام صفة تقوم بغيرها ؛ ليس جوهرًا قائما بنفسه .

والمسيح – عندكم – لاهوته جوهر قائم بنفسه ، وهو إله حق من إله حق وهو – عندكم – إله تام وإنسان تام .

فكيف تجعلون الإله الذي هو عين قائمة بنفسها ، كالصفة التي لاتقوم إلا بغيرها .

الثالث : قولكم : « إن كلمة الإنسان مولودة من عقله » . لو كان صحيحًا ، فالتولد لايكون إلا حادثًا .

وأنتم تقولون : إن كلمة الله القديمة الأزلية ؛ متولدة منه قبل الدهور .

وتقولون – مع هذا – : هي إله .

وهذا كما أن بطلانه معلوم بصريح العقل ؛ فهي بدعة وضلالة في الشرع ؛ فإنه لم يسم أحد من الأنبياء شيئًا من صفات الله ابنا له ؛ ولا قال : إن صفته متولدة منه ؛ ولفظ « الابن » لايوجد عندكم عن الأنبياء إلا اسما لناسوت مخلوق ، ولالصفة الله القديمة ، فقد بدلتم كلام الأنبياء بهذا الافتراء .

الرابع :– قولكم : « مولودة من عقله » إن أردتم بـ « عقله » العين القائمة بنفسها التي يسميها قلبا وروحا ونفسا ، أو نفسًا ناطقة ، فتلك إنما تقوم بها المعاني ، وأما الألفاظ فإنما تقوم بفمه ولسانه .

وإن أردتم « عقله » مصدر عقل يعقل عقلا ، فالمصدر عرض قائم بالعقل وهو عرض من جنس العلم والكلمة والعمل الصالح .

وإن أردتم بالعقل ، الغريزة التي في الإنسان ، فهو أيضا عرض .

الخامس : أن تسميتكم تكلم الإنسان بالمعنى أو اللفظ تولدًا ، أمر اخترعتموه ، لايعرف عن نبي من الأنبياء ، ولا أمة من الأمم ، ولا في لغة من اللغات .

وإنما ابتدعتم هذا لتقولوا : إذا كان كلام الإنسان متولداً منه ، فكلام الله متولد منه ولم ينطق أحد من الأنبياء بأن كلام الله تولد منه ، ولا أنه ابنه ولا أن علمه تولد منه ، ولا أنه ابنه .

السادس : قولكم : « إن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب في القرطاس ، فهي في القرطاس كلها حقا من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت » إلى قولكم : « الكلمة كلها في العقل الذي ولدها ، وكلها في نفسها ، وكلها في القرطاس الذي التحمت به » مكابرة ظاهرة معلومة الفساد بصريح العقل .

فإن وجود الكلام في القلب واللسان ، ليس هو عين وجوده مكتوبا في القرطاس ،

بل القائم بقلب المتكلم معان ، طلب ، وخبر ، وعلم ، وإرادة . والقائم بنفسه ، حروف مؤلفة هي أصوات مقطعة ، أو هي حدود أصوات مقطعة ، وليس في قلب الإنسان ولا فمه ، مداد كالمداد الذي في القرطاس .

والكلام مكتوب في القرطاس باتفاق العقلاء ، مع علمهم بأنه ليس في القرطاس علم وطلب وخبر قائم به ، كما تقوم بقلب المتكلم ، ولا قام به أصوات مقطعة مؤلفة ، ولاحروفا كالأصوات القائمة بفم المتكلم ، بل لفظ الحرف يقال على الحرف المكتوب . إما المداد المصور ، وإما صورة المداد وشكله . ويقال على الحرف المنطوق إما الصوت المقطع . وإما حد الصوت ومنقطعه وصورته .

وكل عاقل يميز بحسه وعقله بين الصوت المسموع من المتكلم ، وبين المداد المرئي بالبصر ، ولايقول عاقل : إن هذا هو هذا ، ولايقال : إن هذا وهذا هو نفس المعنى القائم بقلب المتكلم . فكيف يقولون : إن الكلمة في القرطاس كلها ، وكلها في العقل الذي ولدها ، وكلها في نفسها ؟!

السابع : أن حرف « فى » التى يسميها النحاة ظرفا ، يستعمل في كل موضع بالمعنى المناسب لذلك الموضع .

فإذا قيل : إن الطعم واللون والريح ، حالٌ في الفاكهة ، أو العلم والقدرة ، والكلام حال في المتكلم ، فهذا معنى معقول .

وإذا قيل : إن هذا حال في داره ، أو إن الماء حال في الظرف ، فهذا معنى آخر .

فإن ذاك حلول صفة في موصوفها ، وهذا حلول عين قائمة ، تسمى جسماً وجوهراً ، في محلها ، ومنه يقال لمكان القوام : المحلة ، ويقال : فلان حل بالمكان الفلاني .

وإذا قيل : الشمس والقمر في الماء ، أو في المرآة ، أو وجه فلان في المرآة ، أو كلام فلان في هذا القرطاس ، فهذا له معنى يفهمه الناس ، يعلمون أنه قد ظهرت الشمس

والقمر والوجه في المرآة ، ورؤيت فيهـا ، وأنه لم يحل بها ذات ذلك ، وإنما حل فيها مثال شعاعيّ عند من يقول بذلك .

وكذلك الكلام إذا كتب في القرطاس ، فالناس يعلمـون أنه مكتوب فيه ومقروء فيـه ومنظور فيـه ، ويقولون :نظرت في كـلام فلان وقـرأته وتدبرته وفهـمتـه ورأيته ونحو ذلك ، كما يقولون : رأيت وجهه في المرآة وتأملته ونحو ذلك .

وهم – في ذلك كله صـادقـون – يعلمـون مـايقـولون ، ويعلمـون أن نفس جـرم الشمس والقمر والوجه لم يحل فـي المرآة ، وأن نفس ما قام به من المعاني والأصوات لم تقم بالقـرطاس ، بل كانت المرآة واسطة في رؤية الوجه ، فـهو المقـصود بالرؤية ، وكان القرطاس واسطة في معرفة الكلام ، فهو المقصود بالرؤية ، وكان .

ويعلمون أن حاسة البصر باشرت مافي المرآة من الشعاع المنعكس .

ولكن المقصـود بالرؤية ، هو الشمس ، وحاسـة البصر باشرت مـافي القرطاس من المداد المكتوب ، ولكن المقصود بالروية هو الكلام المكتوب .

ويعلمون أن نفس المثال الذي في المرآة لـيس هو الوجه ، وأن نفس المداد المكتوب به ، ليس هو الكلام المكتـوب ، بل يعرفـون بينهمـا كمـا قال تعالى ﴿ قـل : لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ [الكهف : ١٠٩] فـفـرق سبـحـانه بـين الكلمـات وبين المداد ، الـذي يكتب به الكلمات .

فكيف يقـال : إن هذا هو هذا ، وأن الكلمـة في القـرطاس كلهـا وهي في المتكلم كلها ؟!

الثـامن :– أن الكلام له مـعنى فـي المتكلم ، يعـبـر عنه بلفظه ، واللـفظ يكتب في القرطاس ، فـالمكتوب في القـرطاس هو اللفظ المطابق للمـعنى ، لايكتـب المعنى بدون كتابة اللفظ ، ولهذا من لم يعرف اللفظ الذي كتب بالخط ، لم يعرف ماكتب .

فدعوى هؤلاء أن نفس المعنى الذي في القلب كله ، هو في القرطاس كله جعل لنفس المعنى هو الخط وهذا باطل .

التاسع : - أنه لاريب أن كلام المتكلم يقال : إنه قائم به .

ويقال - مع ذلك - إنه مكتوب في القرطاس ، ويقال : هذا هو كلام فلان بعينه ، وهذا هو ذاك ، ونحو ذلك من العبارات التي تتبين أن هذا المكتوب في القرطاس ، هو هذا الكلام الذي تكلم به المتكلم بعينه ، لم يزد فيه ولم ينقص ، لم يكتب كلام غيره .

ولايريدون بذلك أن نفس الخط نفس الصوت ، أو نفس المعنى . فإن هذا لايقوله عاقل .

فإن قيل : ففي المسلمين من يقول : إن كلام الله القديم الأزلي ، أو كلام الله ، الذي ليس بمخلوق ، هو حالٌّ في الصدور والمصاحف من غير مفارقة .

ومن هؤلاء من يقول : إنه يسمع من الإنسان الصوت القديم ، أو الصوت الذي ليس بمخلوق .

ومنهم من يقول : إن الحرف القديم ، أو الذي ليس بمخلوق ، هو في القرطاس ، وحكي عن بعضهم أنه يقول ذلك في المداد .

ومن هؤلاء من يقول : إن القديم حَلٌّ في المصحف ، ونحو ذلك .

فتقول النصارى : نحن هؤلاء .

قيل : الجواب من وجوه .

أحدها : أن المقصود بيان الحق الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، والرد على من خالف ذلك من النصارى وغيرهم .

ونحن لاننكر أن في المنتسبين إلى الإسلام ، منهم منافقون ملحدون زنادقة ،

ومنهم جهال مبتدعة ، ومنهم من يقول مثل قول النصارى ، ومنهم من يقول شر منه فالرد على هؤلاء كلهم ، والعصمة ثابتة لكتاب الله ، وسنة رسوله .

وما اجتمع عليه عباده المؤمنون . فهذا لايكون إلا حقا ، وما تنازع فيه المسلمون ففيه حق وباطل .

الوجه الثاني :- أن يقال هؤلاء الذين قالوا في القرآن ماقالوه ، ليس مثل قول النصارى .

فإن النصارى جعلوا لله ولداً قديمًا أزليًا سموه « كلمة » وقالوا : إنه إله يخلق ويرزق ، وإنه اتحد بالمسيح ، فجعلوا المسيح – الذي هو الكلمة عندهم إلها يخلق ويرزق .

وليس في طوائف المسلمين المعروفة من يقول : إن كلام الله إله يخلق ويرزق .

ولكن محمد وغيره من الرسل ، عليهم السلام ، بلغوا إلى الخلق كلام الله الذي تكلم به .

فكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان على القرآن والتوراة والإنجيل ، وغير ذلك من كلام الله ، هو كلام الله الذي تكلم به ، وأن الله أنزله وأرسل به ملائكته ، ليس هو مخلوقا بائنا عنه خلقه في غيره .

ويقولون : إن هذا القرآن هو كلام الله ، الذي بلغه رسوله ، والمسلمون يقرءونه ، ويسمع من القارئ كلام لله ، لكن يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم ، ويسمعونه من القارئ الذي يقرؤه بصوت نفسه ، فالكلام كلام البارئ ، والصوت صوت القارئ ويقولون : إن الله تكلم به ، وبما كلم به موسى ، وأن موسى سمع نداء الله بأذنه ، فكلمه الله بالصوت الذي سمعه موسى ، كما بين ذلك في كتب الله ، القرآن ، والإنجيل ، والتوراة وغير ذلك .

فحدث بعض الصحابة ، وأكابر التابعين طائفة معطلة يقولون : إن الله لم يكلم موسى تكليما ، ولم يتخذ إبراهيم خليلا ، فقتل المسلمون مقدمهم « الجعد » وصار لهم مقدم يقال له « الجهم » فنسبت إليه الجهمية ، نفاة الأسماء والصفات .

وتارة يقولون : إن الله لم يتكلم ولم يكلم موسى ، وإنما أطلق ذلك مجازا .

تارة يقولون : تكلم ويتكلم حقيقة ، ولكن معنى ذلك أنه خلق كلاما في غيره ، سمعه موسى ، لا أنه نفسه قام به كلام ، وهذا قول من يقوله من المعتزلة ونحوهم .

وزين هذا القول لبعض ذوى الإمارة ، فدعوه إليه مدة وأظهروه وعاقبوا من خالفهم ، ثم أطفأ الله ذلك ، وأظهر ماكان عليه سلف الأمة أن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله ، تكلم هو به . منه بدا ، ليس ببائن منه ، وليس بمخلوق خلقه في غيره .

ولما أظهر الله هذا ، والناس يتلون قول الله تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ [التوبة : ٦] ، صار بعض أهل الأهواء يقول : إنما يسمع صوت القارئ ، وصوته مخلوق ، وهو كلام الله فكلام الله مخلوق .

ولم يميز هذا ، بين أن يسمع الكلام من المتكلم به ، كما سمعه موسى من الله بلا واسطة ، وبين أن يسمع من المبلغ عنه .

ومعلوم أنه لو سمع كلام الأنبياء وغيرهم من المبلغين ، لم يكن صوت المبلغ هو صوت المبلغ عنه ، وإن كان الكلام كلام المبلغ عنه لاكلام المبلغ .

فكلام الله إذا سمع من المبلغين عنه ، أولى أن يكون هو كلام الله ، لا كلام المبلغين وإن بلغوه بأصواتهم .

فجاءت طائفة ثانية فقالوا : هذا المسموع ألفاظنا وأصواتنا وكلامنا ، ليس هو

كلام الله ؛ لأن هذا مخلوق ، وكلام الله ليس بمخلوق .

وكان مقصود هؤلاء تحقيق أن كلام الله غير مخلوق ، فوقعوا في إنكار أن يكون هذا القرآن كلام الله ، ولم يهتدوا إلى أنه - وإن كان كلام الله فهو كلام الله مبلغًا عنه - ليس هو كلامه مسموعًا منه ، ولايلزم إذا كانت أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ليست هي كلام الله ، أن يكون الكلام الذي يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم كلامهم ويكون مخلوقًا ليس هو كلام الله .

وثُمَّ هؤلاء الذين قالوا : ليس هذا كلام الله ، منهم من قال : هو حكاية لكلام الله وطردوا ذلك في كل من بلغ كلام غيره أن يكون مابلغه حكاية لكلام المبلغ عنه لا كلامه .

وأهل الحكاية منهم من يقول : إن كلام الرب يتضمن حروفًا مؤلفة ، إما قائمًا بذاته على قول بعضهم ، أو مخلوقة في غيره على قول بعضهم ، والقائم بذاته معنى واحد .

ومن هؤلاء من قال : الحكاية تماثل المحكى عنه ، فلا نقول هو حكاية بل هو عبارة عنه ، والتقدير عندهم « فأجره حتى يسمع كلام عبارته أو حكايته » .

فجاءت طائفة ثالثة ، فقالت : بل قد ثبت أن هذا كلام الله ، وكلام الله ليس بمخلوق ، وهذا المسموع هو الصوت ، فالصوت غير مخلوق .

ثم من هؤلاء من قال : إنه قديم ، ومنهم من قال : ليس بقديم . ومنهم من قال : يسمع صوت الرب والعبد ، ومنهم من قال : إنما يسمع صوت الرب .

ثم منهم من قال : إنه قديم ، ومنهم من قال : إنما يسمعه من العبد .

وهؤلاء منهم من قال : إن صوت الرب حل في العبد ، فضاهوا النصارى .

ومنهم من قال : بل نقول : ظهر فيه من غير حلول . ومنهم من يقول : لايطلق

هذا ولا هذا .

وكل هذه الأقوال محدثة مبتدعة ، لم يقل منها شيئًا أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا إمام من أئمة المسلمين ، كمالك ، والثورى ، والأوزاعى ، والليث ابن سعد ، وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، ومحمد، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وابن عيينة وغيرهم .

بل هؤلاء كلهم متفقون على أن القرآن منزل غير مخلوق ، وأن الله أرسل به جبريل ، فنزل به جبريل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فبلغه محمد إلى الناس فقرأه الناس بحركاتهم وأصواتهم وليس شئ من أفعال العباد وأصواتهم قديمًا ولاغير مخلوق ، ولكن كلام الله غير مخلوق ، ولم يكن السلف يقولون : القرآن قديم .

ولما أحدث الجهمية وموافقوهم من المعتزلة وغيرهم أنه غير مخلوق بائن من الله . قال السلف والأئمة : إنه كلام الله غير مخلوق .

ولم يقل أحد من السلف : إن الله تكلم بغير قدرته ومشيئته ، ولا أنه معنى واحد قائم بالذات ، ولا أنه تكلم به القرآن أو التوراة أو الإنجيل في الأزل بحرف وصوت قديم ، فحدث بعد ذلك طائفة فقالوا : إنه قديم .

ثم منهم من قال : القديم هو معنى واحد قائم بالذات ، هو معنى جميع كلام الله .

وذلك المعنى إن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا ، والأمر والنهى والخبر صفات له لا أنواع له .

ومن هؤلاء من قال : بل هو قديم ، وهو حروف ، أو حروف وأصوات أزلية قديمة وأنها هي التوراة والإنجيل والقرآن .

فقال الناس لهؤلاء : خالفتم الشرع والعقل في قولكم : إنه قديم ، وابتدعتم بدعة

لم يسبقكم إليها أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وفررتم من محذور إلى محذور ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ثم قولكم : إنه معنى واحد ، هو مدلول لجميع العبارات ، مكابرة للعقل والشرع فإنا نعلم – بالاضطرار – أنه ليس معنى آية الكرسى ، هو معنى آية الدّين ، ولامعنى « تبت يدا أبى لهب » هو سورة الإخلاص .

والتوراة إذا عربناها لم تصر هى القرآن العربي الذي جاء به محمد .

وكذلك إذا ترجمنا القرآن بالعبرية ، لم يكن هو توراة موسى .

وقول من قال منكم إنه حروف ، أو حروف وأصوات أزلية ، ظاهر الفساد .

فإن الحروف متعاقبة ، فيسبق بعضها بعضاً ، والمسبوق بغير، لايكون قديمًا لم يزل والصوت المعين لايبقى زمانين ، فكيف يكون قديمًا أزليًا ؟

والسلف والأئمة لم يقل أحد منهم بقولكم ، لكن قالوا : إن الله تكلم بالقرآن وغيره من الكتب المنزلة ، وإن الله نادى موسى بصوت سمعه موسى بأذنه ، كما دلت على ذلك النصوص .

ولم يقل أحد منهم : إن ذلك النداء الذي سمعه موسى قديم أزلى ، ولكن قالوا : إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء وكيف شاء ، لأن الكلام صفة كمال لاصفة نقص ، وإنما تكون صفة كمال إذا قام به ، لا إذا كان مخلوقًا بائنًا عنه ، فإن الموصوف لايتصف إلا بما قام به ، لايتصف بما هو بائن عنه ، فلايكون الموصوف حيًا عالمًا قادرًا متكلما رحيمًا مريدًا ، بحياة قامت بغيره ، ولايعلم وقدرة قامت بغيره ، ولا بكلام ورحمة وإرادة قامت بغيره .

والكلام بمشيئة المتكلم وقدرته أكمل ممن لايكون بمشيئته وقدرته .

وأما كلام قائم يقوم بذات المتكلم بلامشيئته وقدرته ، فإما أنه ممتنع أو هو صفه

نقص ، كما يدعى مثل ذلك في المصروع .

وإذا كان كمالا ، فدوام الكمال له وأنه لم يزل موصوفًا بصفات الكمال ، أكمل من كونه صار متكلمًا بعد أن لم يكن ، لو قدر أن هذا ممكن ، فكيف إذا كان ممتنعا ؟

وكان أئمة السنة والجماعة ، كلما ابتدع في الدين بدعة ، أنكروها ولم يقروها ولهذا حفظ الله دين الإسلام ، فلايزال في أمة محمد طائفة هادية مهذبة ظاهرة منصورة .

بخلاف أهل الكتاب ، فإن النصارى ابتدعوا بدعًا خالفوا بها المسيح ، وقهروا من خالفهم ممن كان متمسكا بشرع المسيح ، حتى لم يبق حين بعث الله محمداً من هو متمسك بدين المسيح ، إلا بقايا من أهل الكتاب كما قال النبى صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح (١) : « إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » .

فلما أظهر قوم من الولاة أن القرآن مخلوق ودعوا الناس إلى ذلك ، ثبّت الله أئمة السنة وجمهور الأمة ، فلم يوافقوهم ، وكان المشار إليه من الأئمة إذ ذاك أحمد بن حنبل .

ثم بقى ذلك القول المحدث ، ظاهرًا ، نحو أربعة عشر سنة وأئمة الأمة وجمهورها ينكرونه ، حتى جاء من الولاة من منع ، من إظهاره والقول به ، فصار مخفيا كغيره

---

(١) « صحيح » من رواية « عياض بن حِمَار »

رواه مسلم في كتاب « الجنة » باب « الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار »

(٤ / ٢١٩٧ : ٢١٩٨ ح ٢٨٦٥)

ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « فضائل القران »

باب « قراءة القرآن على كل الأحوال » (٥ / ٢٦ ح ٨٠٧٠) ، (٥ / ٢٦ ٢٧ ح ٨٠٧١)

ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٤ / ١٤٥ - ١٤٦ ح ١٠٧٩) ورواه أحمد (٤ / ١٦٢)

من البدع ، وشاع عند العامة والخاصة أن القرآن كلام الله غير مخلوق .

فأراد بعض الناس أن يجيب عن شبهة من قال : إن هذا الذي يقوم بنا مخلوق . فقال : القرآن كلام الله غير مخلوق ولكن ألفاظنا به مخلوقة ، وتلاوتنا له مخلوقة . وربما قالوا : هذا الذي نقرؤه مخلوق ، أو هذا ليس هو كلام الله ، فقصدوا معنى صحيحا ، وهو كون صفات العباد وأصواتهم وأفعالهم مخلوقة .

لكن غلطوا حيث أطلقوا القول أو أفهموا الناس بأن هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون مخلوق ، ولم يهتدوا إلى أنا إذا أشرنا إلى كلام متكلم قد بلغ عنه فقلنا : مثلاً لما رُوي (١) عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى » : هذا كلام رسول الله ، أو لقول الشاعر :

---

(١) « رواه الجماعة » من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه

رواه البخاري في كتاب « بدء الوحي » باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١ / ١٥ ح ١)

ورواه أيضًا برقم (٥٤ ، ٢٥٢٩ ، ٣٨٩٨ ، ٥٠٧٠ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣)

ورواه مسلم في كتاب « الإمارة » باب قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنية » (٣ / ١٥١٥ - ١٥١٦ ح ١٩٠٧)

ورواه أبو داود في كتاب « الطلاق » باب « ما عنى به الطلاق والنيات » (٦ / ٢٨٤ - ٢٨٥ ح ٢١٨٦)

ورواه الترمذي في كتاب « فضائل الجهاد » باب « ما جاء من يقاتل رياء للدنيا » (٥ / ٢٨٣ - ٢٨٤ ح ١٦٩٨)

وقال : « هذا حديث حسن صحيح »

ورواه النسائي في كتاب « الطهارة » باب « النية في الوضوء » (١ / ٥٨ : ٦٠)

كما رواه (٦ / ١٥٨ ، ١٥٩) ، (٧ / ١٣)

ورواه أيضًا في الكبرى (١ / ٧٩ - ٨٠ ح ٧٨)

ورواه أيضًا برقم (٥٦٣٠ ، ٤٧٣٦)

ورواه ابن ماجه في كتاب « الزهور » باب « النية » (٢ / ١٤١٣ ح ٤٢٢٧)

« ألا كل شيئ ما خلا الله باطل » . هذا كلام لبيد بن ربيعة ، ونحو ذلك .

فإنا نشير إلى نفس الكلام معانيه ونظمه وحروفه ، لا إلى مايختص بالمبلغ من حركته وصوته ، بل ولا صوت المبلغ عنه وفعله .

فإن كون الحيّ متحركا أو مصوتا ، قدر مشترك بين الناطق والأعجم وليس هذا صفة له .

والكلام التي يتميز بها الناطق عن الأعجم ، وإنما يتميز بالمعاني القائمة به وباللفظ المطابق لها من الحروف المنظومة بالأصوات المقطعة .

وهذا أمر يختص به المتكلم بالكلام ، لا المبلغ عنه ، فليس الجميع إلا تأدية ذلك .

ولهذا لو قال قائل لشعر لبيد « ألا كل شيئ ما خلا الله باطل » . فقال : هذا شعرى أو كلامى لكونه أنشده بصوته ، لكذبه الناس .

ولو قال : هذا الذي أقوله ؛ مثل شعر لبيد لكذبه الناس ، وقالوا : بل هو شعره نفسه ، ولكن أديته بصوتك .

بخلاف ما إذا قال قائل قولا نظما أو نثراً ، وقال آخر مثله ، فإن الناس يقولون : هذا مثل قول فلان ، كما قال تعالى ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٨] وقال عن القرآن ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٨] .

ولهذا لو قال قارئ : أنا آتى بقرآن مثل قرآن محمد وتلاه نفسه وقال : هذا مثله لأنكر الناس ذلك وضحكوا منه ، وقالوا : هذا القرآن الذي جاء به هو ، ليس هو كلام مماثل له .

فإذا كان القرآن الذي يقرؤه المسلمون ، هو كلام الله الذي بلغه الرسول لم يجز أن يقال : ليس بكلام الله ، بل هو مثله ، أو حكاية عنه ، أو عبارة .

وإذا كان معلومًا إنما هو كلام الله ، فقد تكلم به سبحانه ، لم يخلقه بائنا عنه ، ولم يجز أن يقال لما هو كلامه : إنه مخلوق .

فإذا قيل عن مايقرؤه المسلمون : إنه مخلوق والمخلوق بائن عن الله ، ليس هو كلامه ، فقد جعل مخلوقا ليس هو بكلام الله ، فصار الأمة يقولون : هذا كلام الله ، وهذا غير مخلوق ، لايشيرون بذلك إلى شئ من صفات المخلوق ، بل إلى كلام الله الذي تكلم به وبلغه عنه رسوله .

والمبلغ إنما بلغه بصفات نفسه ، والإشارة في مثل هذا ، يراد بها الكلام المبلغ ، لايراد بها مابه وقع التبليغ .

وقد يراد بهذا ، الثاني مع التقييد كما في الاسم إذ قيل : عبدت الله ، ودعوت الله فليس المراد أن المعبود المدعو ، هو الاسم الذي هو اللفظ ، بل المعبود المدعو هو المسمى باللفظ ، فصار بعضهم يقول الاسم هو غير المسمى ، حتى قيل لبعضهم : أقول دعوت الله ، فقال : لاتقل هكذا ، ولكن قل دعوت المسمى بالله ، وظن هذا الغالط أنك إذ قلت ذلك ، فالمراد دعوت هذا اللفظ ، ومثل هذا يرد عليه اللفظ الثاني فما من شئ عبر عنه باسم ، إلا والمراد بالاسم هو المسمى ، فإن الأسماء لم تذكر إلا لبيان المسميات ، لا أن الاسم نفسه هو ذات المسمى .

فمن قال : إن اللفظ المسمى والمعنى القائم بالقلب هو عين المسمّى ، فغلطه واضح .

ومن قال : إن المراد بالاسم في مثل قولك : دعوت الله وعبدته ، هو نفس اللفظ ، فغلطه واضح . ولكن اشتبه على الطائفتين مايراد بالاسم ونفس اللفظ .

كذلك أولئك اشتبه عليهم نفس كلام المتكلم المبلغ عنه الذي هو المقصود بلفظ المبلغ أو كتابته بنفس صوت المبلغ ومداده .

والفرق بين هذا وهذا ، واضح عند عامة العقلاء .

وإذا كتب كـاتب اسم الله في ورقة ، ونطق باسم الله في خطابه وقـال قائل : أنا كافر بهـذا ومؤمن بهذا ، كان مفـهوم كلامه أنه مؤمن أو كافـر بالمسمى المراد باللفظ والخط ، لا أنه يؤمن ويكفر بصوت أو مداد .

فكذلك من قال لما يسمعه من القرآء ولما يكتب في المصاحف : إن هذا كلام الله .

أو قال لما يسمع من جميع المبلغين لـكلام غيرهم ولما يوجد في الكتب : هذا كلام الله ، فليس مـرادهم ذلك الصـوت والمداد ، وإنما هو المعنى واللفظ الذي بلغـه زيد بصوته وكتب في القرطاس بالمداد .

فإذا قيل عن ذلك : إنه مخلوق ، فقد قيل : إنه ليس كلام الله ، ولايتكلم به .

ومن قصد نفس الصوت أو المداد ، وقال : إنه مخلوق ، فقد أصاب ، كما أن من قـصد نـفس الصوت أو الخـط وقال : ليس هذا هـو كلام الله بـل هو مخلـوق ، فقـد أصاب ، ولكن ينبغي أن يبين مراده بلفظ - لا لَبْسَ فيه .

فلهـذا كان الأئمـة كأحـمـد بن حنبل وغيـره ؛ ينكرون على من أطلق القـول بأن اللفظ بالقـرآن مـخلوق ؛ أو غـير مـخلوق ، ويقـولون : من قـال : إنه مخـلوق فهـو جهمي ، ومن قـال : إنه غير مخلوق فهـو مبتدع ، ومن قال : إنه مـخلوق هنا ، فقد يقولون : ليس هو كلام الله ، وهذا خلاف المتواتر عن الرسول ، وخلاف مايعلم بمثل ذلك بصريح المعقول .

فإن الناس يعلمـون - بعقولهم - أن من بلغ كـلام غيره ، فـالكلام كلام المبلغ عنه الذي قاله مبتديا أمراً بأمره مخبراً بخبره ، لا كلام من قاله مبلغًا عنه مؤديًا .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول في المواسم : (١) « ألا رجل يحملنى

---

(١) « صحيح » من رواية « جابر بن عبد الله »

رواه أبو داود في كتاب « السنة » باب « في القرآن » (١٣ / ٥٩ ح ٤٧٠٨)

ورواه الترمذي في كتاب « ثواب القرآن » باب « ما جاء كيف كانت قـراءة النبي صـلى الله =

إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » رواه أبو داود وغيره عن جابر .

ولما نزل الله تعالى ﴿ الٓمٓ ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ ، [الروم : ١- ٣] .

قال بعض الكفار لأبي بكر الصديق : هذا كلامك أو كلام صاحبك ؟ قال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكنه كلام الله .

فلهذا اشتد به إنكار أحمد بن حنبل وغيره من أئمة الإسلام ، وبالغ قوم في الإنكار عليهم وقالوا : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، وأطلقوا عبارات تشعر أن يكون شئ من صفات العباد غير مخلوقة ، فأنكر ذلك أحمد وغيره ، كما أنكر ذلك ابن المبارك ، وإسحاق بن راهويه ، والبخاري وغير هؤلاء من أئمة السنة ، وبينوا : أن الورق والمداد وأصوات العباد وأفعالهم مخلوقة ، وإن كان كلام الله الذي يحفظه العباد ويقرؤنه ويكتبونه غير مخلوق .

فكلام أئمة السنة والجماعة كثير في هذا الباب ، متفق غير مختلف وكله صواب ولكن قد يبين بعضهم في بعض الأوقات مالايبينه غيره لحاجته في ذلك .

فمن ابتلى بمن يقول : ليس هذا كلام الله كالإمام أحمد ، كان كلامه في ذم من يقول : هذا مخلوق ، أكثر من ذمه لمن يقول : لفظي مخلوق .

ومن ابتُلىَ بمن يجعل بعض صفات العباد غير مخلوق ، كالبخاري صاحب

= عليه وسلم » (٨ / ٢٤٢ - ٢٤٣ ح ٣٠٩٣)
وقال « هذا حديث حسن صحيح غريب »
ورواه ابن ماجه في « المقدمة » باب « فيما أنكرت الجهمية » (١ / ٧٣ ح ٢٠١)
ورواه أحمد (٣ / ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٩٠)
وانظر الصحيحة رقم (١٩٤٧)

الصحيح ، كان كلامه في ذم من يجعل ذلك غير مخلوق أكثر مع نص أحمد والبخارى وغيرهما ، على خطأ الطائفتين .

فصل

قال سعيد بن البطريق : وليس حلول كلمة الله الخالقة والتحامها بجوهر الناسوت ، عن انتقال ولاتغير ولا احتيال من واحد من الجوهرين عن كثافة ، فلا الإلهى احتال عن أن يكون إلهًا خالقًا ، ولا الناسى احتال عن أن يكون ناسيًا مخلوقًا .

والاحتيال والتغير ، إنما يلزم الخلطة إذا كانت من خلقين ثقيلين غليظين ، مثل الماء والخمر، أو الماء والعسل ، أو السمن والعسل ، والذهب والورق والنحاس والرصاص وما أشبه ذلك . لأن كله ثقيل غليظ ، وكل ثقل تخالطه ثقله لامحالة ، يلزمه التغير حتى يصير إلى ماكانت عليه الأثقال ، فلا الخمر خمرًا ، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما - ولكنهما احتالا جميعًا عن جوهرهما ، فصارا إلى أمر متغير ، ليس هو أحدهما بعينه ، ولا أحدهما خالص من الفساد والاحتيال عن حاله .

فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيف وخلق غليظ ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال ، مثل خلطة النفس والجسد إنسانًا واحدًا ، أحدهما ملتحمًا بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت ، أي استحالت عن جوهرها ، أن تكون نفسًا تعرفها بفعالها ولا الجسد تغير ولا احتال عن حاله وأفعاله ، ومثل ماكان تخالط النار والحديد ، فيلتحمان جميعًا ، فيكونان جمرة واحدة ، من غير أن تكون النار قد تغيرت إلى أن تكون حديدة ثقيلة وتشج وتقطع ، ولا الحديدة تغيرت واحتالت إلى أن تكون نارًا تحرق فكذلك تفعل كل خلطة مؤلفة من شيئين مختلفين ، أحدهما روحاني لطيف ، والآخر ثقلى غليظ ، مثل النفس والجسد والنار والحديد ، ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة ، فهى لاتتغير ولاتحتال عن نورها ونقائها وضوئها ، مع مخالطتها كل سواد وسخ ، ونتن ونجس .

قال : والخلطة تكون على ثلاثة أوجه .

أحدها : خلطة باختلاط من الطبيعتين الثقيلتين واحتيالهما وفسادهما ، مثل خلطة الخمر والماء ، والخل والعسل ، والذهب والورق ، والرصاص و النحاس ، فإن في ذلك كله وما أشبهه ، احتيالا وفساداً ، لأن مزاج الخمر والماء ، ليس بخمر ولاماء ، لاحتيال كل واحد منهما عن طبعه ، واختلاطهما بفسادهما ، وتغيرهما عن حالهما وكذلك خلطة الخل والعسل ، قد صارت لاخلاً ولا عسلاً ، لاحتيال كل واحد منهما ، وخلطة الذهب والورق على مثل ذلك صارت على غير صحة ، لامن الذريب ولامن الورق ، وخلطة الورق والنحاس على غير صحة ، لامن الورق ولا من النحاس . فهذا وجه من الوجوه الثلاثة .

والوجه الثاني :- خلطة افتراق من الطبيعتين الثقيلتين ، وقد تعرف من تلك الخلطة كل واحدة من الطبيعتين ثابتة في الأخرى ، بقوامها ووجهها ، مثل الزيت والماء في قنديل واحد ، ومثل الكتان والقز في ثوب واحد منسوج بكتان مضلع بقز ، ومثل صنم نحاس ، رأسه من ذهب ، وما أشبه ذلك ، مما لاينبغى أن يسمى خلطه مع افتراق الطبيعتين والقوامين ، مثل مالاينبغى أن يكون بين الماء والقلة التي هو فيها خلطة . لأن طبيعة القلة فخار ، قوامها قلة ، وليس بينها وبين الماء خلطة ، بل أشد الفرقة .

وكذلك الماء والزيت ، لولا أن وعاء القنديل الذي هما فيه ضمهما مااجتمعا .

وكذلك الكتان والقز ، ليس بينهما خلطة ، وإن كانا في ثوب واحد ولابين الذهب والنحاس ولم يسبكا خلطة؛ وإن جمعهما صنم واحد .

فهاتان الخلطتان لاتكونان أبدًا إلا في أثقال جسمانيات غليظة .

فإن التحم بعضها ببعض مثلما يذاب الذهب والنحاس ويفرغان جميعًا ، وقعت في وجه خلطة الاحتيال والفساد ؛ لأن تلك النقرة ليست بذهب صحيح ولابنحاس

صحيح .

فإن لم تلحم وألزم بعضها بعضًا ؛ مثل طوق يكون من نحاس وذهب ، وقعت من وجه خلطة الافتراق التي لايحق لها أن تسمى خلطة .

وفي هذين الوجهين ، وقع نسطورس وأشياعه ، فلزموا خلطة الاحتيال والفساد. فزعموا أن الطبيعة الإلهية ، والطبيعة الناسية اختلطا في المسيح الواحد . فهو ذو قوام واحد بطبيعة واحدة ، مختلطة من طبيعتين مختلفتين إلهية وناسية ، فأقروا أنهما قد احتالا ، والاحتيال فساد .

وألزموا على هذا القول الكافر ، طبيعة الله المصائب والموت ، وصيروا المسيح لا إلهًا صحيحًا ، ولا إنسانًا ، مثل نقرة الذهب والنحاس .

فنسطورس وأشياعه لزموا خلطة الفرقة والانقطاع ، فزعموا : أن المسيح الواحد ذو طبيعتين مختلفتين ، إلاهية وناسية ، وذو قوامين معروفين ، إلهى ، وناسى ، فسيروا الفرقة خلطة ، كالطوق الملون نصفين ، أحدهما ذهب ، والآخر نحاس ، والثوب المبطن ، ظاهره خز ، وباطنه قطن ، ليس بينهما خلطة في طبيعة ولا قوام .

وليس لهم - على هذا - أن يؤمنوا بمسيح واحد ، لأن الطوق الملون طوقان والثوب المبطن ثوبان .

فالمسيح مثل ذلك ، مسيحان ، واحد إلهى بطبيعته وقوامه ، مثل قضيب الذهب في الطوق الملون ، ومثل ظهارة الخز في الثوب المبطن .

والآخر ناسي ، مثل قضيب النحاس في الطوق ، وبطانة القطن في الثوب .

والعجب كل العجب كيف لم يفصل أهل الخلاف والشقاق بين الصنفين كليهما ، ولم يفهموا أن هاتين الخلقتين أنهما خلقتان ذواتا أثقال جسمانية غليظة ، ليس فيهما شئ من الخلق الروحاني اللطيف الخفيف ؛ ولذلك لاتقدر الأثقال الغليظة على الخروج

من هذين الوجهين من وجوه الخلطة ، لأنهما إن اختلطا خلطة ملتحمة ممتزجة ، صارت إلى احتيال وفساد ، وإن قامت على حالها ، لاتلتحم ، ولايمتزج بعضها ببعض ، فهى على وجه خلطة الافتراق ، ومنقطعة بعضها من بعض . وإن جمعها صنم واحد أو ثوب واحد ، فليس يوجد لشئ من الأثقال الجسمانية وجه خلطة ، سوى هذين الوجهين أبدًا ، إما فساد ، وإما انقطاع ، إلا أن تكون الخلطة في اثنين ، أحدهما ثقيل جسمانى ، والآخر لطيف روحاني ، فإن ذلك هو الوجه الثالث من الخلطة ، وهي خلطة الحلول بلا اختلاط ولا احتيال ، ولافسا د ولا فرقة ولا انقطاع ، لكنها نفاذ الطبيعة الروحانية في الطبيعة الثقيلة السفلية حتى تنتشر في جميعها وتحل بكلها ، فلا يبقى موضع من الطبيعة الثقيلة السفلية خِلْوًا من الطبيعة الروحانية ، ولا احتيال من الثقيلة الجسمانية عن طبيعتها الغليظة الثقيلة ولاتغيير ولافساد لإحداهما ، مثل خلطة النفس والجسد ، ومثل خلطة النار والحديد في قوام جمرة واحدة ، فهى جمرة واحدة بالقوام من طبيعة نار ملتحمة ، مخالطة لطبيعة الحديدة بلا فرقة من انقطاع ، ولا تخليط احتيال وفساد ، وقد انتشرت النار في جميع الحديدة ولبستها ، وأنالت النار الحديدة من قوامها وقوتها حتى أنارت الحديدة وأحرقت ، ولم تنل النار من ضعف الحديدة شيئًا من السواد ولا البرودة .

فعلى هذا الوجه من الخلطة دبرت كلمة الله الخالقة خلطتها للطبيعة البشرية .

فهو مسيح واحد ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الأدهار ، كلها نور من نور إله حق من إله حق ، مولود ليس بمخلوق من سوس أبيه وجوهره وطبيعته ، وهو إياه من مريم العذراء المولود منها في آخر الزمان بقوام واحد ، قوام ابن الله الوحيد الجامع للطبيعتين كلتيهما ، الإلهية التي لم تزل في البدء قبل كل بدء ، والناسية التي كونت في آخر الزمان المقوم بالقوام الأزلى .

فهو مسيح واحد ، بقوام واحد أزلى ذو طبيعتين : إلهية لم تزل ، وناسية خلقها له والتحم بها من مريم العذراء ، فقوامه ذلك ، قوام الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسية ،

جامعًا لهما بلا اختلاط ، ولا فساد ، ولافرقة انقطاع ، لم يزل قوام الطبيعة الإلهية ، ثم هو قوام الطبيعة الناسية ، قد خلقها وكونها وقومها بقوامه ، الذي لم يزل يقيم إلا به ولم يعرف الإله .

والجواب عن هذا الكلام بعد أن يقال : إنه تناقض ، فجعل هذا تارة اختلاطًا ، وتارة يقول : ليس هو اختلاطًا أن يقال : إنه – أولا – قد يجعل هذا الحلول والالتحام اختلاطًا ، ويقول : إنه لايكون فيه استحالة ولاتغير ، ويقول : الاستحالة والتغير إنما يلزم الخلطة ، إذا كانت من خلقتين غليظتين كالماء والخمر. فأما إذا كانت من لطيف وكثيف لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال – أي استحالة – ويقول : والخلطة تكون على ثلاثة أوجه ، ثم يقول : أحدها كالخمر والماء ، والثانى كالزيت والماء ، والكتان والقز . ثم يقول : وما أشبه ذلك مما لاينبغى أن يسمى خلطه مع افتراق الطبيعتين فيجعله من أقسام الخلطة . ثم يقول : ولاينبغى أن يسمى خلطة .

وليس المقصود المنازعات اللفظية ، بل يقول : دعواه أن أخذ نوعى الاختلاط يكون عن تغير واستحالة ، بخلاف النوع الآخر الذي هو اختلاط لطيف وغليظ ، دعوى ممنوعة ، ولم يقم عليها دليلا ، بل يقول : هي باطلة ، بل لايكون الاختلاط بين شيئين إلا مع تغير واستحالة .

وما ذكره من الأمثال والشواهد ، فهى حجة عليه لقوله : « فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيف وخلق غليظ ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال ، مثل خلطة النفس والجسد إنسانًا واحدًا ، أحدهما ملتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت عن جوهرها ، أن تكون نفسًا تعرفها بفعالها ولا الجسد تغير واستحال عن حاله وفعاله » .

فيقال : هذا قول باطل ظاهر البطلان لكل من تصوره ، فإن الجسد إذا خلا عن النفس ، مثل مايكون قبل نفخ الروح فيه ، ومايكون بعد مفارقة الروح له بالموت ،

بل آدم عليه السلام أبو البشر ، خلق من تراب وماء ، وصار صلصالا كالفخار ، ثم نفخت فيه الروح فسار جسداً هو لحم وعظم وعصب ودم .

فهل يقول عاقل : إن جسد آدم قبل النفس وبعدها على صفة واحدة لم يتغير ولم تستحل ، وذريته من بعده يخلق أحدهم من نطفة ثم علقة ثم مضغة ، فيكون جسداً ميتًا ، ثم ينفخ فيه الروح ، فيصير الجسد حيًا بعد أن كان ميتاً ؟

وأى تغيير أعظم من انتقال الجسد من الموت إلى الحياة ؟!

ومعلوم بالحس والعقل ، والفرق بين الحي والميت ، كما قال تعالى ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ [فاطر : ٢٢] والجسد إذا لم ينفخ فيه الروح فهو موات ليس له حس ولاحركة إرادية ، ولايسمع ولايبصر ، ولاينطق ولايعقل ، ولا يبطش ولايأكل ، ولايشرب ، ولايمنى ، ولاينكح ، ولايتفكر ، ولايحب ولايبغض ، ولايشتهي ولايغضب .

فإذا اتصلت به النفس وتغيرت أحواله واستحالت صفاته ؛ وصار حساساً متحركا بالإرادة ، فكيف يقال مثل خلطة النفس والجسد إنسانًا واحداً ، أحدهما يلتحم بالآخر ، من غير أن تكون النفس تغيرت واستحالت عن جوهرها ، أن تكون نفساً يعرفها بفعالها ، ولا الجسد تغير ولا استحال عن حاله وأفعاله ؟

فهل يقول عاقل يتصور مايقول : إن الجسد كان حاله وفعاله مع مفارقة النفس له ، كحاله وفعاله مع مخالطتها له ؟

وهل يقول عاقل : إن الجسد بعد موته ومفارقة النفس له ، حاله وفعاله ، كحاله وفعاله إذا كانت النفس مختلطة به ، وهو إذا مات ، كالجماد لايسمع ولايبصر ، ولاينطق ولايبطش ولايمشى ، قد جمد دمه واسود ، ولم يبق سائلا وتغيرت صحته ولونه ؟ وتغير الجسد بالحياة بعد الموت ، وبالموت بعد الحياة ، من أعظم التغيرات والاستحالات .

وكذلك النفس ، فإن النفس – عند اتصالها بالبدن – تتلذذ بلذته ، وتتألم بألمه . فإذا أكل البدن ، وشرب ونكح واشتم ، التذّتِ النفس . وإذا ضُرِبَ البدن ، وصُفِعَ وأهِينَ ، وحُطَّ الشوك على رأسه وبُصِقَ في وجهه ، تألمت النفس بذلك .

فإذا شبهوا اتحاد الرب بالمسيح باتحاد النفس بالبدن ، وهم يقولون : إن المسيح وكل أحد إذا ضُرِبَ وَصُفِعَ وصُلِبَ فتألم بدنه ، تألمت نفسه أيضًا .

فإن كان الألم مع نفس المسيح وجسده ، كالنفس مع الجسد ، وجب أن يكون الرب يتألم بتألم الناسوت ، ويجوع بجوعه ، ويشبع بشبعه ، فإن ألم الجوع ولذة الشبع ، يحصل للنفس إذا جاع البدن وشبع .

وأيضًا فالمسيح عندهم إله تام وإنسان تام ، والإله إله قبل الاتحاد ، والإنسان إنسان قبل الاتحاد .

فهم يقولون : إنهما بعد الاتحاد إله تام كما كان ، وإنسان تام كما كان .

فنظير هذا أن يكون الإنسان المركب من بدن ونفس ، نفسًا تامة وبدنا تامًا ، وأن تكون الحديدة المحماة ، حديدًا تامًا ، ونارًا تامة ، وهو باطل . بل الإنسان مركب من نفس وبدن ، والإنسان اسم للمجموع ، ليس الإنسان روحًا والإنسان بدنًا .

فلو كان الاتحاد حقًا ، لوجب أن يقال : إن المسيح نصفه لاهوت ونصفه ناسوت ، وهو مركب من هذا وهذا .

لايقال : إن المسيح نفسه إنسان تام ، والمسيح نفسه إله تام ، فإن تصور هذا القول على الوجه التام يوجب العلم الضروري ، حيث جعلوا المسيح الذي هو المبتدأ ، الموضوع المخبر عنه المحكوم عليه ، هو إنسان تام وهو إله تام ، يوجب أن يكون نفس الإنسان هو نفس الإله .

ولو قيل هذا في مخلوقين ، فقيل : نفس الملك نفس البشر ، لكان ظاهر البطلان ،

فكيف إذا قيل في رب العالمين ؟! لاسيما وكثير من النصارى لايقولون : إن جسد المسيح مخلوق ، بل يصفون الجميع بالإلهية ، وهذا مقتضى قول أئمتهم القائلين : إن المسيح إله تام لكنهم تناقضوا فقالوا - مع ذلك : هو إنسان تام ، فكأنهم قالوا : هو الخالق ليس هو الخالق ، هو مخلوق ، ليس هو مخلوقًا ، فجمعوا بين النقيضين وهذا حقيقة قول النصارى ، لاسيما واتحاد اللاهوت بناسوت المسيح - عندهم - اتحاد لازم لم يفارقه ألبتة ، فيكون ذلك أبلغ من الاتحاد العارض ، ومن أن الرب كان متحداً بجسد لاروح فيه ، وثم بالجسد مع نفخ الروح فيه ، ثم بالجسد بعد مفارقة الروح له ، وحيث دفن في القبر ووضع التراب عليه .

ومعلوم أن الإنسان إذا كانت فيه النفس وجعل في التراب ، تألمت النفس ألمًا شديداً ، ثم تفارق البدن .

ومن العجائب أنهم يقولون : إن المسيح صُلِبَ ومات ، ففارقته النفس الناطقة ، وصار الجسد لاروح فيه ، واللاهوت - مع هذا - متحد لم يفارقه وهو في القبر ، واللاهوت متحد به ، فيجعلون اتحاده به أبلغ من اتحاد النفس بالبدن .

والنفس - عند اتصالها بالبدن - تتغير وتتبدل صفاتها وأحوالها ، ويصير لها من الصفات والأفعال مالم يكن بدون البدن ، وعند مفارقة البدن تتغير صفاتها وأفعالها .

فإن كان تمثيلهم مطابقًا ، لزم أن يكون الرب قد تغير أوصافه وأفعاله لما اختلط بالمسيح ، كما تتغير صفات النفس وأفعالها ، ويكون الرب قبل هذا الاختلاط ، كالنفس المجردة التي تقترن ببدن .

وأيضًا فالنفس والبدن شريكان في الأعمال الصالحة والفاسدة لهما الثواب عليهما العقاب ، والثواب والعقاب على النفس أكمل منه على البدن فإن كان الرب كذلك ، كان جميع مايفعله المسيح باختياره فعل الرب ، كما أن جميع مايفعله البدن باختيار

فعل النفس ، فالنفس هي التي تخاطب بالأمر والنَهْيٌ ، فيقال لها : كُلِي واشْرَبِي وانكحى ، ولاتأكلى ولاتشربى ولاتنكحى .

فإن كان الرب مع الناسوت كذلك ، كان الرب هو المأمور والمنهى بما يؤمر به المسيح ، وكان الرب هو المصلى الصائم العابد الداعى ، وتبطل قولهم :

يخلق ويرزق بلاهوته ، ويأكل ويعبد بناسوته .

فإن النفس والبدن لما اتحدا كانت جميع الأفعال الاختيارية للنفس والبدن .

فإذا صلى الإنسان وصام ودعا ، فالنفس والبدن يوصفان بذلك جميعًا ، بل النفس أخص بذلك ، وكذلك إذا أمر أو نهى . فكلاهما موصوف بذلك ، وكذلك إذا ضرب ، فألم الضرب يصل إليهما كما تصل إليهما لذة الأكل والجماع بل أبلغ من ذلك أن الجنيٌ إذا دخل في الإنسي وصرعه وتكلم على لسانه ، فإن الإنسيٌ يتغير ، حتى يبقى الصوت والكلام الذي يسمع منه ، ليس هو صوته وكلامه المعروف .

وإذا ضرب بدن الإنسى فإن الجنى يتألم بالضرب ويصيح ويصرخ ويخرج منه من ألم الضرب ، كما قد جرب الناس من ذلك مالا يحصى ، ونحن قد فعلنا من ذلك مايطول وصفه .

فإذا كان الجنىٌ تتغير صفاته وأحواله لحلوله في الإنسى ، فكيف بنفس الإنسان .

وعندهم اتحاد اللاهوت بالناسوت أتم وأكمل من اتحاد النفس بالجسد .

فهل يقول عاقل – مع هذا الاتحاد – : إنهما جوهران ، لكل منهما أفعال اختيارية ، لايشركه الآخر فيها ؟!

ويقولون – مع قولهم بالاتحاد : إن الذي كان يصلى ويصوم ويدعو ويتضرع ويتعلم ويتألم ويضرب ويصلب ، هو نظير البدن ، والذي كان يأمر وينهى ويخلق ويرزق ، هو نظير النفس .

هذا مع قولهم : إن مريم ولدت اللاهوت مع الناسوت ، وإنه اتحد به مع كونه حيًا وقبل حياته وعند مماته ، والجسد في ذلك كله كسائر أجساد الآدميين ، لم يظهر فيه شئ من خصائص الرب أصلا ، بل ولابعد إتيانه بالآيات ، فإن تلك كان يجرى مثلها وأعظم منها على يد الأنبياء ، فهذا أقرب أمثالهم وقد ظهر فساده .

وأبعد منه وأشد فسادًا ، تمثيلهم ذلك بالنار والحديد .

ومعلوم عند كل من له خبرة ، أن النار إذا اتصلت بشئ من الأجسام الحيوانية والنباتية والجمادية ، مثل جسد الإنسان وغيره ، ومثل الخشب والقصب والقطن وغيره ، ومثل الحديد والذهب والفضة ، فإنها تغير ذلك الجسد وتبدل صفاته عما كانت ، فتحرقه أو تذيبه أو تلينه ، والنار المختلطة به لاتبقى نارًا محضة بل تستحيل وتتغير أيضًا .

فقول هؤلاء : « ومثل ماتختلط النار والحديد فيلتحمان جميعًا ، فيكونان جمرة واحدة من غير أن تكون النار تغيرت إلى أن تكون حديدة ثقيلة تشج وتقطع ، ولا الحديدة تغيرت واستحالت إلى أن تكون نارًا تحرق » كلام باطل ملبس ، فإن الجمرة ليست حديدة محضة ولانارًا محضة ، بل نوع ثالث .

وقوله : « لم تتغير النار إلى أن تصير حديدة ، ولا الحديدة إلى أن تصير نارًا » تلبيس .

فإن الاختلاط لايتضمن الاستحالة ، والتغير ، كاختلاط الكثيفين الذي سلمه ، مثل الماء والخمر . والماء والعسل ، والسمن والعسل ، والذهب والوَرِق ، والنحاس والرصاص قد قال فيه : إنه لا الخمر خمر ، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما ولكنهما استحالا جميعًا عن جوهرهما ، فصارا إلى أمر متغير ليس هو أحدهما بعينه ، ولا أحدهما خالص من الفساد والاستحالة عن حاله .

فيقال له : فهذا الذي سلمت فيه الفساد والاستحالة ، لم يصر الخمر فيه ماء ، ولا

الماء له خمراً ، فكذلك مورد النزاع إذا لم تصر النار حديدة ولا الحديدة ناراً ، لم ينفعك هذا النفي ، ولم يكن هذا مانعاً من الاستحالة إلى نوع ثالث ومن الاستحالة والفساد ، كما ذكرته في اختلاط الكثيفين ، فإنه معلوم أن ماخالطته النار واتحدت به ، غيّرتُه وأحالته وأفسدت صورته الأولى . والنار الملتحمة به ليست ناراً محضة .

ومعلوم أيضاً أن الجمرة التي ضربتها مثلاً للمسيح فقلت : إن الله وعيسى اتحدا كاتحاد النار والحديد حتى صارا جمرة ، فمعلوم أن الجمرة إذا ضربت بالمطرقة أو وضعت في الماء ، أو مُدَّتْ ، فإن هذه الأفعال تقع بالمجموع لاتقع على حديدة بلا نار ، ولا نار بلا حديدة .

فيلزم من ذلك أن يكون ماحلَّ بالمسيح من ضَرْبٍ وبصاق في الوجه ، ووضع الشوك على الرأس ، ومن أكل وشرب وعبادة ، ومن مَشْيٍ وركوب ، ومن حمل وولادة ، وغير ذلك مما حل بالمسيح ، ومن موتٍ ، إما متقدم ، وإما متأخر إذا نزل إلى الأرض ، ومن صلب - على قولهم - : أن يكون جميع ذلك حلَّ بالمسيح الذي هو عندهم إله تام وإنسان تام ، من غير فرق بين لاهوته وناسوته ، كما يكون مايحل بجمرة النار ، من حمل ووضع وطرق بالمطرقة ، ومَدّ وتصوير بشكل مخصوص ، والقاء في الماء وغير ذلك حالٌّ بمجموع الجمرة ، لايقول عاقل : إن ذلك يحل بالحديد دون النار ، بل هو حالٌّ بالجمرة المستحيلة من حديدة ونار ، ومن خشبة ونار ، ليست حديدة محضة ، ولا ناراً محضة ، ولامجموع حديد محض ، ونار محضة ، بل جوهر ثالث مستحيل من حديد ونار كسائر مايستحيل بالاتحاد والاختلاط إلى حقيقة ثالثة .

فلا فرق بين الشيئين إذا اتحدا واختلطا وصارا شيئاً واحداً من أن يكونا كثيفين ، أو أن يكون أحدهما كثيفاً والآخر لطيفاً ، لابد في ذلك كله أن يحصل لكل منهما من التغير والاستحالة مايوجب الاتحاد ، وأن يكون المتحد المختلط المركب منهما شيئاً ثالثاً ، وليس هو أحدهما فقط ، ولا هو مجموع كل منهما على حاله .

فقولهم : « إنه مع الاتحاد إنسان تام وإله تام » كلام فاسد معلوم الفساد بصريح العقل.

وكلما ضربوا له مثلاً ، كان المثل حجة على فساد قولهم ، بل مع الاتحاد ليس بإنسان تام ولا إله تام ، لكنه شيء ثالث مركب من إنسان ثالث ، استحال وتغير ، وإله استحال وتغير .

وإذا كان كل من هذين باطلاً - بل إنسانية المسيح باقية تامة كما كانت لم تستحل ولم تتغير ، ورب العالمين باقٍ بصفات كماله ، لم يستحل ولم يتصف بشيء من خصائص المخلوقات ، ولا استحال عما كان عليه قبل ذلك - كان قولهم ظاهر الفساد .

فهذا مثلهم الثاني الذى ضربوه لله حيث شبهوا المسيح أو الله مع الإنسان بالنفس مع الجسد ، وشبهوه بالنار مع الحديد ، وهذا المثل أشد فساداً وأظهر .

وأما المثل الثالث - وهو تمثيل ذلك بالشمس مع الماء والطين - فهو أشد فساداً ، فإنهم قالوا كما تقدم : « ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة ، فهى لاتتغير ولاتستحيل عن نورها وبقائها وضوئها ، مع مخالطتها كل سواد ووسخ ونتن ونجس » .

فيقال : أما جرم الشمس الذي في السماء فلم يخالط شيئًا من الماء والطين ، ولا اتحد به ولا حلَّ فيه بوجه من الوجوه ، بل بينهما من البعد مالا يقدر قدره إلا الله ، والله تعالى أجل وأعظم وأبعد من مخالطة الإنسان من الشمس للماء والطين .

فإذا كانت الشمس نفسها لم تتحد ولم تختلط ، ولا حلَّت في الماء والطين ، بل ولا بغيرها من المخلوقات . فَرَبُّ العالمين أولى أن ينزه عن الاتحاد والاختلاط والحلول بشيء من المخلوقات .

ولكن شعاع الشمس حلَّ بالماء والطين والهواء وغير ذلك مما يقوم به الشعاع ،

كما يحل شعاع النار في الأرض والحيطان ، وإن كان نفس جرم النار القائم بنفسه الــذي في ذبالة المصباح هو جوهر قائم بنفسه ، لم تحل ذاته في شئ من تلك المواضع .

ولفظ الضياء والنور ونحو ذلك ، يراد به الشئ القائم بنفسه المستنير ، كالشمس والقمر وكالنار ، قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ﴾ ، [سورة يونس : ٥] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ ، [النبأ : ١٣] وسمى سبحانه الشمس سراجًا وضياء ، لأن فيها – مع الإنارة والإشراق – تسخينًا وإحراقًا ، فهى بالنار أشبه ، بخلاف القمر فإنه ليس فيه – مع الإناره – تسخينًا فلهذا قال : (جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) [يونس : ٥]

والمقصود هنا أن لفظ الضياء والنور ونحو ذلك ، يراد به الشئ المستنير المضئ القائم بنفسه ، كالشمس والقمر والنار ، ويراد به الشعاع الذي يحصل بسبب ذلك من الهواء والأرض ، وهذا الثانى عرض قائم بغيره ليس هو الأول ، ولاصفة قائمة بالأول ، ولكنه حادث بسببه .

فالشعاع الذي هو الضوء والنور الحاصل على الماء والطين والهواء وغير ذلك ، هو عرض قائم بغيره ، وليس هو متحداً به ألبتة .

فهذا المثل لو ضربته النسطورية ، الذين يقولون « إن الناسوت واللاهوت جوهران بطبيعتين ، حل أحلهما بالآخر » لكان تمثيلاً باطلاً ، فإن الشمس لم تحل بغيرها ، ولا صارت مشيئتها ومشيئة غيرها واحدة كما تقوله النسطورية ، بل شعاعها حلَّ بغيره ، والشعاع حادث وكائن عنها .

فإذا قيل : إن مايكون عن الرب من نوره وروح قدسه وهداه وكلامه ومعرفته ، يحل بقلوب أنبيائه والمؤمنين من عباده ، ومثّل ذلك بحلول الشعاع بالأرض ، كان أقرب إلى العقول ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره

كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة) ، [النور : ٣٥] قال أُبَيُّ بن كعب : مثل نوره في قلوب المؤمنين بهذا (١) .

وماجاء في بعض الكتب المتقدمة أن الله يحل في قلوب الصديقين . فهذا معناه . وهو حلول معرفته والإيمان به ومثاله العلمى ، كما بسط في غير هذا الموضع .

وكذلك إذا قيل : نوره أو هداه أو كلامه وسمى ذلك روحًا ، يحل في قلوب المؤمنين ، فهو بهذا الاعتبار ، والله قد سمى ذلك روحًا فقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : ٥٢] وقال تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ ، [غافر : ١٥] وقال تعالى : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وما جاء في الكتب المتقدمة من أن روح الله أو روح القدس يحل في الأنبياء والمؤمنين . فهو حق بهذا الاعتبار .

وإذا قيل : كلام الله يحل في قلوب القارئين . فهو حق بهذ الاعتبار .

وأما نفس مايقوم بالرب ، فلا يتصور أن يقوم هو نفسه بغير الرب ، بل مايقوم بالمخلوق من الصفات والأعراض ، يمتنع أن يقوم هو نفسه بغيره .

فيمتنع في صفات الشمس القائمة بها ، من شكلها واستدارتها ، وماقام بها من نور أو غيره ، أن يقوم بغيرها ، وكذلك ماقام بجرم النار من حرارة وضوء ، فلايقوم بغيرها ، بل إذا جاورت النار هواء أو غير هواء ، حصل في ذلك المحل سخونه أخرى غير السخونة القائمة بنفس النار ، تسخن الهواء الذي يجاوره ، كما تسخن القدْر الذي يوقد تحتها النار فيسخن ثم يسخن الماء الذي فيها ، مع أن سخونة النار باقية

١- انظر الدر المنثور للسيوطي (٤٨/٥)

فيها ، وسخونة القدر باقية فيها ، وسخونة الماء به سخونة أخرى حصلت في الماء ، ليست واحـدة مـن تينك ، وإن كانت حادثة عنهـا ، وجنس السخـونة يجمع ذلك كله .

ولهذا ذكـر الإمام أحمـد عن السلف أنهم كرهوا أن يتكلم في حـلول كلام الله في العباد بنفي أو إثبات ، فإن لـفظ « الحلول » لفظ مجمل يراد به معنى باطل ، ويراد به معنى حق .

وقد جـاء في كلام الأنبياء لفظ « الحلول » بالمعـنى الصحيح ، فتـأوله من في قلبه زيغ ، كالنصـارى وأشباههم عن المعنى الباطل ، وقـابلهم آخرون ، أنكروا هذا الاسم بجميع معانيه ، وكلا الأمرين باطل .

وقد قدمنا أن الناس يقـولون : أنت في قلبي ، أو ساكن في قلبي ، وأنت حالٌ في قلبي ونحـو ذلك ، وهم لايريدون أن ذاته حلـت فـيـه ، ولكن يريـدون أن تصـوره وتمثله وحبه وذكره حل في قلبه ، كما تقدم نظائر ذلك .

والمقـصود هنا أن النسطورية لو شبـهوا مـايدعونه من اتحاد وحلول بالشعـاع مع الطين ، كان تمثيلهم باطلا ، فكيف بالملكية الذين هم أعظم باطلا وضلالا بقولهم : « ومثل الشمس المخالطة للطين والماء وكل رطوبة وحمأة » تمثيل باطل من وجوه .

منها : أن الشمس نفسها لم تتحد ولم تحل بغيرها ، بل ذلك شعاعها .

ومنها : أن الشعاع نفسه لم يتحد بالماء والطين ، ولكن حل به وقام به .

ومنها : أن ذلك عام فـي المخلوقات من وجه وبعباده المؤمنـين من وجه ، لايختص المسيح به ، فالمخلوقات كلهـا مشتركة في أن الله خلقها بمشيئته وقدرته ، وأنه لاقوام لها إلا به ، فلا حول ولاقـوة إلا به ، وهي كلها مفتقرة إليه ، محـتاجة إليه ، مع غناه عنها ، ولهذا كانت من آيات ربوبيته وشواهد إلهيته .

ومن سماها ، مظاهر ، ومجالى ، بمعنى أن ذاته نفسها يظهر فيها ، فهو مفتر على الله . ومن أراد بذلك أنه أظهر بهـا مشيئتـه وقدرته وعلمه وحكمتـه ، فأراد بالمظاهر والمجالى مايراد بالدلائل والشواهد ، فقد أصاب .

وكذلك إذا قال : هى آثاره ومقتضى أسمائه وصفاته .

وأما المؤمنون فإن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته ونوره وهداه يحل في قلوبهم وهو المثل الأعلى والمثل العلمى ، فلا اختصاص للمسيح بهذه . وكذلك كلامه في قلوب عباده المؤمنين ، لا اختصاص للمسيح بذلك .

ومنها :- أن الشعـاع لم يخالط الماء والطين ، ولايخالط شيئًا من الأعيان ولاينفذ فيـه ولايتحد به ، بـل يكون على سطحـه الظاهر فقط لكن الشـعاع يسـخن مايحل فيه ، فإذا سـخن ذلك ، سخن جوفه بالمجاورة ، كما يسـخن الماء بسخونة القدر من غير أن تكون النار خالطت القدر ، ولا الماء .

فـأين هذا من قـولـهم : « إن الله رب العـالمين اتحـد بابـن امـرأة ، فـصـار إلهًا تامًا وإنسانًا تامًا ؟ » .

وهل يقول عاقل : إن الماء والطين صار شعاعًا تامًا ، وطينًا تامًا ؟! بل الطين طين ، لكن أثر الشعاع فيه بتجفيفه ، لم يتحد به الشعاع ، ولانفذ فيه ، ولاحلَّ في باطنه .

فهذا المثل أبعـد عن مذهبهم من تمثيلهم بالنار مع الحـديد ، ومن تمثيلهم بالنفس مع الجسـد ، فإن هناك اتصـالا بباطن الحـديد والبدن ، وهنا لم يتـصل الشعـاع إلا بظاهر الطين وغيره .

وأيضا فالنفس جوهر قائم بنفسه ، والشعاع عرض ، وكذلك النار جوهر فالشمس هنا لم تتحد ولم تحل بالطين ، بل شعاعـها ، ولا يوصف الطين باتحاده بالشعاع ، ولا باختلاط الشعاع بباطنه ، ولا بحلول الشمس نفسها فيه

وحينئذ فقول القائل: « إن الشمس لم تتغير ولم تستحل عن نورها ونقائها وضوئها مع مخالطتها كل وسخ ونتن ونجس » . إن أريد به نفس الشمس أو صفاتها القائمة بها ، فتلك لم تتحد بغيرها ، ولاحلت فيه ولاقامت بغيرها .

فإذا كانت الشمس كذلك - ولله المثل الأعلى - فهو أولى أن لايتحد بغيره ولايحل فيه ولايقوم به .

وإن أريد شعاعها فشعاعها ليس هو الشمس ، فلا ينفعهم التمثيل به ، فإنهم يقولون : إن الله نفسه اتحد بالمسيح ، والمسيح - عندهم - هو رب العالمين مع إنه إنسان تام ، فهو - عندهم - إله تام إنسان تام والطين ليس بشعاع تام ، والشعاع نفسه لايخالط شيئًا ، ولكن يقوم به ، وقيام العرض بالمحل غير مخالطته له ، فإن المخالطة تكون باختلاط كل من الأمرين بالآخر ، كاختلاط الماء بالطين ونحو ذلك .

وأما مايقوم بالسطح الظاهر فلا يقال : إنه مخالط بجميع الأجزاء . فلا يقال للشعاع الذي على الجبال والبحر : إنه مخالط لجميع الجبال والبحر ، ولا لشعاع النار : إنه مخالط للحيطان وداخل للأرض ، وقد تقدم أنهم قسموا هذا الباب ثلاثة أقسام :

أحدها : اختلاط أحد الشيئين بالآخر كالماء والخمر .

والثانى : اتصال من غير اختلاط. كالماء والزيت وكالإناء الذي بعضه فضة وبعضه ذهب : وقالوا : إن هذا لاينبغى أن يسمى اختلاطا مع افتراق الطبيعتين والقوامين . مثل مالاينبغى أن يكون بين الماء والقلة التي هو فيها خلطة ، لأن طبيعة الفخار ليس بينها وبين الماء خلطة .

وهو الفرق موجود في الشعاع والطين ، بل بينهما من الفرق أشد مما بين الماء والقلة ، فإن الماء جرم قائم بنفسه ، وهذا عرض قائم بغيره ، والجسم بالجسم أشبه من الجسم بالعرض .

والإله - عندهم - مخالط لجميع ناسوت المسيح ، لم يخل جزء منه من اتحاد الإله به ، فأين هذا من هذا ؟

وإذا قيل : إن الشعاع لم يستحل عن نوره ونقائه وضوئه مع مخالطته كل سواد ووسخ ونتن ونجس ، لم يكن مثلا يطابقه ، مع أنه لم يخالط الشعاع غيره .

ثم يقال : إن أراد بما لم يتغير نفس الشعاع القائم بالمحل ، فهذا ممنوع ، فإن الشعاع يتغير بتغير محله ، فيرى في الأحمر أحمر ، وفي الأسود أسود ، وفي الأزرق أزرق ، حتى إن الزجاج المختلف الألوان إذا صار مطرحًا للشعاع ، ظهر الشعاع متلونًا بتلون الزجاج ، فيرى أحمر وأزرق وأصفر .

وقد ضرب أهل الإلحاد القائلون بوحدة الوجود ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق لله أمثالاً باطلة شر من أمثال النصارى ، ولهم مثل السوء ، ولله المثل الأعلى ، وكان مما ضربوه لله من الأمثال أن شبهوه بالشعاع في الزجاج .

فالأعيان الثابتة في العدم - عندهم - هي الممكنات ، ووجود الحق فاض عليها ، فشبهوا وجوده بالشعاع ، وأعيانها بالزجاج ، وهذا باطل من وجوه .

منها : أن القول بأن أعيان الممكنات ثابتة في العدم قول باطل .

ومنها : أن قولهم : إن وجود الخالق هو عين وجود المخلوق ، هو أيضًا باطل .

ومنها : أن حلول الشعاع بالزجاج يقتضي حلول أحدهما بالآخر ، وهم ينكرون الحلول ، ويقولون : الوجود واحد .

ومنها : أن الشعاع الذى على نفس الزجاج ، ليس وجوده وجود الزجاج ، وعندهم وجود الرب وجود الممكنات .

ومنها : أن الشعاع الحالّ بهذا الزجاج ليس هو بعينه ذلك الشعاع الحال بالزجاج الآخر وإن كان نظيره ، وهؤلاء عندهم أن الوجود واحد بالعين لايتعدد .

ومنها :- أن الشعاع عرض مفتقر إلى الزجاج ، فهو مفتقر إليه افتقار العرض إلى محله ، فيلزم إذا مثلوا به الرب أن يكون الرب مفتقراً إلى كل ماسواه ، مع غنى كل ماسواه عنه ، وهذا قلب كل حقيقة ، وأعظم كفراً بالخالق تعالى فإنه سبحانه الغنى عن كل ماسواه ، وكل ماسواه مفتقر إليه .

وكل من قال بحلول الله في شئ من المخلوقات من النصارى وغيرهم يلزمهم أن يكون مفتقراً إلى ماحل فيه ، فإنه لاحقيقة للحلول إلا هذا .

ولهذا كان ماحل بقلوب المؤمنين من الإيمان والهدى والنور والمعرفة مفتقراً إلى قلوب المؤمنين ، لايقوم إلا بها .

وجميع الصور الذهنية القائمة بالأذهان مفتقرة إلى الأذهان لاتقوم إلا بها ، والشعاع مفتقر إلى محله . لايقوم إلا به . وهكذا سائر النظائر .

وهؤلاء الذين شابهوا النصارى وزادوا عليهم من الكفر بقولهم : إن وجود الخالق وجود كل مخلوق . وإنه قائم بأعيان الممكنات . يقولون : إنه مفتقر إلى الأعيان في وجوده . وهى مفتقرة إليه في ثباتها . فيجعلون الخالق محتاجاً إلى كل مخلوق . والمخلوق محتاجاً إلى الخالق . ويصرحون بذلك كما يصرح بعض النصارى ، بأن اللاهوت محتاج إلى الناسوت ، والناسوت محتاج إلى اللاهوت .

ومعلوم أن الله غنى عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه من كل وجه . فهو الصمد المستغنى عن كل شئ ، وكل شئ مفتقر إليه .

فمن قال : إنه مفتقر إلى مخلوق بوجه مّا . فهو كاذب مفتر كافر فكيف بمن قال : إنه مفتقر إلى كل شئ ؟!

والمثل الذي ضربوه له ، يقتضى أن يكون مفتقراً إلى غيره ، وغيره مستغن عنه ، كالمثل الذي ضربه النصارى له ، لما مثلوه بشعاع الشمس مع محله ، فإن محل الشعاع مستغن عن الشعاع ، والشعاع مفتقر إلى محله .

فمقتضى هذا التمثيل أن الإله محتاج إلى الإنسان ، والإنسان مستغن عن الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً ﴾ ، [الإسراء : ٤٤] .

فصل

وهذا الذي قد ذكره هذا البترك « سعيد بن البطريق » المعظم عند النصارى ، المحب لهم ، المتعصب لهم في أخبارهم ، التي بيَّن بها أحوالهم في دينهم ، معظما لدينهم ، مع مافي بعض الأخبار من زيادة فيها تحسين لما فعلوه ، وكثير من الناس ينكر ذلك ويكذبه ، مثل ماذكره من ظهور الصليب ، ومن مناظرة أريوس وغير ذلك ، فإن كثيراً من الناس يخالفه فيما ذكر ، ويذكر أن أمر ظهور الصليب كان بتدليس وتلبيس وحيلة ومكر ، ويذكر أن أريوس لم يقل قط . إن المسيح خالق .

ولكن المقصود أنه إذا صدق هذا فيما ذكره ، فإنه بين أن عامة الدين الذي عليه النصارى ليس مأخوذاً عن المسيح ، بل هو مما ابتدعه طائفة منهم وخالفهم في ذلك آخرون ، وأنه كان بينهم من العداوة والاختلاف في إيمانهم وشرائعهم مايصدق قوله تعالى ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [المائدة : ١٤] .

والنصارى يقرون بما ذكره هذا البترك أن أول ملك أظهر دين النصارى هو قسطنطين ، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، وهو نصف الفترة التي بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، فإنها كانت ستمائة سنة ، أو ستمائة وعشرين .

وإذا كان النصارى مقرين بأن ماهم عليه من الإيمان صنعه طائفة منهم مع مخالفة

آخرين لهم فيه ليس منقولا عن المسيح ، وكذلك ماهم عليه من تحليل ماحرمه الله ورسوله ، وكذلك قتال من خالف دينه وقتل من حرم الخنزير ، مع أن شريعة الإنجيل تخالف هذا ، وكذلك الختان ، وكذلك تعظيم الصليب .

وقد ذكروا مستندهم في ذلك أن قسطنطين رأى صورة صليب كواكب .

ومعلوم أن هذا لايصلح أن ينبنى عليه شريعة ، فإن مثل هذا يحصل للمشركين عباد الأصنام والكواكب ماهو أعظم منه ، وبمثل هذا بُدِّل دين الرسل وأشرك الناس بربهم ، وعبدوا الأوثان فإن الشيطان يخيل هذا وأعظم منه .

وكذلك الإزار الذي رآه من رآه ، والصوت الذي سمعه ، هل يجوز لعاقل أن يغير شرع الله الذي بُعِثَتْ به رسله ، بمثل هذا الصوت والخيال الذي يحصل للمشركين عبَّاد الكواكب والأصنام ماهو أعظم منه ؟ مع أن هذا الذي ذكروه عن « بطرس » رئيس الحواريين ، ليس فيه تحليل كل ماحرمه بل قال : « ماطهره الله فلا تنجسه » وما نجسه الله في التوراة فقد نجسه ولم يطهره ، إلا أن ينسخه المسيح والحوارى لم يبح لهم الخنزير وسائر المحرمات إن كان قوله معصومًا كما يظنون .

والمسيح صلى الله عليه وسلم لم يحل كل ماحرمه الله في التوراة وإنما أحل بعض ماحرم عليهم ، ولهذا كان من الأوصاف المؤثرة في قتال النصارى . كما قال تعالى ﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتو الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [التوبة : ٢٩] .

وقد ذكر من لعنة بعض طوائف النصارى لبعض في مجامعهم السبعة وغير مجامعهم مايطول وصفه ، ويصدق قوله تعالى : ﴿ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ [المائدة : ١٤] وحينئذ فقول هؤلاء . « من خالفنا لعناه » كلام لافائدة فيه ، فإن كل طائفة منهم لاعنة ملعونة .

فليس في لعنتهم لمن خالفهم إحقاق حق ولا إبطال باطل وإنما يحق الحق بالبراهين والآيات التي جاءت بها الرسل كما قال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، [البقرة : ٢١٣] .

وقد تقدم ماذكره سعيد بن البطريق من أخبارهم أنه كان يأتي البترك العظيم منهم إلى كنيسة مبنية لصنم من الأصنام ، يعبده المشركون ، فيحتال حتى يجعلهم يعبدون مكان الصنم مخلوقًا أعظم منه ، كملك من الملائكة أو نبى من الأنبياء . كما كان بالإسكندرية للمشركين كنيسة فيها صنم اسمه « ميكائيل » فجعلها النصارى كنيسة باسم ميكائيل الملك ، وصاروا يعبدون الملك بعد أن كانوا يعبدون الصنم ، ويذبحون له .

وهذا نقل لهم من الشرك بمخلوق إلى الشرك بمخلوق أعلى منه ، أولئك كانوا ينون الهياكل ويجعلون فيها الأصنام بأسماء الكواكب ، كالشمس والزهرة وغير ذلك .

فنقلهم المبتدعون من النصارى إلى عبادة بعض الملائكة أو بعض الأنبياء .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، [آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلايملكون كشف الضر عنكم ولاتحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان

محذورا ﴾ ، [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] .

فصـــل

وقد حـصل بما ذكرناه الجـواب عن قولهم : « وعلى هذا المثـال نقول : في السـيد المسيح طبيعتان : طبيعة لاهوتية التي هي طبـيعة كلمة الله وروحه ، وطبيعة ناسوتية التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به » .

وعرف أن هذا قول من أقوال النصارى ، وأن لهم أقوالا أخر تناقض هذا .

وكل فـريق منهم يكـفـر الآخر إذ كـانوا لـيسـوا عـلى مـقالـة تلقـوها عن المسيح والحواريين ، بل هي مقالات ابتدعها من ابتدعـها منهم ، فضلوا بها وأضلوا كما قال تعـالى : ﴿ قل يا أهل الكتـاب لا تغلوا في دينكم غيـر الحق ولاتتـبعـوا أهواء قوم قـد ضلوا من قـبل وأضلوا كـثيـرا وضلوا عن سـواء السبيـل ﴾ ، [المائدة : ٧٧] فذكـر سبحانه أنهم ضلوا من قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وأيضًا فإنه يلزمهم الضلال الذي أصله الجهل .

ولايوجد قط مـن هو نصراني باطنًا وظاهرًا إلا وهو ضـال جاهل بمعبوده وبأصل دينه ، لايعـرف من يعبـد ، ولابماذا يعبد ، مع اجـتهـاد من يجـتهـد منهم في العبـادة والزهد ومكارم الأخلاق .

ثم يقـال على هؤلاء قـولهم « طبيعـتان » ويقولون أيضًا : « له مـشيئتـان ويقولون أيضًا : « إنه شخص واحـد لم يزد عدده » فإنهم يقولون « إنهـما اتحدا » كمـا ذكروه في كتابهم هذا . لايقولون بشخصين لئلا يلزمهم القول بأربعة أقانيم .

ومنهم من يقول « هما جوهران » ومنهم من يقول « هو جوهر واحد » .

فإن قالوا « هو جوهر واحـد » صار قولهم من جنس قول اليعقوبيـة ، لاسيما وهم يقـولون : « إن مريم ولدت اللاهـوت والناسوت ، وإن المسيح اسم يجـمع اللاهوت

والناسوت ، وهو إله تام وإنسان تام »

فإذا كان جوهراً واحداً لزم ذلك أن يكون اللاهوت قد استحال وتغير ، وكذلك الناسوت ، فإن الاثنين إذا صارا شيئًا واحداً فذلك الشئ الثالث ليس هو إنسانًا محضًا ، ولا إلهًا محضًا ، بل اجتمعت فيه الإنسانية والإلهية .

ومع أنه قد كان الإنسان والإله اثنين متباينين - وهما في اصطلاحهم - جوهران ، فإذا صار الجوهران جوهراً واحداً ، لاجوهرين ، فقد لزم ضرورة ، أن يكون هذا الثالث ليس هو إلهًا محضًا ولا إنسانًا محضًا ، ولاهو جوهران إنسانًا وإلهًا ، فإن هذين جوهران لاجوهر واحد ، بل هو شئ ثالث ، اختلط وامتزج واستحال من هذا وهذا ، فتبدلت حقيقة اللاهوت وحقيقة الناسوت حتى صارهذا الجوهر الثالث الذي ليس لاهوتًا محضًا ولاناسوتا محضًا كسائر مايعرف من الاتحاد .

فإن كل اثنين اتحدا فصارا جوهراً واحداً ، فلابد في ذلك من الاستحالة في اتحاد الماء واللبن والخمر ، وسائر مايختلط بالماء ، بخلاف الماء والزيت فإنهما جوهران كما كانا ، لكن الزيت لاصق الماء وطفا عليه لم يتحد به ، ومثل اختلاط النار والحديد ، فإن الحديد استحال عما كان ولهذا إذا بُرِّدَ عاد إلى ماكان . وهكذا اتحاد الهواء مع الماء والتراب حتى يصير بخاراً أو غباراً ، وأمثال ذلك .

وفي الجملة فجميع مايعرفه الناس من الاتحاد إذا صار الاثنان واحدا وارتفعت الثنوية ، فلابد من استحالة الاثنين .

وإذا قيل : فيه طبيعة الاثنين ، ومشيئة الاثنين كما في الماء واللبن قوة الماء وقوة اللبن .

قيل : لابد - مع ذلك - أن تتغير كل قوة عما كانت عليه فتنكسر الأخرى ، كما يعرف في سائر صور الاتحاد ، إذا اتحد هذا مع هذا كسر كل منهما قوة الآخر عما كانت عليه .

كما إذا اتحد الماء البارد بالماء الحار انكسرت قوة الحر وقوة البرد عما كانت ، فيبقى المتحد مرتبة متوسطة بين البرد المحض والحر المحض .

وكذلك الماء واللبن وسائر صور الاتحاد .

وعلى هذا ، فيجب إذا اتحد أن تتغير قوة اللاهوت وطبيعته ومشيئته ، عما كانت وتنكسر قوة الناسوت وطبيعته ومشيئته عما كانت عليه ، ويبقى هذا المتحد ممتزجا من لاهوت وناسوت ، وذلك يستلزم نقص اللاهوت عما كان وبطلان كماله ، كما أنه يوجب من كمال الناسوت مالم يكن .

فكل مايصفون به الناسوت من اتحاد اللاهوت به فهو مستلزم من نقص اللاهوت وسلب كماله الذي يختص به ، وبطلان صفاته التامة بحسب ماحصل له من ذلك الناسوت بحكم الاتحاد ، وإلا فإن كان اللاهوت كما كان ، فلا اتحاد بوجه من الوجوه ، بل الناسوت كما كان .

ثم هما اثنان لم يتحد أحدهما بصاحبه ولاصارا شيئًا واحدا .

وأيضًا فمع كون الجوهر واحدًا يجب أن تكون مشيئته واحدة ، وطبيعته واحدة فإنه لو كان مشيئتان ، لكل محل إحدى المشيئتين ، إن كان هو محل للأخرى مع تضاد موجب المشيئتين ، لزم اجتماع الضدين في محل واحد .

فإن الإرادة الناسوتية ، تطلب الأكل والشرب ، وأن تعبد وتصوم وتصلى .

واللاهوتية : توجب امتناعه من إرادة هذه الأشياء .

وإرادته أن يخلق ويرزق ويدبر العالم . والناسوتية تمتنع من هذه الإرادة .

فإذا قامت الإرادتان والكراهتان بمحل واحد ، لزم أن يكون ذلك الجوهر الموصوف بهذا وهذا مريدًا للشئ ممتنعًا من إرداته غير مريد له كارهًا للشئ غير كاره له ، وذلك جَمعٌ بين النقيضين من وجوه متعددة .

ويمتنع أن يقوم بالموصوف الواحد إرادتان جازمتان بالشئ ونقيضه ، أو كراهيتان جازمتان للشئ أو نقيضه ، والفعل لايقع إلا بإرادة جازمة مع القدرة . فاللاهوت ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومتى شاء شيئًا مشيئته جازمة ، فإنه على ماشاء قادر .

والناسوت لايفعل شيئًا من خصائص البشرية حتى يريد ذلك إرادة جازمة .

والناسوت يمتنع أن يريد إرادة اللاهوت ويكره ذلك ، فيصير الشئ الواحد مريدا للشئ إرادة جازمة ، قادراً عليه ليس مريداً له إرادة جازمة ، بل هو عاجز عنه .

ويلزم أيضًا إذا كانا جوهراً واحدا ، وقد ولد وصُفعَ وضُرِبَ وصُلِبَ ، ومات ، وتألم أن تكون نفس اللاهوت ضرب وصلب ومات وتألم ، كما تقوله اليعقوبية ، وهذا لازم لجميع النصارى وهو موجب عقيدة إيمانهم .

فإن قالوا : بل هما جوهران مع كونهما عندهم شخصاً واحدا لاتتعدد فيه ، كما يقوله من يقوله من الملكية ، كان هذا كلاماً متناقضاً .

فإن الشخص الواحد الذى لاتعدد فيه ، جوهر واحد ، ولهذا حُدَّ بأنه جسم .

وإن شبهوا ذلك بالنفس مع الجسد ، لزمهم المحذور .

فإن الإنسان كما يقال فيه : إنه شخص واحد يقال : إنه جوهر واحد ، بما بينهما من الاتحاد ، ولهذا يُحَدُّ بأنه جسم حساس : نام ، متحرك بالإرادة ، ناطق ، هذا يتناول جسده وروحه ، وللنفس والبدن مشيئة واحدة .

ومتى شاء الإنسان الفعل مشيئة جازمة مع قدرته عليه فعله ولم يكن معه جوهر آخر له مشيئة غير مشيئته .

فإذا شبهوا اتحاد اللاهوت بالناسوت بهذا ، لزمهم أن يكونا جوهراً واحداً ، ومشيئة واحدة ، وهذا قول اليعقوبية .

ولهذا تتألم النفس بما يحدث في الجسد من الآلام ويتألم الجسم الذي هو القلب الصنوبري بما يحدث في النفس من الآلام ، فإذا تألمت النفس تألم قلب الجسد وغير قلب الجسد ، وكذلك إذا تألم الجسد ، وإذا صفع الجسد وصلب وصفع وبصق في وجهه ، ووُضع الشوك عليه وتألم ومات ، كان ذلك كله حالاً بالنفس ، ونالها من إهانة الصفع وألم النزع ماينالها ، كما يسلمون لله أنه حلّ بنفس المسيح وبدنه ، فإنهم لايتنازعون أن الإله حل ببدن المسيح ونفسه ، وإنما يتنازعون في اللاهوت ، مع النفس مفارقة للبدن بالموت .

واللاهوت – عندهم – لم يفارق الناسوت بالموت ، بل صعد إلى السماء .

والمسيح الذي هو إله تام وإنسان تام ، يقعد عن يمين أبيه ، وكذلك يجئ يوم القيامة .

وأيضًا فالبدن إذا كانت فيه النفس ، تتغير صفاته وأحكامه . وتختلف أحواله . باجتماعها وافتراقها .

والنفس إذا كانت في البدن تختلف صفاتها وأحكامها .

فيلزم أن يكون ناسوت المسيح مخالفًا في الصفات والأحكام لسائر النواسيت ، وأن يكون اللاهوت لما اتحد به ، تغيرت صفاته وأحكامه وهذا هو الاستحالة والتغير والتبدل للصفات ، مع أن ناسوت المسيح كان من جنس نواسيت البشر ، لم يظهر عليه إلا ماظهر مثله على غيره ، بل ظهر على غيره من خوارق العادات أكثر مما ظهر عليه .

وبالجملة فأى مثلٍ ضربوه للاتحاد ، كان حجة عليهم ، وظهر به فساد قولهم .

وإن قالوا : هذا أمر لايعقل ، بل هو فوق العقول ، كان الجواب من وجهين .

أحدهما : أنه يجب الفرق بين مايعلم العقل بطلانه وامتناعه ، وبين مايعجز العقل

عن تصوره ومعرفته .

فالأول : من محالات العقول ، والثاني من محارات العقول ، والرسل يخبرون بالثاني .

وأما الأول :- فلا يقوله إلا كاذب ، ولو جاز أن يقول هذا ، لجاز أن يقال : إن الجسم الواحد يكون أبيض أسود في حال واحدة ، وإنه - بعينه - يكون في مكانين ، وإن الشئ الواحد يكون موجودا معدومًا في حال واحدة ، وأمثال ذلك مما يعلم العقل امتناعه .

وقول النصارى مما يعلم بصريح العقل أنه باطل ، ليس هو مما يعجز عن تصوره .

يوضح هذا ، أنه لو قال قائل في مريم أم المسيح « امرأة الله وزوجته» فإنه نكحها نكاحًا عقليًا كما يقولون : إن المسيح وَلدهُ وِلادة عقلية ، لم يكن هذا القول أفسد في العقل من قولهم في المسيح ، كما قد بسطناه في موضعه ، وهم يكفِّرون من يقول ذلك ، ويحتجون بالعقل على فساده .

وإذا قال : « هذا فوق العقل » لم يقبلوه ، وكذلك كل طائفة من طوائفهم احتجت على الأخرى بالعقل .

وإذا قالوا : « قولنا فوق العقل » لم يقبلوا هذا الجواب .

فإن كان هذا الجواب صحيحًا ، فيجب أن لايبحث في شئ من الإلهيات بالعقل بل يقول كل مبطل ماشاء من الباطل ، ويقول : كلامى فوق العقل كما يقوله أصحاب الحلول والاتحاد والوحدة ، والذين يقولون : إن وجود الخالق وجود المخلوق ، ويقولون : إن هذا فوق العقل ، وإنما نعلم بالذوق لا بالسمع ولا بالعقل .

الوجه الثاني : - أن يقال مايعجز العقل عن تصوره إذا أخبرت به الأنبياء عليهم السلام قُبِلَ منهم لأنهم يعلمون مايعجز غيرهم من معرفته .

وهذه الأقوال لم يقل الأنبياء شيئًا منها ، بل نفس فرق النصارى قالوها بآرائهم ، وزعموا أنهم استنبطوها من بعض ألفاظ الكتب .

فيقال لمن قالها منهم : أنت تتصور ما تقول أم لا تتصوره وتفهمه وتعقله ؟.

فإن قال : لا أتصور ما أقول ولا أفهمه ولا أعقله ، قيل له : فقد قلت على الله ما لا تعلم ، قفوت ما ليس لك به علم .

ومن أعظم القبائح المحرمة فى جميع الشرائع أن يقول الإنسان برأيه على الله قولاً لا يتصوره ولا يفهمه .

وجميع العقلاء يعلمون أن من قال قولا وهو لا يتصوره ولا يفقهه فإن قوله مردود عليه غير مقبول منه ، وإن قوله من الباطل المذموم .

وإن قال قائلهم : إنى أفقه ما أقول وأتصوره وأعقله ، قيل له بينه لغيرك حتى يفقهه ويعقله ويتصوره ، ولا تقل : « هو فوق العقل ، بل هو قول قد عقلته وفهمته » وهذا تقسيم لا محيد لهم عنه .

فإنهم إن كانوا يفقهون ما يقولون ويعقلونه ، لزم أن يكون معقولا .

وإن كانوا لا يفقهونه ولا يعقلونه ، لزم أنهم قالوا على الله ما لا يفقهونه ولا يعقلونه ، قولا برأيهم وعقلهم ، ولا نقلا لألفاظ الأنبياء ، فإن من نقل ألفاظ الأنبياء الثابتة عنهم ، لم يكن عليه أن يفقه ويعقل ما يقول .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم (١) : « نضر الله امرءًا ، سمع منا حديثًا فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فقد يحفظ الرجل كلاما ، فيبلغه غيره وهو لا يفقه معناه ولا يعقله .

فمن نقل لفظ التوراة أو الإنجيل أو القرآن أو ألفاظ سائر الأنبياء ، لم نطالبه ببيان

(١) « صحيح » ورد هذا الحديث عن زيد بن ثابت

رواه أبو داود في كتاب « العلم » باب « فضل نشر العلم » (١٠/٩٤ – ٩٥ ح ٣٦٤٣) =

معناه .

بخلاف من ادّعى أنه فهم ماقاله الأنبياء وعبّر عن ذلك بعبارة أخرى ، فإنه يقال له : إن كنت فهمت ماقالوه ، فهو معنى واحد ، عبّروا عنه بعبارة ، عبّرتَ عنه بعبارة أخرى ، كالترجمان ، فهذا يعقل مايقول ويفقهه .

وإن قال : إنى لم أفهم كلامهم ، أو لم أفهم ماقلته ، فقد اعترف بجهله وضلاله وأنه من الذين لم يفهموا كلام الأنبياء عليهم السلام ، ولم يفقهوا ماقالوه هم .

فلو قالوا : لم نفهم كلام الأنبياء وسكتوا ، لكانوا أسوة أمثالهم من الجهال بمعاني كلام الأنبياء .

وأما إذا وضعوا عبارة وكلامًا ابتدعوه ، وأمروا الناس باعتقاده وقالوا: هذا هو الإيمان والتوحيد : وقالوا : إنا – مع هذا – لانتصور ماقلناه ولانفقهه ولانعقله ، فهؤلاء من الذين يقولون على الله مالا يعملون ، ويفترون على الله وعلى كتب الله

= ورواه الترمذي في كتاب « العلم » باب « في الحث على تبليغ السماع » (٧ / ٤١٥ ـ ٤١٦ ح ٢٧٩٤) وقال : « وفي الباب عن عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وجبير بن مطعم وأبي الدرداء وأنس وحديث زيد بن ثابت حسن »

ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « العلم » باب « الحث على إبلاغ العلم » (٣ / ٤٣١ ح ٥٨٤٧)

ورواه ابن ماجه في « المقدمة » باب « من بلغ علما » (١ / ٨٤ ح ٢٣٠)

٢ ـ جبير بن مطعم

رواه ابن ماجه في « المقدمة » باب « من بلغ علمًا » (١ / ٨٥ ح ٢٣١ ، ٢٣٢)

٣ ـ أنس بن مالك

رواه ابن ماجه في « المقدمة » باب « من بلغ علمًا » (١ / ٨٦ ح ٢٣٦)

٤ ـ عبد الله بن مسعود

رواه الترمذي في كتاب « العلم » باب « في الحث على تبليغ السماع » (٧ / ٤١٧ ـ ٤١٨ ح ٢٧٩٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح »

ورواه ابن ماجه في « المقدمة » باب « من بلغ علمًا » (١ / ٨٥ ح ٢٣٢)

وأنبياء الله بغير علم ، بل يقولون الكذب المفترى ، والكفر الواضح ، ويقولون - ذلك - إنا لانعقله ، وهذا حال النصارى بلاريب .

وهذا الموضع غلط فيه طائفتان من الناس :

١- غالية غَلَتْ في المعقولات حتى جعلت ماليس معقولا من المعقول ، وقدمته على الحس ونصوص الرسول .

٢- وطائفة جَفَتْ عنه ، فردت المعقولات الصريحة وقدمت عليها ماظنته من السمعيات والحسيات .

وهكذا الناس في السمعيات نوعان ، وكذلك هم في الحسيات الباطنة والظاهرة نوعان .

فيجب أن يعلم أن الحق لاينقض بعضه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً . بخلاف الباطل ، فإنه مختلف متناقض ، كما قال تعالى في المخالفين للرسل ﴿ والسماء ذات الحبك * إنكم لفى قول مختلف * يؤفك عنه من أفك ﴾ [سورة الذاريات : ٧-٩] وإن ما علم بمعقول صريح ، لايخالفه قط ، لاخبر صحيح ، ولاحس صحيح .

وكذلك ماعلم بالسمع الصحيح ، لايعارضه عقل ولاحس .

وكذلك ماعلِمَ بالحس الصحيح ، لايناقضه خبر ولامعقول .

والمقصود هنا ، الكلام مع من يعارض المعقولات بسمع أو حس .

فنقول لفظ « المعقول » يراد به المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بِفِطَرِهم التي فُطِرُوا عليها ، من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض ، كما يعلمون تماثل المتماثلين . واختلاف المختلفين - أعنى اختلاف التنوع لااختلاف التضاد والتباين - فإن لفظ « الاختلاف » يراد به هذا وهذا .

وهذه المعقولات في العلميات والعمليات هى التى ذم الله من خالفها بقوله

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير ﴾ [سورة الملك : ١٠] وقوله : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴾ ، [سورة الحج : ٤٦] ونحو ذلك .

وأما ما يسميه بعض الناس « معقولات » ويخالفه فيه كثير من العقلاء مثل القول بتماثل الأجسام ، وبقاء الأعراض ، فإن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة ، التى لاتقبل القسمة ، أو من المادة والصورة ، وأن مالا يتناهى من الأمور المتعاقبة شيئًا بعد شئ يمتنع وجوده ، إما في الماضى والمستقبل ، أو في الماضى فقط ، أو إن الكليات موجودة في الخارج جواهر قائمة بأنفسها ، أو إن لنا دهرًا أو مادة هى جوهر عقلى قائم بنفسه ، أو إنه يمكن وجود جوهر قائم بنفسه لايشار إليه ، ونحو ذلك مما يعده من النظّار ، أنه عقليات وينازعهم فيه آخرون .

فليس هذا هو العقليات التى لايجب لأجلها رد الحس والسمع ، وينبنى عليها علوم بنى آدم ، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولات بديهية أولية .

بخلاف العقليات الصريحة ، مثل كون الجسم الواحد لايكون في مكانين في وقت واحد ، فإن هذا معلوم بفطرة الله التي فطر الناس عليها .

فإذا جاء الحس أو الخبر الصحيح مايظن أنه يخالف ذلك ، مثل أن يرى الشخص الواحد في « عرفات » وهو في بلده لم يبرح ، أو يرى قاعدًا في مكانه وهو في مكان آخر ، أو ترى أنه أغاث من استغاث به ، أو جاء طائرًا في الهواء ، مع العلم بأنه في مكانه لم يتغير منه – فهذا إنما هو جِنّىٌ تصورٌ بصورة ذلك الشخص ليس هو نفسه ، فهذا يشبهه ليس هو إياه .

والحسيات إن لم يميز بينها بالعقل ، وإلا فالحس يغلط كثيرا ، فكذلك من ادَّعَى فيما حصل له من المكاشفة والمخاطبة أمرًا يخالف صريح العقل يعلم أنه غالط فيه ،

كمن قال من القائمين بوحدة الوجود : « إنى أشهد بباطنى وجوداً مطلقاً مجرداً عن الأسماء والصفات ؛ لا اختصاص فيه ولا قيد ألبتة » فلا ينازع فى هذا ، كما قد ينازعه بعض الناس .

لكن يقال له : من أين لك أن هذا هو رب العالمين الذى خلق السموات والأرض ؟

فإن كون ما شهدته بقلبك هو الله ، أمر لا يدرك بحس القلب ، وإذا ادعيت أنه حصل لك فى الكشف ما يناقض صريح العقل ، علم أنك غالط ، كما قال شيخ هؤلاء الملاحدة التلمسانى :

يا صاحبى أنت تنهانى وتأمرنى   والوجد أصدق بهاء وأمار
فإن أطعك واعص الوجد عدت عما   عن العيان إلى أوهام أخبار
وعين ما أنت تدعونى إليه إذا   حقيقته تره المنهى يا جار

فيقال له : وجدك وذوقك لم يفدك إلا شهود وجود مطلق بسيط ، لكن من أين لك أن هذا هو رب العالمين ؟ بل من أين لك أن هذا ثابت فى الخارج من نفسك كلياً مطلقاً مجرداً ؟ بل إنما تشهده كلياً مطلقاً مجرداً فى نفسك .

ولست تعلم بحس ولا عقل ولا خبر أن هذا هو الخارج .كما أن النائم إذا شهد حسه الباطل أشياء لم يكن معه يقين أن هذا فى الخارج فإذا عاد إليه عقله علم أن هذا كان فى خياله فى المنام .

وكذلك السكران وغيره ممن يضعف عقله فهذا يشهد بحسه الباطل ، أو الظاهر أشياء وقد ضعف عقله عن كنه ذلك لما ورد عليه ، إذا ثاب إليه عقله ، علم أن ما شهده كان فى نفسه وخياله لا فى الخارج عن ذلك .

فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط ، وإن كان صادقاً فيما يشهده فى الحس الباطن أو الظاهر ، لكن الغلط وقع فى ظنه

الفاسد المخالف لصريح العقل لافي مجرد الحس ، فإن الحس ليس فيه علم بنفي أو إثبات .

فمن رأى شخصاً ، فليس في الحس إلا رؤيته .

وأما كونه زيداً أو عمراً ، فهذا لابد فيه من عقل يميز بين هذا وهذا ، ولهذا كان الصغير والمجنون والبهيم والسكران والنائم ونحوهم ، لهم حس ، ولكن لعدم العقل لايميزون أن هذا المشهود هو كذا أم كذا ، بل قد يظنون ظنوناً غير مطابقة . قال تعالى ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ ، [سورة النور : ٣٩] .

فالظمآن ، يرى أن ماظنه ماء ولم يكن ماء لاشتباهه بالماء والحس لم يغلط ، لكن غلط عقله .

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، معصومون ، لايقولون على الله إلا الحق ، ولا ينقلون عنه إلا الصدق .

فمن ادّعى في أخبارهم ، مايناقض صريح المعقول ، كان كاذباً ، بل لابد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح ، أو ذلك المنقول ليس بصحيح .

فما علم يقيناً أنهم أخبروا به ، يمتنع أن يكون في العقل مايناقضه .

وماعلم يقيناً أن العقل حكم به ، يمتنع أن يكون في أخبارهم مايناقضه .

وقول أهل الإلحاد من النصارى وغيرهم – سواء ادّعوا الاتحاد العام أو الخاص – قد علم بصريح العقل بطلانه ، فيمتنع أن يخبر به نبى من الأنبياء ، بل الأنبياء عليهم السلام قد يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته ، لابما يعلم العقل بطلانه ، فيخبرون بمحارات العقول لابمحالات العقول .

ومن سوى الأنبياء ليس معصوماً ، فقد يغلط ويحصل لا فى كشفه وحسه وذوقه وشهوده أمور يظن فيها ظنوناً كاذبة .

فإذا أخبر مثل هذا بشئ ، علم بطلانه بصريح العقل ، علم أنه غالط وإذا أخبر غير الأنبياء بما يعجز عقل كثير من الناس عن معرفته ، لم يلزم أن يكون صادقًا ولا كاذبًا ، بل لا يحكم بصدقه ولا كذبه إلا بدليل ، لاحتمال أن يكون غالطًا ، واحتمال أن يكون قد علم ما يعجزه غيره عن معرفته .

وإذا قال القول المعلوم فساده بصريح العقل من ليس بنبى ، قال : إن هذا فوق العقل ، أو هذا وراء طور العقل والنقل . أو هذا لا نعرفه إن لم نترك العقل والنقل ، أو قال :

هم معشر حلوا النظام وأخرقوا الـ	سياق فلا فرض لديهم ولا نقل
مجانين إلا أن ســـر جنونهـــم	عزيزعلى أبوابه يسجد العقــل

قيل : هذا يمتنع أن يقوله نبى ، أو ينقله صادق عن نبى ، فإن أقوال الأنبياء لا تناقض العقل الصريح ، فكيف يقبل هذا ممن ليس بنبى ؟

وإن قال كما يقوله النصارى أو غيرهم : إن هذا دل عليه كلام الأنبياء ، أو فهناه من كلام الأنبياء .

قيل لهم : الكلام فى معانى الألفاظ التى نطقت بها الأنبياء شئ ، والكلام الذى فهمتموه عنهم شئ آخر.

ولو قدر أن ما ذكرتموه أنتم أو غيركم ، فهمتموه من كلام الأنبياء ليس مخالفًا لصريح العقل ، لم نجزم بأن قائل ذلك يتصور ما قال ، بل قد يكون فهم من كلامهم ما لم يريدوه .

فكيف إذا كان هو ـ نفسه ـ لم يتصور ما قال ؟ بل هم معترفون بأنه غير معقول

له ، وهو لايفهمه ، فكيف إذا كان الذي قاله معلوم الفساد بصريح العقل .

فهذه ثلاث مقدمات لو فهمه ، ثم قال : إني فهمت كلامهم ، لم يكن فهمه حجة

فكيف إذا قال : إنى لم أفهمه ، وإن هذا فوق طور العقل ؟

ولو قال هذا : لم يكن قوله حجة ، ولم يجب تصديقه من أن الأنبياء عنوا بكلامهم المعنى الذى اعترفوا أنه فوق طور العقل ، فكيف إذا عرف أن ذلك المعنى باطل ، يمتنع أن يقوله عاقل ، لانبي ولاغير نبي ؟!

فصل

قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : إنهم يقولون لنا : إذا كان اعتقادكم في البارى تعالى أنه واحد ، فما حملكم على أن تقولوا : أب وابن وروح قدس ، فتوهمون السامعين أنكم تعتقدون في الله ثلاثة أشخاص مركبة أوثلاثة آلهة، أو ثلاثة أجزاء ، وأن له ابنًا ؟ ويظن من لايعرف اعتقادكم أنكم تريدون بذلك ، ابن المباضعة والتناسل ، فتطرقون على أنفسكم تهمة أنتم منها بريئون ؟

قالوا : وهم أيضًا ، لما كان اعتقادهم في البارى جلت عظمته أنه غير ذى جسم وغير ذى جوارح وأعضاء . وغير محصور في مكان ، فما حملهم على أن يقولوا : إن له عينين يبصر بهما ، ويدين يبسطهما ، وساق ووجهه يوليه إلى كل مكان وجَنْبٍ ، وأنه يأتي في ظلل من الغمام . فيوهمون السامعين أن الله ذوجسم ، وذو أعضاء وجوارح ، وأنه ينتقل من مكان إلى مكان في ظُلَلٍ من الغمام ، فيظن من لايعرف اعتقادهم أنهم يُجَسِّمون البارى ، حتى إن قومًا منهم اعتقدوا ذلك واتخذوه مذهبًا ، ومن لم يتحقق اعتقادهم ، يتّهمهم بما هم بريئون منه .

قال : فقلت لهم : إنهم يقولون : إن العلة في قولهم هذا ، أن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب ، وأنه يأتي في ظلل من الغمام ، فهو أن القرآن نطق به ، وإن

ذلك غير ظاهر اللفظ ، وكل من يحمل ذلك على ظاهر اللفظ ويعتقد أن الله له عينان ويدان ووجه وجنب وجوارح وأعضاء وأن ذاته تنتقل ، فهم يلعنونه ويكفرونه ، فإذا كفَّروا من يعتقد هذا ، فليس لمخالفيهم أن يلزموهم هذا بعد أن لايعتقدوه .

قالوا : وكذلك نحن أيضًا النصارى ، العلة في قولنا : إن لله ثلاثة أقانيم : أب ، وابن ، وروح قدس ، أن الإنجيل نطق به . والمراد بالأقانيم غير الأشخاص المركبة ، والأجزاء والإبعاض وغير ذلك مما يقتضى الشرك والتكثير ، وبالأب والابن غير أبوه وبنوة نكاح أو تناسل ، أو جماع ، أو مباضعة .

وكل من يعتقد أن الثلاثة أقانيم ثلاثة آلهة مختلفة ، أو ثلاثة آلهة متفقة ، أو ثلاثة أجسام مؤلفة ، أو ثلاثة أجزاء متفرقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة ، أو أعراض ، أو قوّى ، أو غير ذلك مما يقتضى الاشتراك والتكثير والتبعيض ، والتشبيه ، أو بنوّة نكاح ، أو تناسل ، أو مباضعة ، أو جماع ، أو ولادة زوجة أو من بعض الأجسام ، أو من بعض الملائكة ، أو من بعض المخلوقين ، فنحن نلعنه ونكفره ونحرمه .

وإذا لعنّا وكفّرنا من يعتقد ذلك ، فليس لمخالفينا أن يلزمونا بعدُ أن لانعتقده ، وإن ألزمونا الشرك والتشبيه لأجل قولنا : أب وابن وروح قدس لأن ظاهر ذلك يقتضى التكثير والتشبيه . ألزمناهم أيضًا – نحن – التجسيم والتشبيه لقولهم : إن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجَنْب ، وأن ذاته تنتقل من مكان إلى مكان ، وأنه استوى على العرش من بعد أن لم يكن عليه ، وغير ذلك مما يقتضى ظاهره التجسيم والتشبيه .

والجواب من وجوه :

أحدها – أن يقال : من آمن بما جاءت به الرسل وقال ماقالوه من غير تحريف للفظه ، ولامعناه ، فهذا لا إنكار عليه ، بخلاف من ابتدع أقوالاً لم تقلها الرسل ، بل هى تخالف ماقالوه وحرّف ماقالوه ، إما لفظًا ومعنى ، وإما معنى فقط ، فهذا يستحق

الإنكار عليه باتفاق الطوائف .

وأصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه ، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولاتعطيل ، ومن غير تكليف ولاتمثيل ، بل يثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه ، وينفون عنه مانفاه عن نفسه ، ويتبعون في ذلك أقوال رسله ، ويجتنبون ماخالف أقوال الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٨٠] أى عما يصفه الكفار المخالفون للرسل ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ ، [الصافات : ١٨١] لسلامة ماقالوه من النقص والعيب ﴿ والحمدلله رب العالمين ﴾ ، [الصافات : ١٨٢] .

فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال ، ونزهوه عن النقائص المناقضة للكمال ونزهوه عن أن يكون له مثل في شئ من صفات الكمال ، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل ، ونفوا عنه التمثيل ، فأتوا بإثبات مفصّل ، ونفي مجمل .

فمن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات ، كان معطلاً ، ومن جعلها مثل صفات المخلوقين ، كان ممثلاً ، والمعطل يعبد عدمًا ، والممثل يعبد صنما .

وقد قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ ﴾(الشورى : ١١) وهو ردّ على الممثلة ﴿ وهو السميع البصير ﴾ وهو ردّ على المعطلة .

فوصفته الرسل بأنه حيٌّ منزه عن الموت ، عليم منزه عن الجهل ، قدير قوى عزيز ، منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب ، سميع بصير منزه عن الصمم والعمى ، غنى منزه عن الفقر ؛ جواد منزه عن البخل ، حكم حليم منزه عن السفه ، صادق منزه عن الكذب ، إلى سائر صفات الكمال مثل وصفه بأنه ودود رحيم لطيف وقد قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (سورة الإخلاص : ١ - ٤) .

فالصمد اسم يتضمن إثبات صفات الكمال ونفى النقائص . وهو العليم الكامل في علمه ، القدير الكامل في قدرته ؛ الحكيم الكامل في حكمته .

ولنا مصنف مبسط في تفسير هذه السورة وآخر (١) في بيان أنها تعادل ثلث القرآن ، وذكرنا كلام علماء المسلمين من الصحابة والتابعين في معنى « الصمد » وأن عامة ماقالوه حق ؛ كقول من قال منهم : « إن الصمد الذي لاجوف له » ومن قال منهم : « إن السيد الذي انتهى سؤدده » كما قيل : « إنه المستغنى عن كل ماسواه ، وكل ماسواه محتاج إليه » وكما قيل : إنه العليم الكامل في علمه ، والقدير الكامل في قدرته » إلى سائر صفات الكمال .

وذكر تعالى في هذه السورة أنه أحد ، ليس له كفواً أحد ، فنفى بذلك أن يكون شيئًا من الأشياء له كفواً وبين أنه أحد لا نظير له .

وقال في آية أخرى : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾ (سورة مريم : ٦٥) وقال : ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ (سورة الشورى : ١١) وقال : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ (سورة النحل : ٧٤) ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ (سورة البقرة : ٢٢) .

وما ورد في القرآن والسنة من إثبات صفات لله ، فقد ورد في التوراة وغيرها من كتب الله مثل ذلك .

فهو أمر اتفقت عليه الرسل ، وأهل الكتاب في ذلك كالمسلمين .

وإذا كان كذلك ، فهم في أمانتهم لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء ، بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد في كلام الأنبياء .

١- قوله : وآخر يقصد به كتاب « جواب أهل العلم والإيمان ، فيما أخبر به الرسول الرحمن من أن قل هو الله أحد ، تعدل ثلث القرآن ، وقد طبع مرارا في القاهرة .

فليس في كلام الأنبياء - لا المسيح ولا غيره - ذكر أقانيم لله ، لا ثلاثة ولا أكثر ، ولا إثبات ثلاثة صفات ، ولا تسمية شئ من صفات الله ، ابنا لله ولا ربا ، ولا تسمية حياته روحا ، ولا أن لله ابنا هو إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، وأنه خالق كما أن الله خالق ، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الكفر ، لم تنقل عن نبي من الأنبياء .

فقالوا في شريعة إيمانهم : نؤمن بالله الأب ، مالك كل شئ صانع ما يرى وما لا يرى ، وهذا حق .

ثم قالوا : وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلايق كلها ، مولود ليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، نور من نور ، مساو للأب في الذي الجوهر بيده أتقنت العوالم ، خلق كل شئ الذي من أجلنا - معشر الناس - ومن أجل خلاصنا نزل السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء البتول ، وصار إنسانًا وحُبل به وولد من مريم وألم وصُلب ودُفن ، وقام في اليوم الثالث ، كما هو مكتوب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجئ تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء .

ونؤمن بروح القدس المحيي ، وروح الحق المنبثق من أبيه ، أو الذي يخرج من أبيه روح محييه .

فأين كلام الأنبياء أن شيئاً من صفات الله أو من مخلوقاته يقال فيه :

إنه أقنوم، وإنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، وإنه مساو لله في الجوهر ، وإنه خالق كل شئ ، وإنه قعد عن يمين الله فوق العرش ، وإنه الذي يقضي بين الناس يوم القيامة ؟!

وأين في كلام الأنبياء أن لله ولدًا قديمًا أزليًا ؟!

ومن الذي سمى كلام الله أو علمه أو حكمته ، مولودًا له وابنا له أو شيئًا من صفاته مولودًا له أوابنًا له ؟!

ومن الذي قال من الأنبياء : إنه مولود ، وهو ـ مع ذلك ـ قديم أزلي ؟!

وأين في كلامهم أن لله أقنومًا ثالثًا هو حياته ، ويسمى بروح القدس وأنه أيضًا رب حي محيي؟!

فلو كان النصارى آمنوا بنصوص الأنبياء ، كما آمن المؤمنون ، لم يكن عليهم ملام .

ومن اعترض على نصوص الأنبياء ، كان لفساد فهمه ونقص معرفته .

ولكن هم ابتدعوا أقوالا وعقائد ليست منصوصة عن أحد من الأنبياء عليهم السلام ، وفيها كفر ظاهر وتناقض بيّن .

فلو قدر أنهم أرادوا بها معنى صحيحًا ، لم يكن لأحد أن يبتدع كلامًا لم يات به نبي يدل على الكفر المتناقض الذي يخالف الشرع والعقل ، ويقول :

إني أردت به معنى صحيحًا من غير أن يكون لفظه دالا على ذلك ، فكيف والمراد الذي يفسرون به كلامهم فاسد متناقض كما تقدم ؟!

فهم ابتدعوا أقوالا منكرة وفسروها بتفسير منكر ، فكان الرد عليهم من كل واحد من الوجهين ، وهم ـ في ذلك ـ نظير بعض ملاحدة المسلمين الذين يعتقدون إلهية بعض أهل البيت ، أو بعض المشايخ ، ويصفون الله بصفات لم ينطق بها كتاب ، وهؤلاء ملحدون عند المسلمين .

بخلاف المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله ، الذين آمنوا بما قالت الأنبياء ، ولم يبتدعوا أقوالا لم يأت بها الأنبياء ، وجعلوها أصل دينهم

الوجه الثاني : أن يقال : ما ذكرتموه عن المسلمين كذب ظاهر عليهم .

فهذا النظم الذي ذكروه ليس هو في القرآن ، ولا في الحديث ، ولا يعرف عالم مشهور من علماء المسلمين ، ولا طائفة مشهورة من طوائفهم يطلقون العبارة التي حكوها عن المسلمين ، حيث قالوا عنهم : « إنهم يقولون : إن لله عينين يبصر بهما ، ويدين يبسطهما ، وساقا ووجهًا يوليه إلى كل مكان ، وجنبًا ،

ولكن هؤلاء ركبوا من ألفاظ القرآن ـ بسوء تصرفهم وفهمهم ـ تركيبًا زعموا أن المسلمين يطلقونه .

وليس في القرآن ما يدل ظاهره على ما ذكروه فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ (سورة المائدة : ٦٤) واليهود أرادوا بقولهم « يد الله مغلولة » أنه بخيل ، فكذبهم الله في ذلك ، وبيّن أنه جواد لا يبخل ، فأخبر أن يديه مبسوطتان ، كما قال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسوراً ﴾ (سورة الإسراء : ٢٩) فبسط اليدين المراد به الجود والعطاء ، ليس المراد ما أوهموه من بسطه المجرد .

ولما كان العطاء باليد يكون ببسطها ، صار من المعروف في اللغة التعبير ببسط اليد عن العطاء .

فلما قالت اليهود « يد الله مغلولة » وأرادوا بذلك أنه بخيل ، كذبهم الله في ذلك ، وبيّن أنه جواد ماجد .

وإثبات اليدين له موجود في التوراة ، وسائر النبوات ، كما هو موجود في القرآن .

فلم يكن هذا شئ يخالف ما جاءت به الرسل ، ولا ما يناقض العقل ، قد

وقد قال تعالى لإبليس : ﴿مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ (سورة ص : ٧٥) فأخبر أنه خلق آدم بيديه ، وجاءت الأحاديث الصحيحة توافق ذلك (١) .

وأما لفظ « عينين » فليس هو في القرآن ، ولكن جاء فيه حديث (٢) .

وذكر الأشعري عن أهل السنة حيث أنهم يقولون : إن لله عينين .

ولكن الذي جاء في القرآن : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ (طه : ٣٩) ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ (هود : ٣٧) ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا ﴾ (القمر : ١٣ ، ١٤) .

وأما قولهم « له وجه يوليه إلى كل مكان » فليس هذا في القرآن ، ولكن في

---

(١) يشير إلى الحديث « المتفق عليه ، من رواية » أبي هريرة وهو حديث « محاجة آدم وموسى » رواه البخاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » باب قوله عز وجل « ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه » (٦ / ٤٢٨ ج ٣٣٤٠) ، ورواه أيضًا برقم (٣٣٦١ ، ٤٧١٢)

ورواه مسلم في كتاب « القدر » باب « حجاج آدم وموسى عليهما السلام » (٤ / ٢٠٤٢ - ٢٠٤٤ ج ٢٦٥٢)

ورواه الترمذي في كتاب « القيامة » باب « ما جاء في الشفاعة » (٧ / ١٢١ - ١٢٧ ج ٢٥٥١) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وقد ورد هذا الحديث من رواية أنس بن مالك رواه مسلم والترمذي وابن ماجة

(٢) يشير إلى الحديث المتفق عليه من رواية أنس ابن مالك

رواه البخاري في كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال » (١٣ / ٩٧ ج ٧١٣١)

ورواه أيضًا برقم (٧٤٠٨)

ورواه مسلم في كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال ومن معه » (٤ / ٢٢٤٨ ج ٢٩٣٣)

ورواه أبو داود في كتاب « الملاحم » باب « خروج الدجال » (١١ / ٤٤٠ ج ٤٢٩٤)

ورواه الترمذي في كتاب « الفتن » باب (٥٣) (٦/٥١٤ح٢٣٤٦)

وقد ورد هذا الحديث عن كثير من الصحابة مثلي سعد وابن عمر وحذيفة وأبي هريرة وأسماء وجابر بن عبد الله وأبي بكر وعائشة وابن عباس والفلتان ابن عاصم .

القرآن ﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ (الرحمن :٢٦، ٢٧). وقوله ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه يرجعون ﴾ (القصص : ٨٨) وقوله ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ (البقرة : ١١٥) . وهذا قد قال فيه طائفة من السلف (١) : فثم قبلة الله ، أي فثم جهة الله ، والوجه والوجهة ، كالوعد والعدة ، والوزن والزنة .

والمراد بوجه الله وجهة الله ، الوجه ، والجهة والوجهةالذي لله يستقبل في الصلاة ، كما قال في أول الآية ﴿ ولله المشرق والمغرب ﴾ ثم قال ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ كما قال تعالى : ﴿ سيقول السفهاء من الناس : ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (سورة البقرة : ١٤٢)

فإذا كان لله المشرق والمغرب ، ولكل وجهة هو موليها ، وقوله : موليها ، أي متوليها أي مستقبلها ، فهذا كقوله ، ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ أي فأينما تستقبلوا فثم وجهة الله وقد قيل : إنه يدل على صفة لله لكن يدل على أن ثَم وجه الله وأن العباد أينما يولون ، فثم وجه الله ، فهم الذين يولون ويستقبلون ، لا أنه هو يولي وجهه إلى كل مكان ، فهذا تحريف منهم للفظ القرآن عن معناه وكذب على المسلمين .

ومن قال بالقول الثاني من المسلمين ، فإن ذلك يقتضي أن الله محيط بالعالم كله ، كما قد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع .

إذ المقصود هنا بيان ضلال هؤلاء في دينهم فيما ابتدعوا من الكفر والتثليث والاتحاد ، دون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وما أخبرت به الرسل عن الله تبارك وتعالى .

(١) انظر « الدر المنثور » للسيوطي (١ / ١٠٨ ، ١٠٩)

وأما قولهم : « وجنب » فإنه لا يعرف عالم مشهور عند المسلمين ، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين ، أثبتوا لله جنبًا ، نظير جنب الإنسان ، وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله : ﴿ أن تقول نفس : ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ (سورة الزمر : ٥٦) فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له ، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ماليس بصفة له باتفاق الخلق ، كقوله تعالى : ﴿ بيت الله ﴾ ، ﴿وناقة الله ﴾ ، ﴿ وعباد الله ﴾ بل وكذلك « روح الله » عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم .

ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره ، مثل كلام الله ، وعلم الله ، ويد الله ونحو ذلك ، كان صفة له .

وفي القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان ، فإنه قال : ﴿ أن تقول نفس : ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ والتفريط ليس في شئ من صفات الله عز وجل .

والإنسان إذا قال : فلان قد فرط في جنب فلان أو جانبه ، لا يريد به أن التفريط وقع في شئ من نفس ذلك الشخص ، بل يريد به أنه فرط في جهته وفي حقه .

فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق ، لا يكون ظاهره أن التفريط في نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه ، بل ذلك التفريط لم يلاصقه ، فكيف يظن أن ظاهره في حق الله أن التفريط كان في ذاته .

وجنب الشئ وجانبه ، قد يراد به منتهاه وحده ويسمى جنب الإنسان جنبًا بهذا الاعتبار ، قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ﴾ (سورة السجدة : ١٦) وقال تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ﴾ (سورة آل عمران ١٩١) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين (١) « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

وإذا قدر أن الإضافة هنا تتضمن صفة الله ، كان الكلام في هذا كالكلام في سائر ما يضاف إليه تعالى من الصفات ، وفي التوراة من ذلك نظير ما في القرآن وهذا يتبين بالوجه الثالث : وهو أن يقال ما في القرآن والحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من وصف الله بهذه الصفات التي يسميها بعض الناس تجسيما ، هو مثل ما في التوراة وسائر كتب الأنبياء .

وهذا الذي في التوراة وكتب الأنبياء ليس مما أحدثه أهل الكتاب .

ولو كانوا هم ابتدعوا ذلك ، ووصفوا الخالق بما يمتنع عليه من التجسيم لكان النبي صلى الله عليه وسلم ذمهم على ذلك ، كما ذمهم على ما وصفوه به من النقائص في مثل قوله : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ (سورة آل عمران : ١٨١) وقوله : ﴿ وقالت اليهود : يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ (سورة المائدة : ٦٤) قال تعالى ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ (سورة ق : ٣٨)

فنفى عنه اللغوب الذي يظن في لفظ الاستراحة الذي في التوراة ، فإن فيها أن الله خلق العالم في ستة أيام ، ثم استراح في يوم السبت ، فظن بعض الناس أنه تعب فاستراح .

ثم من علماء المسلمين من قال : إن هذا اللفظ حرفوا معناه دون لفظه ، وهذا لفظ التوراة المنزلة . قال ابن قتيبة وغيره .

وقالوا : معناه ثم ترك الخلق فعبر عن ذلك بلفظ استراح .

---

(١) « صحيح »
رواه البخاري في كتاب « تقصير الصلاة » باب « إذا لم يطق قاعداً صلي على جنب » (٢ / ٦٨٤ ح ١١١٧)
ورواه الترمذي في كتاب « مواقيت الصلاة » باب « ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم » (٢ / ٣٦٨ : ٣٧١ ح ٣٦٩)
ورواه أبو داود في كتاب « الصلاة » باب « في صلاة القاعد » (٣ / ٢٣٣ ح ٩٣٩)
ورواه ابن ماجة في كتاب « إقامة الصلاة » باب « ما جاء في صلاة المريض » (١ / ٣٨٦ ح ١٢٢٣)

ومنهم من قال : بل حرفوا لفظه ، كما قال أبوبكر بن الأنباري وغيره .

وقالوا : ليس هذا لفظ التوراة المنزلة وأما ما في التوراة من إثبات الصفات فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا من ذلك ، بل كان علماء اليهود إذا ذكروا شيئًا عن ذلك يقرهم عليه ، كما في الصحيحين (١) عن عبد الله بن مسعود أن حبراً من اليهود جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، إن الله عز وجل يوم القيامة يحمل السموات على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إسبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك » : قال فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تعجبًا وتصديقًا لقول الحبر ، ثم قرأ ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ الآية (سورة الزمر : ٦٧) وفي التوراة : « إن الله كتب التوراة بإصبعه » .

وإذا ثبت أن مثل هذه النصوص في التوراة والكتب المتقدمة باتفاق أهل الكتاب وبما يشهد على ذلك من أخبار الرسول بنظير ذلك ، وترك إنكاره لما في التوراة وتصديقه على ما كانوا يذكرونه من ذلك ، لم يكن المسلمون مختصين بذكر ما سموه تجسيما ، بل يلزم أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ من ذلك نظير ما يلزم المسلمين .

وقد افترق أهل الكتاب في ذلك ، كما افترق فيه المسلمون ، منهم الغالي في النفي والتعطيل ومنهم الغالي في التشبيه والتمثيل .

---

(١) « متفق عليه » ، رواه البخاري في كتاب « التوحيد » باب قوله تعالى « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » (١٣ / ٤٤٧ ح ٧٤٥١)

ورواه مسلم في كتاب « صفة المنافقين » باب « صفة القيامة والجنة والنار » (٤ / ٢١٤٧ : ٢١٤٨ ح ٢٧٨٦) ، ورواه الترمذي في كتاب « التفسير » باب « سورة الزمر » (٩ / ١١٢ ، ١١٣ ح ٣٢٩١) ورواه النسائي في كتاب « التفسير » باب قوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره » (٦ / ٤٤٦ : ٤٤٧ ح ١١٤٥٠ : ١١٤٥٢)

والمسلمون ـ أئمتهم وجمهورهم ـ مقتصدون بين التعطيل والتمثيل ، وكذلك طائفة من أهل الكتاب .

والمقصود أنه إذا كانت هذه الصفات قد جاءت في الكتب الإلهية ، التوراة وغيرها ، كما جاءت في القرآن ، لم يكن للمسلمين بذلك اختصاص .

ولم يجز للنصارى أن يجعلوا ذلك ما اختصوا به من التثليث والاتحاد فإن ذلك مختص بهم .

وهذه الصفات قد اشترك فيها الملل الثلاث لأن التثليث والاتحاد ليس منصوصًا عن أحد من الأنبياء عليهم السلام وهذه الصفات منصوصة في القرآن والتوراة وغيرهما من كتب الأنبياء فكيف يجوز تشبيه هذه بهذا؟! .

الوجه الرابع : ـ قولهم : « فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم وأعضاء وجوارح » كلام باطل ، وذلك أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء ، وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء ، هي ـ في حقهم ـ نظير تلك الأسماء في حقه سبحانه وتعالى .

فسمى نفسه حيًا ، كقوله : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ (سورة البقرة : ٢٥٥)

﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ (سورة الفرقان : ٥٨) وسمى بعض عباده حيا كقوله : ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ (سورة الروم : ١٩) مع العلم بأنه ليس الحي كالحي .

وسمى نفسه عليمًا ، كقوله : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ (الأنعام :٨٣) وسمى بعض عباده عليما ، كقوله : ﴿ وبشروه (١) بغلام عليم ﴾ (الذاريات

١- في المطبوعة : « وبشرناه » والصواب ما أثبتناه .

:٢٨) فاعلم بأنه ليس العليم كالعليم .

وسمى نفسه حليما بقوله : ﴿ والله غني حليم ﴾ (البقرة ٢٦٣) وسمى بعض عباده حليما بقوله : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ (الصافات : ١٠١) .

وسمى نفسه رءوفًا رحيما بقوله : ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (البقرة : ١٤٣) وسمى بعض عباده رءوفًا رحيما ، بقوله : ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ (التوبة : ١٢٨) وليس الرءوف كالرءوف ، ولا الرحيم كالرحيم .

وكذلك سمى نفسه ملكا جبارًا متكبرًا عزيزًا : وسمى بعض عباده ملكا وبعضهم عزيزًا ، وبعضهم جبارًا متكبرًا ، وليس هو في ذلك مماثلا لخلقه وكذلك سمى بعض صفاته علمًا وقوة وأيدًا ، وقدرة ورحمة ، وغضبًا ورضى ويدًا وغير ذلك .

وسمى بعض صفات عباده بذلك ، وليس علمه كعلمهم ، ولا قدرته كقدرتهم ولا رحمته وغضبه ، كرحمتهم وغضبهم . ولا يده كأيديهم .

وكذلك ما أخبر به عن نفسه من استوائه على العرش ، ومجيئه في ظلل من الغمام وغير ذلك من هذا الباب ، ليس استواؤه كاستوائهم ، ولا مجيئه كمجيئهم .

وهذه المعاني التي تضاف إلى الخالق تارة وإلى المخلوق أخرى ، تذكر على ثلاثة أوجه :

١ ـ تارة تقيد بالإضافة إلى الخالق أو بإضافته إليها ، كقوله ﴿ ولا يحيطون بشئ من علمه ﴾ (البقرة : ٢٥٥) ﴿ إن الله هو الرزّاق ذو القوة ﴾ (الذاريات : ٥٨) .

٢ ـ وتارة تقيد بالمخلوق كقوله : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا

العلم ﴾ (سورة آل عمران : ١٨)

٣ ـ وتارة تطلق مجردة .

فإذا قيدت بالخالق ، لم تدل على شئ من خصائص المخلوقين .

فإذا قيل . علم الله وقدرته واستواؤه ومجيئه ويده ونحو ذلك ، كانت هذه الإضافة توجب ما يختص به الرب الخالق ، وتمنع أن يدخل فيها ما يختص به المخلوق .

وكذلك إذا قيل :﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ﴾ (المؤمنون : ٢٨) كانت هذه الإضافة توجب ما يختص بالعبد وتمنع أن يدخل في ذلك ما يختص بالرب عز وجل .

وإذا جرد اللفظ عن القيود فذكر بوصف العموم والإطلاق ، تناول الأمرين كسائر الألفاظ التي تطلق على الخالق والمخلوق .

وهذه للناس فيها أقوال .

قيل إنها حقيقة في الخالق مجاز في المخلوق ، كقوله أبي العباس الناشئ .

وقيل بالعكس كقوله : غلاة الجهمية والباطنية والفلاسفة .

وقيل : حقيقة فيهما ، وهو قول الجمهور .

ثم قيل : هي مشتركة اشتراكا لفظيًا وقيل : متواطئة وهو قول الجمهور

ثم من جعل المشككة نوعًا من المتواطئة لم يمتنع ـ عنده ـ إذا قيل مشككة أن تكون متواطئة ، ومن جعل ذلك نوعًا آخر جعلها مشككة لا متواطئة .

وهذا نزاع لفظي ، فإن المتواطئة التواطؤ العام ، يدخل فيها المشككة .

إذ المراد بالمشككة ، ما يتفاضل معانيها في مواردها ، كلفظ الأبيض الذي

يقال على البياض الشديد ، كبياض الثلج ، والخفيف كبياض العاج ، والشديد أولى به .

ومعلوم أن مسمى البياض في اللغة ، لا يختص بالشديد دون الخفيف ، فكان اللفظ دالا على ما به الاشتراك ، وهو المعنى العام الكلي ، وهو متواطئ بهذا الاعتبار ، وهو باعتبار التفاضل يسمى مشككًا .

وأما إذا أريد بالتواطئ ، ما تستوي معانيه : كانت المشككة نوعًا آخر لكن تخصيص لفظ المتواطئة بهذا عرف حادث ، وهو خطأ أيضًا .

فإن عامة المعاني العامة تتفاضل ، والتماثل فيها في جميع مواردها ـ بحيث لا تتفاضل في شئ من مواردها ـ إما قليل وإما معدوم .

فلو لم تكن هذه الأسماء متواطئة ، بل مشككة ، كان عامة الأسماء الكلية غير متواطئة ، وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا أن الله سبحانه وتعالى إذا أضاف إلى نفسه ماأضافه إضافة تختص بها ، وتمنع أن يدخل فيها شئ من خصائص المخلوقين ، وقد قال مع ذلك : إنه ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ (الشورى : ١١) وإنه ﴿ لم يكن له كفواً أحد ﴾ (الإخلاص : ٤) وأنكر أن يكون له سمي ، كان من فهم من هذه ما يختص به المخلوق ، قد أُتِيَ من سوء فهمه ونقص عقله ، لا من قصور في بيان الله ورسوله ، ولا فرق في ذلك بين صفة وصفة .

فمن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عرض محدث باضطرار أو اكتساب ، فمن نفسه أُتِيَ ، وليس في قولنا علم الله مايدل على ذلك .

وكذلك من فهم من قوله ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ (المائدة : ٦٤) .

و ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ (ص : ٧٥) ما يختص به

المخلوق من جوارحه وأعضائه ، فمن نفسه أُتِيَ ، فليس في ظاهر هذا اللفظ ما يدل على ما يختص به المخلوق كما في سائر الصفات .

وكذلك إذا قال : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ (الفرقان : ٥٩) من فهم من ذلك ما يختص بالمخلوق ، كما يفهم من قوله ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ﴾ (المؤمنون :٢٨) فمن نفسه أُتِيَ فإن ظاهر اللفظ يدل على استواء يضاف إلى الله عز وجل كما يدل في تلك الآية على استواء يضاف إلى العبد .

وإذا كان المستوى ليس مماثلا للمستوِي ، لم يكن الاستواء مماثلا للاستواء .

فإذا كان العبد فقيراً إلى ما استوى عليه ، يحتاج إلى حمله .

وكان الرب عز وجل غنيًا عن كل من سواه ، والعرش وما سواه فقيراً إليه وهو الذي يحمل العرش ، وحملة العرش ، لم يلزم إذا كان الفقير محتاجًا إلى ما استوى عليه أن يكون الغني عن كل شئ وكل شئ محتاج إليه ، محتاجا إلى ما استوى عليه .

وليس في الظاهر كلام الله عز وجل ما يدل على ما يختص به المخلوق من حاجة إلى حامل وغير ذلك ، بل توهم هذا من سوء الفهم لامن دلالة اللفظ .

لكن إذا تخيل المتخيل في نفسه أن الله مثله ، تخيل أن يكون استواؤه كاستوائه ، وإذا عرف أن الله ليس كمثله شئ ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، علم أن استواءه ليس كاستوائه ولا مجيئه كمجيئه ، كما أن علمه وقدرته ورضاه وغضبه ، ليس كعلمه وقدرته ورضاه وغضبه .

وما بين الأسماء كالمعنى العام الكلي كما بين قولنا ، حي وحي وعالم وعالم وهذا المعنى العام الكلي المشترك ، لا يوجد عامًا كليًا مشتركًا إلا في العلم والذهن ؛ وإلا فالذي في الخارج أمر يختص بالموصوف .

فصفات الرب عز وجل ، مختصة به ، وصفات المخلوق مختصة به وليس بينهما اشتراك ولا بين مخلوق ومخلوق .

الوجه الخامس : - قولهم : « لما كان اعتقادهم في البـاري حلت قدرته أنه غير ذي جسم استعمال منهم للفظ الجسم في القدر والغلظ لا في ذي القدر والغلظ ، وهذا أحد مَوْرِدَيْ استعماله وهو الأشهر في لغة العامة ، فيقولون : هذا الثوب له جسم ، وهذا ليس له جسم ، أي هذا غلظ وكثافة دون هذات .

ولكن النظار أكثر ما يستعملون لفظ « الجسم » في نفس ذي القدر فيقولون : للقائم بنفيسه ؛ ذي القدر : إنه جسم .

وهذا اللفظ لما كثزر استعماله في كلام النظار ، تفرقوا في معانيه لغة عقلا وشرعًا ، تفرقًا ضل به كثير من الناس ، فإن هذا اللفظ أصله في اللغة هو الجسد .

قال غير واحد من ءأهل اللغة كالأصمعي وأبي زيد وغيرهما : الجسد هو الجسد .

وهذا إنما يستعمله أهل اللغة فيما كان غليظًا كثيفًا ، فلا يسمعون الهواء جسمًا ولا جسدًا ، ويسمون بدن الإنسان جسدًا .

وقد تقدم أن الجسم يراد نفس الجسد ، ويراد به قدر الجسد وغلظه ، قال تعالى : ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ (البقرة : ٢٤٧) وقال تعالى ﴿ وإذ رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ﴾ (المنافقون : ٤) وقد يراد به هذا وهذا .

ثم أهل النظر استعملوا لفظ « الجسد » في أعمم معناه في اللغة ، كما فعلوا مثل ذلك في لفظ « الجوهر » ولفظ « العرض » ولفظ « الوجود » ولفظ « الذات » وغير ذلك .

فاستعملوا لفظ « الجسم » فيما يقوم بنفسه ، وتمكن الإشارة إليه الحسية المختلفة .

ثم تنازعوا نزاعًا عقليًا فيما يشار إليه ، كالهواء والنار والتراب والماء وغير ذلك هل هو مركب من الجواهر المنفردة التي لا تقبل القسمة ، أو من المادة والصورة ، أو ليس مركبًا لا من هذا ولا هذا ، على ثلاثة أقوال قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع .

فمن اعترف أنها مركبة من هذا أو هذا يلزمه - إذ قال : إن الله جسم - أن يكون الله مركبًا من هذا أوهذا .

ولهذا قالوا : إن هذا باطل وأوجبوا - على أصلهم - نفي مسمى هذا الاسم وهذا هو المشهور عند هؤلاء .

ومن اعتقد أنه ليس مركبًا ، لا من هذا ولا من هذا قال : لا يلزمني إذا قلت : هو جسم ، أن يكون مركبًا .

فمن هؤلاء من أطلق عليه لفظ « الجسم » وأراد به القائم بنفسه أو الموجود ، كما أطلق هؤلاء لفظ الجوهر وقالوا : أردنا بالجوهر ، القائم بنفسه وكما قال هؤلاء : ليس في الوجود إلا جوهر أو عرض .

فإن الوجود إما قائم بنفسه ، وهو الجوهر ، أو بغيره ، وهو العرض ، والجوهر أشرف القسمين .

وقال الآخرون : ليس في الوجود إلا قائم بنفسه : وهو الجسم ، أو قائم بغيره وهو العرض ، والجسم أشرف القسمين وقال : فما سماه أولئك جوهراً سماه أولئك جسما ، وكلاهما ليست تسميته لغوية ولا شرعية .

وإذا قال هؤلاء : هو جوهر لا كالجواهر ، كما يقال هو شئ لا كالأشياء .قال أولئك إنه هو الجسم لا كالأجسام ، كما يقال هو شئ لا كالأشياء .

وإذ قال هؤلاء : الجوهر ينقسم إلى كثيف ولطيف قال أولئك : والجسم ينقسم

إلى لطيف وكثيف .

والمقصود هنا ؛ أن هؤلاء الذين نزهوه عما يمتنع عليه من مماثلة المخلوقين وسموه جسمًا ، نزاعهم مع النفاة قد يكون لفظيًا ، كنزاع النصارى في لفظ الجوهر ، وقد يكون عقليًا ، كنزاعهم في أن المشار إليه : هل هو مركب من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة ، أولا من هذا ولا من هذا ؟ .

ومن قال من القائلين بأنه جسم ، فيقول : إنه مركب من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة ، فهؤلاء مذمومون لفظًا ومعنى عند جماهير المسلمين وغيرهم ؛ وإن كان النصارى وغيرهم يعجزون عن الرد على هؤلاء ، إذا كان ما يعتمدون عليه في تنزيه الله عن خصائص الأجسام طرقًا ضعيفة ، لا تثبت على المعيار العقلي كما قد بسط في موضع آخر .

بخلاف من كان نزاعه لفظيًا ، فهذا يذم ، إما لغة ، وإما لغة وشرعا لكونه أطلق لفظًا لم يأذن به الشرع ، أو استعمله في خلاف معناه اللغوي ، كما قد يذم النافي بمثل ذلك لغة وشرعًا ، إذا كان معناه صحيحًا .

وأما من كان من النفاة أو المثبتة ، نفى حقًا أو أثبت نفيًا باطلا ، فهذا مذموم ذمًا معنويًا شرعًا وعقلا .

وأما الشرع فالرسل وأتباعهم الذين من أمة موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يقولوا : إن الله جسم ، ولا إنه ليس بجسم ، ولا إنه جوهر ولا إنه ليس بجوهر .

لكن النزاع اللغوي والعقلي والشرعي في هذه الأسماء هو مما أحدث في الملل الثلاث بعد انقراض الصدر الأول من هؤلاء وهؤلاء .

والذي اتفقت عليه الرسل وأتباعهم ما جاء به القرآن والتوراة ، من أن الله

موصوف بصفات الكمال ، وأنه ليس كمثله شئ ، فلا يمثل صفاتهم بصفات المخلوقين ، مع إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات ، ولا يدخل في صفاته ماليس منها ، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها .

إذا تبين هذا ، فالمسلمون لما كان اعتقادهم بأن الله تعالى موصوف بما وصف به نفسه ، وأنه ليس كمثله شئ ، وكان ما أثبتوه له من الصفات التي جاءت بها الرسل ، لم عليهم ملازم ، لأنهم أثبتوا ما أثبته الرسل ونفوا ما نفته الرسل فكان في هذامن النفي ما ينفي الوهم الباطل .

بخلاف من أثبت أمورًا لم تأت بها الرسل ، وضم إليها ما يؤكد المعنى الباطل لا ماينفيه ، وكان مما نفوا عنه أنه ليس بجسم من الجواهر المنفردة ، ولا من المادة والصورة .

أما على أحد قولي النظار بل وأظهرهما ، فإن ما سواه من الموجودات القائمة بأنفسها ليس مركبًا ، لا من هذا ولا من هذا .

فهو سبحانه أحق بتنزيهه عن مثل هذا ، إذ كل نقص نفي عن المخلوق فالخالق أحق بتنزيهه منه .

وأما على القول الآخر ، فتارة يقولون لأن المركب من الجواهر المنفردة يمكن افتراق أجزائه ، وذلك ممتنع في حق الله تعالى ، وتارة يقولون ، لأنه مفتقر إلى أجزائه ، وذلك ممتنع في حق الله تعالى ، إذ جزؤه غيره ، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجبًا بنفسه قديمًا أزليًا ، كما قد بسط الكلام على هذه الأمور في موضع آخر .

ثم منهم من لايطلق من النفي والإثبات إلا الألفاظ الشرعية ، فكما لا يقول : هو جسم وجوهر ، لا يقول : ليس بجسم ولا جوهر .

ومنهم من يطلق هذه الألفاظ ، وهؤلاء منهم من ينفيها ، ومنهم من يثبتها .

وكل من الطائفتين قد يدخل في ذلك ما يوافق الشرع ، وقد يدخل في ذلك ما يخالف الشرع .

وكل من الطائفتين ، يدعي النظرن العقلي أو اللغوي ، وربما اعتصم بعضهم بما يظنه دليلا شرعيًا .

والغالب عليهم أنهم لا يعتصمون في ذلك بشرع ، إذ لا يكن في ذلك شرع ، وإنما يتكلفون تغيير اللغة التي بعث بها الرسول ، ثم يحملون ألفاظه على ما ابتدعوه من اللغة و كما فعلته النصارى في حمل كلام الأنبياء على ما ابتدعوه من اللغة .

فإن الأنبياء لم يسموا علم الله وحياته ابنًا ، وروح قدس ، ولا ربًا ، فسمى النصارى علمه وحياته ، ابنًام وروح قدس ، وربًا ، ثم حملوا كلام الأنبياء على ذلك .

كذلك طائفة من أهل الكلام كان السلف يسمونهم الجهمية ، أحدثوا تسمية الواحد والأحد ونحوهما لما لا يشار إليه ولا يميز الحس منه شيئًا عن شئ وهذا خلاف اللغة ، فإلى أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد في النفي لما يشار ليه ويميز الحس منه شيئًا من شئ قال تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ (المدثر : ١١) فسمى الإنسان وحيداً وقال وقال تعالى : ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ (النساء : ١١) فسمى المرأة واحدة . ﴿وما أمرنا إلا واحدة ﴾ (القمر: ٥٠) وقال : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمعن كلام الله ﴾ (التوبة : فسمى المستجير - وهو إنسان - أحداً .

وكذلك قوله تعالى ﴿ لم يكن له كفوا أحد ﴾ نفى أن

يكون كفواً له .

فلو كان ما يشار إليه لا يسمى أحدًا ، لم يكن قد نزهه عن مماثلة المخلوقات له ، فإن المشهود من المخلوقات كلها يشار إليها ، فإن لم يدخل في « أحد » لم يكن قد نزه نفسه عن مماثلتها .

فهؤلاء لما أحدثوا أن مسمى الأحد والواحد لا يكون مشاراً إليه قالوا والرب قد سمى نفسه أحدً وواحدًا ، فيجب أن لا يكون مشارا إليه .

ولغة الرسول التي خاطب بها الناس لم تكن موافقة لما ابتدعوه من اللغة وكذلك الذين قالوا : « هو جسم » غيروا اللغة ، وجعلوا الجسم اسما لما يشار إليه ، أو لكل موجود ، ولكل قائم بنفسه .

وثم قالوا : وهو موجود ، أو قائم بنفسه ، أو مشار إليه ، فيكون جسمًا ولا يوجد في اللغة اسم الجسم ، لا لهذا ، ولا لهذا ، ولا لهذا .

وقالوا : لا يلزم من كونه مشارا إليه أن يكون مركبًا من الجواهر المفردة ، ولا من المادة والصورة .

وقال أولئك : بل يلزم أن كل مركب ، فإنه يسمى في اللغة جسمًا ، فيلزم أن يسمى جسمًا ، إذا قلنا : هو مشار إليه أو يرى بالأبصار ، أو متصفًا بصفات تقوم به .

وليس ما ذكروه عن اللغة بمستقيم ، فإن اللغة لا يعنون بالجسم المركب ، بل الجسم - عندهم - هو الجسد ، ولا يسمون الهواء جسما .

إذا تبين هذا فتمثيل هؤلاء النصارى باطل ، على قول كل طائفة ، من طوائف المسلمين .

فمنهم من يقول : الجسم - في اللغة - هو المركب ، والله ليس بمركب ، فليس بجسم ، لا يقولون بما ذكروه من أن الله له وجه يوليه إلى كل مكان ، وجنب ونحو ذلك .

وكذلك من قال : إن الله ليس بمركب ، وسماه جسما ، بمعنى أنه قائم بنفسه ، أو لم يسمه جسما ، لا يقول بذلك أيضًا ، ومن حكى عنه أنه يثبت له خصائص الأجسام المركبة .

فهؤلاء إن أطلقوا ما نفاه فلا حجة للنصارى عليهم ، وإن لم يطلقوه فحجتهم أبعد .

فقد تبين أنه ليس لهم حجة على أفسد الناس قولا في التجسيم ، فضلا عن غيرهم .

الوجه السادس : - أن يقال لهؤلاء النصارى : إما أن تعنوا بلفظ الجسم المعنى اللغوي ، وهو الجسد ، إما أن تعنوا به المعنى الاصطلاحي عند أهل الكلام كالمشار إليه مثلا .

فإن عنيتم الأول ، لم يلزم من نفي ذلك نفي ما ذكرتموه من الصفات ، لا سيما وأنتم تقولون : إنه جوهر ، وقسمتم الجوهر إلى لطيف وكثيف .

فإذا كان الكثيف هو الجسم ، واللطيف جوهر ليس بجسم : لم يمتنع على مثال هذا أن يكون له ما يناسبه من الصفات ، كالملائكة ، فإن الملائكة لا يمتنع وصفها بذلك ، وإن لم تكن أجسامًا على هذا الاصطلاح . بل هي جواهر روحانية ، وكذلك روح الإنسان التي تخرج منه ، لا يمتنع وصفها بما يناسبها من ذلك ، وإن كانت ليس بجسم على هذا التقدير .

فتبين أن نفي مسمى الجسم اللغوي عن الشئ لا يمنع اتصافه بما ذكر من

الصفات وأمثالها .

وإن عنيتم بالجسم ، القائم بنفسه أو المشار إليه ، لم يمتنع ـ عندكم ـ أن يكون جسما ، فإنكم سميتموه جوهراً ، وعنيتم القائم بنفسه .

فإن قام الدليل على إن كل قائم بنفسه مشار إليبه ، كان أيضا مشار إليه وإن قام دليل على أنه قائم بنفسه لا يشار إليه ، كان جوهراً وجسما عند من يفسر الجسم القائم بنفسه ، ومن فسره بالمشار إليه لم يسم عنده جسماً ، فتبين أنه على ـ أصلكم ـ لا يمنع أن يسمى جسماً مع تسميتكم له جوهراً إلا إذا أثبت أن الموجودات ما هو جوهر قائم بنفسه لا يشار إليه ، وهذا لم يقيموا عليه دليلا ، وليس هذا قول أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى وإنما طائفة من الفلاسفة ، وقليل من أهل الملل وافقوهم .

ثم يقال لكم : أنتم قلتم : إنه حي ناطق وله حياة ونطق ، بل زدتم على ذلك حتى جعلتموهم أقانيم ثلاثة .

ومعلوم أن الحياة والنطق لا تعقل إلا صفة قائمة بموصوف ، ولا يعلم موصوف بالحياة والنطق إلا ما هو مشار إليه بل ما هو جسم كالإنسان .

فإن جاز لكم أن تثبتوا هذه الأعراض في غير جسم ، جاز لغيركم أن يثبت الجئ واليد ونحو ذلك لغير جسم .

وإن قلتم : هذا لا يعقل إلا لجسم ، قيل لكم : وذلك لا يعقل إلا لجسم فإن رجعتم إلى الشاهد ، كان حجة عليكم ، وإن جاز لكم أن تثبتوا الغائب حكما على خلاف الشاه : أجاز لغيركم ، وحينئذ فلا تناقض بين ما نفاه المسلمون وأثبتوا، لو كان ما ذكرتموه عليهم من النفي والإثبات حقًا على وجهه ، فكيف وقد وقع التحريف في الطرفين؟!

الوجه السابع : ـ أن يقال : غاية مقصودكم أن تقولوا : إن المسلمين لما أطلقوا ألفاظا ظاهرها كفر عندهم ، لمجئ النص بها ، وهم لا يعتقدون ظاهر مدلولها ، كذلك نحن أطلقنا هذه الألفاظ التي ظاهرها كفر ، لمجئ بها النص بها ، ونحن لا نعتقد مدلولها :

فيقال لكم : أولا : ـ إن ما أطلقه المسلمون من نصوص الصفات أطلقتموه أنتم ، كما وردت به التوراة ، فهذا مشترك بينكم وبينهم ، وما خصصتم به من التثليث ، والاتحاد لم يشركوكم فيه .

ثم يقال ثانيًا : إن المسلمون أطلقوا ألفاظ النصوص ، وأنتم أطلقتم ألفاظًا لم يرد بها نص .

والمسلمون قرنوا تلك الألفاظ بما جاءت به النصوص من نفى التمثيل .

وأنتم لم تقرنوا بألفاظكم ما ينفي ما أثبتموه من التثليث والاتحاد والمسلمون لم يعتقدوا معنى باطلا .

وأنتم اعتقدتم من التثليث في الأقانيم ، والاتحاد ما هو معنى باطل .

والمسلمون لم يسموا صفات الله بأسماء أحدثوا تسمية الصفات بها ، وحملوا كلام الرسل عليهم .

وأنتم أحدثتم لصفات الله أسماء سميتموه أنتم بها لم تسمه بها الرسل وحملتم كلام الرسل عليها .

والمسلمون لم يعدلوا عن النصوص الكثيرة المحكمة البينة الواضحة إلى ألفاظ قليلة متشابهة .

وأنتم عدلتم عن هذا إلى هذا .

والمسلمون لم يضعوا لهم شريعة اعتقاد غير ما جاءت به الرسل .

وأنتم وضعتم شريعة اعتقاد غير ما جاءت به الرسل .

والمسلمون لم يقولوا قولا لا يعقل .

وأنتم قلتم قولا لا يعقل .

والمسلمون لم يتناقضوا ، فيجعلوا الإله واحداً ، وتجعلونه اثنين ، بل ثلاثة ، وأنتم تناقضتم .

فهذه الفروق وغيرها مما يبين فساد تشبهكم أنفسكم بالمسلمين .

الوجه الثامن : ـ قولكم : وكذلك ـ نحن ـ النصارى العلة في قولنا : « إن الله ثلاثة أقانيم ، أب ، وابن ، وروح قدس » إن الإنجيل نطق به .

فيقال لكم : هذا باطل ، فإنه لم ينطق ، لا الإنجيل ولا شئ من النبوات بأن الله ثلاثة أقانيم ولا خص أحد من الأنبياء الرب بثلاث صفات دون غيرها ، ولا قال المسيح ولا غيره : إن الله هو الأب ، الابن ، وروح القدس ، ولا إن له أقنوما هو الابن ، وأقنوما هو روح القدس ولا قال : إن الابن كلمته أو علمه أو حكمته أو نطقه ، وإن روح القدس حياته ، ولا سمى شيئًا من صفاته ابنًا ولا ولدًا ، ولا قال عن شى من صفات الرب : إنه مولود ، ولا إنه جعل القديم الأزلي مولودًا ، ولا قال لا عن قديم ، ولا مخلوق : إنه إله حق من إله حق ، ولا قال عن صفات الله : إنها آلهة ، وإن الكلمة إله والروح إله ، ولا قال : إن الله اتحد لا بذاته ولا بصفاته بشئ من البشر ، بل هذا كله مما ابتدعتموه ، وخرجتم به عن الشرع والعقل ؛ فخالفتم الكتب المنزلة والعقول الصريحة ، وكنتم ممن قيل فيه : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ (الملك : ١٠) فإنكم أنتم الذين سميتم نطق الله ابنًا ، وقلتم : سميناه ابنًا ؛ لأنه تولد منه كما

يتولد الكلام من العقل ، فكان ينبغي أيضًا أن تسموا حياته ابنًا ، لأنها منبثقة منه ، ومتولدة عنه أيضًا ، إذ لا فرق بين علم الرب وحياته .

فعلمه لازم له ، وحياته لازمة له ، فلماذا جعلتم هذا ابنًا دون هذا .

وقلتم : إنه مولود من الله ، وإنه قديم أزلي وأنتم تعرفون بأن أحدًا من الأنبياء لم يسم علم الله ولا كلامه ، ولا حكمته مولودًا منه ؟

والذي يعقله الخلق في المولود الذي يولد من غيره ، كما يتولد العلم والكلام من نفس الإنسان إنه حادث فيه أو منفصل عنه ، لايعقل أنه قائم به ، وإنه متولد منه قديم أزلي .

ثم قلتم في أمانتكم : إنه تجسم من الروح القدس ، أو منه ومن مريم .

وهو إنما تجسم - عندكم - من الكلمة التي سمعتموها ، الابن دون روح القدس وإن كان تجسم من روح القدس ، فيكون هو روح القدس لا يكون هو الكلمة التي هي الابن ، ثم تقولون « هي كلمة الله وروحه » فيكون حينئذ أقنومين ، أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح ، وإنما هو - عندكم - أقنوم واحد .

فهذا تناقض وحيرة ، تجعلونه الابن الذي هو الكلمة ، وهو أقنوم الكلمة فقط وتقولون : تجسم من روح القدس . ولا تقولون : إنه تجسم من الكلمة .

وتقولون : هو كلمة الله وروحه ، والكلمة والروح أقنومان .

ولا تقولون : إنه أقنومان ، بل هو أقنوم واحد .

وتقولون : إنه خالق العالم ، والخالق هو الأب ، وتقولون : ليس هو الأب .

وتقولون : إله حق من إله حق ، وتقولون : إله واحد ساوى الأب في الجوهر وتقولون : ليس له مثل ، وليس شيء من هذا في كلام أحد من الأنبياء ، فكيف

تشبهون أنفسكم بمن اتبع نصوص الأنبياء ولم يحرفها ؟

وغاية ما عندكم ما وجد في إنجيل « متّى » دون سائر الأناجيل ، من أن المسيح ، عليه السلام قال : عمدوا الناس باسم الأب ، والابن ، والروح القدس .

وأنتم قد عرفتم في كلام المسيح وغيره من الأنبياء ، أنهم لا يريدون بالابن صفة الله لا كلامه ، ولا علمهم ، ولا حكمته .

ولا يريدون بالابن ، إله حق من إله حق ، ولا مولود قديم أزلي ، بل يريدون به وليه ، وهو ناسوت لا لاهوت ، كيعقوب والحواريين .

ولا يريدون بروح القدس نفس حياة الله ، ولا يريدون به أنه رب حي ، وإنما يريدون بها الملك ؛ أو ما ينزل الله على قلوب أنبيائه وأصفيائه ، من الهدى والتأييد ونحو ذلك .

فروح القدس يكون ـ عندكم وعند المسلمين ـ في الأنبياء وغيرهم ، كما كانت في داود وغيره ، وكانت في الحواريين .

فلو قدر أن لفظ الابن وجد في كلام المسيح مستعملا تارة كلمة الله ، وتارة في وليه الناسوت ، وروح القدس مستعملا تارة في حياته ، وتارة فيما ينزله على قلوب أنبيائه ، كان جزمكم بأنه أراد بذلك هنا صفات الله ، جزما باطلا مما وصف به المسيح من أنه ابن الله ، ومن أن روح القدس فيه ، قد وصف به غيره من الأنبياء والصالحين .

فإن كان الابن ، وروح القدس صفتين لله ، وجب أن يكون غير المسيح لاهوتًا وناسوتًا ، كالمسيح ؛ إذ الذي حل في المسيح ، حل في غيره .

ثم جزمكم بأن هذه صفات ، أقانيم ، وإنه ليس لله صفات ذاتيه أو جوهرية أو غير ذلك إلا هذه الثلاثة ، ثم تفرقتم في الثلاثة : هل المراد بالأقانيم الوجود

والعلم والحياة ، أو الحكمة والكلام ، أو النطق بدل لفظ العلم ، أو المراد الوجود والعلم والقدرة ، بدل الحياة ، أو المراد الوجود والحياة والقدرة ، أو المراد الوجود مع الحياة والعلم والقدرة ؟ إلى أقوال أخر يطول أمرها .

فياليت شعري ، ما الذي أراد المسيح بلفظ الأب والابن ، وروح القدس من هذه الأمور التي اختلفتم فيها ، وكان مراده ما ادعيتموه من الاقانيم ؟؟

والأقانيم ـ لفظًا ومعنى ـ لا يوجد في كلام أحد من الأنبياء ، بل قيل فيها : إنها لفظة رومية ، يفسرونها تارة بالأصل ، وتارة بالشخص ، وتارة بالذات مع الصفة ، ويفسرونها تارة بالخاصة ، وتارة بالصفة .

فلا تركتم كلام المسيح على حاله ، ولم تحرفوه هذه التحريفات ؟

ولقد أحسن بعض الفضلاء إذ قال : لو سألت نصرانيًا وابنه ، وابن ابنه عما يعتقدون ؛ لأخبرك كل واحد بعقيدة تخالف عقيدة الآخر ، إذ كان أصل اعتقادهم جهلا وضلالا ، ليس معهم علم ، لا نقل ولا عقل ، فهم كما قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

وليس معهم بما اعتقدوه من التثليث والاتحاد علم ، بوجه من الوجوه ، فضلا عما هو أخص من ذلك ، وهو علم يهتدون به ، فليسوا بمهتدين فضلا عما هو أخص من الهدى وهو « كتاب منير » فليس معهم به كتاب منير ، ولو تكلمتم بهذا الكلام ، وقلتم : لا نفهم معناه ، أو ظاهره باطل ، وله تأويل مقبول ، كما حكيتموه عمن تشبهتم به من المسلمين من أنه يقوله في الصفات ، لكان هذا أقرب إلى القياس فكيف والأمر بالعكس ما ذكرتم ؟؟! .

وذلك يتبين بالوجه التاسع : ـ وهو إنكم إنما ضللتم بعد وانكم عن صريح كلام الأنبياء وظاهره ، إلى ما تأولتموه عليه من التأويلات التي لا يدل عليها

لفظه ، لا نصاً ولا ظاهراً ، فعدلتم عن المحكم واتبعتم المتشابه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله .

فلو تمسكتم بظاهر هذا الكلام ، لم تضلوا ، فإن الابن ظاهره كلام الأنبياء لا يراد به شئ من صفات الله ، بل يراد به وليه ، وحبيبه ونحو ذلك وروح القدس لا يراد به صفته بل يراد به وحيه وملكه ونحو ذلك .

فعدلتم عن ظاهر اللفظ ومفهومه إلى معنى لا يدل عليه اللفظ ألبتة فكيف تدعون أنكم اتبعتم نصوص الأنبياء ؟!!

الوجه العاشر : ـ إنكم بالغتم في ذم المسيح وإنجيله ، كما بالغتم في سب الله وشتمه ، وإن كنتم لا تعلمون أن ذلك ذم ، فلم ترضوا أن تجعلوا ظاهر كلام المسيح ما أنتم عليه من الكفر ، حتى جعلتم ظاهره كفراً لا ترضونه ، مثل ثلاثة آلهة ، متفقة أو متفرقة ، أو ثلاثة أجسام مؤلفة ، أو ثلاثة أجزاء مفرقة أو ثلاثة أشخاص مركبة .

فهذا ونحوه هوالذي ادعيتم أنه ظاهر كلام المسيح عليه السلام .

وأنتم لا تقولون بهذا الظاهر ، بل تكفرون قائله ، كا يكفر المسلمون من يقول بالظاهر الذي هو التجسيم والتمثيل .

وهذا مما يتضمن أن كلام المسيح ظاهر في إثبات ثلاثة آلهة وثلاثة أشخاص مؤلفة وثلاثة أجزاء أشخاص مؤلفة وثلاثة أجزاء متفرقة وثلاثة أشخاص مركبة كمازعمتم أن ظاهر القرآن التجسيم ، وإنكم عدلتم عن هذا الظاهر إلى إثبات الأقانيم الثلاثة التي جعلتم فيها كلمة الله ، هي ابنه ، وهو جوهر خالق يساويه في الجوهر . وأن المسيح هو هذا الابن المساوي للأب في الجوهر خالق العالمين وديان يوم الدين ، والجالس فوق العرش عن يمين الرب ، وإنه إله حق ، والروح

أيضاً إله ثالث ، والآلهة الثلاثة إله واحد

وهذا الذي ذكرتموه فيه من عيب المسيح وذمه ، ما ينتصر الله به للمسيح ، ولمن افترى عليه منكم ومن غيركم .

فإن المسيح عليه السلام ـ على قولكم ـ لم يفصح لكم بأمانة تعتقدونها ، ولا بتوحيد تعرفون به ربكم ، عز وجل ، بل تكلم بما ظاهره إثبات ثلاثة آلهة ، وثلاثة أجسام مركبة ، وثلاثة أجزاء متفرقة ، وإنكم أنتم أصلحتم ذلك ، حتى جعلتموه ثلاثة أقانيم ، ووضع تلك الأمانة المخالفة لعقول ذوي العقول ولكل كتاب جاء به رسول ، مع أن المسيح لم ينطق بتثليث قط ولا باتحاد ولا بما يدل على ذلك .

وعمدتم على ما نقله « متى » عنه دون الثلاثة أنه قال : عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس .

وهذا الكلام ظاهره ـ بل نصه ـ حجة على خلاف قولكم ، وإنه أراد بالابن نفسه وهو الناسوت ، لم يرد به صفة الله ، وأراد بروح القدس ماأيده الله به ، أو روح القدس الذي نفخ في أمه حتى حبلت به ، لم يرد به صفة الله تعالى .

فتأولتم كلامه على خلاف ظاهره ، تأويلا يخالف صريح المعقول ، وصحيح المنقول . فكيف تدعون أنكم تمسكتم بظاهر كلامه ؟!

ولما كان قول النصارى في التثليث متناقضاً في نفسه لا حقيقة له ، صار مجرد تصوره التام كافياً في العلم بفساده من غير احتياج إلى دليل ، وإن كانت الأدلة تظهر بفساده .

ولهذا سلك من طائفة العلماء في الكلام معهم هذا المسلك وهو أن مجرد تصور مذهبهم كاف في العلم بفساده ، فإنه غير معقول .

وقالوا : إن النصارى ناقضت في اللفظ وأحالت في المعنى ، فلا يجوز أن يعتقد ما يدعون انتحاله لتناقضه .

وذلك أنهم يزعمون أن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، وهذا لا يصح اعتقاده ، لأنه لا يجوز أن يعتقد المعتقد في الشى أنه ثلاثة مع اعتقاده فيه أنه واحد لأن ذلك متضاد .

وإذا كان ذلك كذلك ، فليس يخلو من أن يعتقد أنه ثلاثة ، أو أنه واحد وليس يحتاج أن يعرف بدليل بطلان قول من ادعى أن الواحد ثلاثة ، وأن الثلاثة واحد ،لأن ذلك لا يعقل .

وهو كمن ادعى في الشئ أنه موجود معدوم ، أو قديم محدث ، أو في الجسم أنه قائم قاعد ، متحرك ساكن ..

وإذا كان كذلك فتناقضه أظهر من أن يحتاج فيه إلى دلالة .

وإذ قال النصارى : إنه أحدى الذات ثلاثي الصفات .

قيل : أو اقتصرتم على قولكم : إنه واحد وله صفات متعددة ، لم ينكر ذلك عليكم جمهور المسلمين ، بل ينكرون تخصيص الصفات بثلاث . فإن هذا باطل من وجوه متعددة .

منها : أن الأب عندكم هو الجوهر ليس هو صفة ، فلا يكون له صفة إلا الحياة والعلم ، فيكون جوهراً واحداً له أقنومان ، وأنتم جعلتم ثلاثة أقانيم .

ومنها : أن صفات الرب لا تنحصر في العلم والحياة ، بل هو موصوف بالقدرة وغيرها .

ومنها : أنكم تارة تفسرون روح القدس بالحياة ؛ وتارة بالقدرة وتارة

بالوجود .

وتفسرون الكلمة ، تارة بالعلم ، وتارة بالحكمة ، وتارة بالكلام .

فبطلان قولكم في إثبات ثلاث صفات كثيرة ، وأنتم ـ مع هذا ـ تجعلون كل واحد منهما إلها .

فتجعلون الحياة إلهًا ، والعلم إلهًا ، وهذا باطل .

وأما من لم يثبت الصفات من المسلمين وغيرهم ، فيردون عليكم من وجوه أخرى ، كقول بعضهم : إذا قيل : ألستم تقولون : إن الأبعاض الكثيرة تكون إنسانًا واحدًا والآحاد الكثيرة عشرة واحدة والأجسام الكثيرة دارًا واحدة ومدينة واحدة وما جرى هذا المجرى ، مما هو أكثر من أن يحصى ، وأظهر من أن يخفى .

فكيف عبتم ذلك من النصارى ؟ ولِمَ أنكرتم أن يكون ثلاثة أقانيم جوهرًا واحدا؟

قيل : إن قولنا إنسان واحد ، ودار واحدة ، وعشرة واحدة وما يجري هذا المجرى ، أسماء تنبئ عن الجمل لا عن آحاد .

وإذا قلنا : إنسان واحد ، فكأنا قلنا جملة واحدة ، وكذلك إذا قلنا : عشرة واحدة ، لا أنا نثبته واحدًا في الحقيقة .

كيف ونحن نقول : إن أبعاض الإنسان متغايرة ؛ فكل بعض منها غير سائرها ، وكذلك كل واحد من العشرة غير سائرها ؟

فنحن وإن قلنا : إنسان واحد ، فلسنا نثبته شيئا واحدا في نفسه ولو أثبتنا ذلك لتناقضنا مناقضة النصارى . وإنما قلنا : هي جملة واحدة ، ولو قالت

النصارى مثل ذلك لم تتناقض حتى تزعموا أنها ثلاثة أشياء جملة واحدة .

فيكون مرادهم في ذلك بوصفهم الأقانيم الثلاثة ، بأنها جوهر واحد مما نريد بقولنا : الأبعاض الكثيرة إنه إنسان واحد .

فيكون وصفهم لها بأنها جوهر ، إنما ينبئ أنها جملة ، وليس هذا مما يذهبون إليه ، ولا يعتقدون ولا يجعلون له معنى ، لأنهم لا يعطون حقيقة التثليث ، فيثبتون الأقانيم الثلاثة متغارية ، ولا حقيقة التوحيد ؛ فيثبتون القديم واحدًا ليس باثنين ولا أكثر من ذلك .

وإذا كان ذلك كذلك ، فما قالوه ، هو شئ لا يعقل ولا يصلح اعتقاده ويمكن أن يعارضوا على قولهم بكل حال .

فيقال لهم : إذا جاز عندكم أن تكون ثلاثة أقانيم جوهرًا واحدًا ، فلِمَ لا يجوز أن تكون ثلاثة آلهة جوهرًا واحدًا وثلاثة فاعلين جوهرًا واحدًا ، وثلاثة أغيار جوهرًا واحدًا ، وثلاثة أشياء جوهرًا واحدًا ، وثلاثة قادرين جوهرًا واحدًا ، وكل ثلاثة أشياء جوهرًا واحدًا ؟ وكل ما يجري هذا المجرى من المعارضة ، فلا يجدون فصلا .

الوجه الحادي عشر : أن غلاة المجسمة الذين يكفرهم المسلمون أحسن حالا منكم ، شرعًا وعقلا وهم أقل مخالفة للشرع والعقل منكم .

فإذا كان هؤلاء خيرًا منكم ، فكيف تشبهون أنفسكم بمن هو خير من هؤلاء من أهل السنة من المسلمين الذين لا يقولون ، لا بتمثيل ولا بتعطيل ؟

وبيان ذلك أن التوراة والإنجيل وسائر كتب الله وغير ذلك مما هو مأثور عن الأنبياء ، فيه نصوص كثيرة صريحة ظاهرة واضحة في وحدانية الله وأنه لا إله غيره ، وهو مسمى فيها بالأسماء الحسنى ، موصوف بالصفات العليا ، وإن كل

ما سواه مخلوق له ، ليس فيها تثليث ولا اتحاد الخالق بشئ من المخلوقات لا المسيح ولا غيره .

وفيها ألفاظ قليلة مشكلة متشابهة ، وهي ـ مع ذلك ـ لا تدل على ما ذكرتموه من التثليث والاتحاد ، ولا نصًا ولا ظاهرًا ، ولكن بعضها يحتمل بعض ما قلتم ، وليس فيها شئ يحتمل جميع ما قلتم ، فضلا عن أنت يكون ظاهرًا فيه أو نصًا بل بعضها يحتمل بعض قولكم .

فأخذتم ذلك المحتمل وضممتم إليه من الكفر الصريح ، والتناقض القبيح ما صيرتموه أمانة لكم (أي عقيدة إيمان لكم) .

ولو كانت كلها تحتمل جميع ما قلتم ، لم يجز العدول عن النص والظاهر إلى المحتمل ، ولو كان بعضها ظاهرًا فيما قلتم ، لم يجز العدول عن النصوص الصريحة إلى الظاهر المحتمل .

ولو قدر أن فيها نصوصًا صريحة قد عارضتها نصوص أخرى صريحة ، لكان الواجب أن ينظروا بنور الله الذي أيد به عباده المؤمنين ، فيتبعون أحسن ما أنزل الله ، وهو المعنى الذي : يوافق صريح المعقول وسائر كتب الله ، وذلك النص الآخر إن فهموا تفسيره ، وإلا فوضوا معناه إلى الله إن كان ثابتًا عن الأنبياء ، وهؤلاء عدلوا عما يعلم بصريح المعقول وعما يعلم بنصوص الأنبياء الكثيرة إلى ما يحتمله بعض الألفاظ ، لموافقته لهواهم فلم يتبعوا ﴿ إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ (النجم :٢٣)

وأما كفار المجسمة ، فهؤلاء أعذر وأقل كفرًا من النصارى . فإن هؤلاء يقولون كما يقوله معهم النفاة : إن ظواهر جميع الكتب هو التجسيم .

ففي التوراة ، والقرآن من الآيات التي ظاهرها التجسيم ، مالا يحصى .

وليس فيها نص بما يقوله النفاة ، من أن الله ، ليس بداخل العالم ، ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه ، ولا هو فوق العرش ، ولا يشار إليه ، ولا يصعد إليه شئ ، ولا ينزل منه شئ ولا يقرب منه شئ ، ولا يدنو من شئ ولا يدنوإليه شئ ، إلى نحو ذلك من النفي الذي يقوله نفات الصفات .

فمعلوم أنه ليس في الكتب الإلهية لا في التوراة ولا الإنجيل ، ولا الزبور ، ولا القرآن ـ ولا غير ذلك من النبوات ، من هذا حرف واحد ، وكلها مملوءة مما يقول هؤلاء : إنه تجسيم .

فيقول هؤلاء : نحن اتبعنا نصوص الأنبياء ، ولم نعدل عنها إلى غيرها ، ولم نجد في نصوصهم نصا محكما صريحًا بالنفي الذي يقوله نفاة الصفات .

ووجدنا نصوصهم كلها بالإثبات الذي يقولون : إنه تجسيم .

فكان على قولنا وقولهم نصوص الأنبياء ظاهرة في التجسيم وليس لهم نص يناقض ذلك ، فاتبعنا نصوصهم ، وكل من عارض إثبات الصفات ، لم يعارضها بنصوص صريحة عن الأنبياء ، لكن بحجج عقلية .

فيقول هؤلاء : إن النصارى خالفوا صريح المعقول ، وصريح كلام الأنبياء واتبعوا قليلا من متشابه كلامهم . ونحن اتبعنا نصوص الأنبياء ، ولم نخالف شيئًا من صريح نصوصهم . ولكن مخالفنا يقول : إنا خالفنا العقل .

ونحن ننازعه في ذلك ، وندعي أن العقل معنا لا علينا ، وإن ما ندعيه من المعقولات التي تعارض كلامهم الأنبياء ، فهي باطلة .

أو يقولون : نحن والنصارى متفقون ، على أنه لا نعارض كلام الأنبياء بالشبه العقلية ، لكن نحن اتبعنا كلامهم المحكم الظاهر الكثير ، الذي لا مخالف له من كلامهم .

وهم خالفوا كلامهم الكثير المحكم ، واتبعوا قليلا من المتشابه .

ويقول الغلاة من هؤلاء الذين يكفرهم أئمة المسلمين وجمهورهم الذين يحكى عنهم : إن الله ينزل إلى الأرض عشية عرفة ، فيعانق المشاة ، ويصافح الركبان وإنه يتمشى في الأرض ، يكون موطئ أقدامه مروجا ، ونحو ذلك .

ليس هذا القول بأعجب من قول النصارى ، الذين يقولون : إنه هو المسيح وإن اللاهوت والناسوت اتحد .

فنحن نقول أيضًا : إنه حل في بعض الأجساد المخلوقة ، كما يقوله النصارى أو نقول : إنه تجسد كما تتجسد الملائكة والجن ، وهذا أقرب من قول النصارى : إنه اتحد بجسم المسيح .

فإنا قد عهدنا للطائف من الملائكة تتصور في صورة بشرية ، ولم نعهد ملكا صار هو والبشر شيئًا واحدًا .

فإذا لم يجز أن يتحد بالبشر ، فكيف يجوز أن يتحد رب الخلائق كلهم بالبشر ؟

قالوا : وقد يحل الجني في بدن الإنسي ، ويتكلم على لسانه ، إلا إنهما جوهران ومشيئتان وطبيعتان . ليس بينهما اتحاد ، لكنه دخل فيه وتكلم على لسانه .

والنصارى يقولون : إن رب العالمين اتحد بالبشر ، فمنهم من يقول جوهر واحد ومنهم من يقول : شخص واحد وأقنوم واحد ، ومنهم من يقول مشيئة واحدة ، فلا بد لكل منهم من نوع واتحاد ، وهذا ابعد من حلول الجني في الإنسي .

فإذا كان ما يقولونه ممتنعًا في الجن والملائكة ، فكيف برب العالمين ؟

ومن غلاة المجسمة ، اليهود ، من يحكي عنه أنه قال : إن الله بكى على الطوفان حتى رمد ، وعادته الملائكة ، وإنه ندم حتى عض يده وجرى منه الدم ، وهذا كفر واضح ، و لكن يقولون قولنا خير من قول النصارى ، فإن النصارى يقولون :إنه أُخِذَ وضُرِبَ بالسياط وبُصِقَ في وجهه ، وَوُضِعَ الشوك على رأسه كالتاج ، وصلب بين لصين ، وفعل به من أقبح ما فعل باللصوص ، قطاع الطرق وقد صرح كثير منهم بأن هذا فُعِلَ باللاهوت والناسوت جميعًا

وشريعة إيمانهم تدل على ذلك ، وهو لازم لمن أنكر ذلك منهم ، فإنه مع القول بالاتحاد ، الذي لا بد لطوائفهم الثلاثة منه ، يمتنع أن تحل هذه العقوبات في هذا دون ذاك ، فلا يمكن أن يحل في الناسوت دون اللاهوت ، فإن هذا إنما يتصور إذا كانا اثنين .

ومن قال بالاتحاد امتنع عنده أن يكون هناك اثنان .

وفي الجملة ، فالنصارى المثلثة ، إما أن يصرحوا بالاتحاد من كل وجه ، كاليعقوبية ، وهؤلاء يصرحون بأن الآلام حلّت باللاهوت .

وإما أن يقولوا بالاتحاد من وجه ، كقول الملكية : إنهما شخص واحد ؛ وقول النسطورية : هما مشيئة واحدة .

وحينئذ فما قالوه من التعدد والموت الذي يوجب المباينة ، وإنه لا يتصف أحدهما بما يتصف به الآخر ، ولا يحل به ما حل به ، فيكون متناقضًا لهذا .

فأحسن أحوالهم أن يتناقضوا في الاتحاد ، كما تناقضوا في التثليث وهذا حقيقة قول خيار هؤلاء يتكلمون بالكفر وبما يناقضه ، وبالتوحيد وبما يناقضه .

ومعلوم أن ما يفعله بنفسه من ندم وبكاء وحزن ، وهو دون ما يفعله أعداؤه به ، ومن ضرب ، وصفع ، وجعل الشوك على رأسه ، وصلبه بين لِصين وأن

استغاثته بمن يخلصه من ذلك أشد نقصًا من ندمه وحزنه .

وإن قالوا : فعل هذا حتى يعلم عباده التشبه به . أمكن أولئك المجسمة أن يقولوا : بكى وندم ، وعض يده ندمًا حتى جرى الدم ، حتى يعلم عباده التوبة من الذنوب .

ففي الجملة ما قال قوم من أهل الملل قولا في الله ، إلا وقول النصارى أقبح منه .

ولهذا كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول : لا ترحموهم فقد سبوا الله مسبة ، ما سبه إياها أحد من البشر ، ولهذا يعظم الله فريتهم على الله في القرآن أشد من تعظيم افتراء غيرهم كقوله ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا * لقد جئتم شيئًا إدًا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا * أن دعوا للرحمن ولدًا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدًا * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدًا * لقد أحصاهم وعدهم عدًا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا ﴾ (سورة مريم : ٨٨ ، ٩٥) .

وفي الصحيحين (١) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، فأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدًا ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفوًا أحد ، وأما تكذيبه إياي

---

(١) الحديث موجود في البخاري فقط وليس في مسلم

صحيح من رواية أبي هريرة ، رواه البخاري في كتاب « التفسير » باب قوله تعالى « قل هو الله أحد » (٨ / ٦١١ ح ٤٩٧٤) ، ورواه أيضًا برقم (٤٩٧٥) ، ورواه النسائي في السنن في كتاب « الجنائز » باب « أرواح المؤمنين » (٤ / ١١٢) ، ورواه أيضًا في الكبرى (١ / ٦٦٦ ح ٢٢٠٥) ، ورواه أيضًا برقم (٧٦٦٧ ، ١١٣٣٨) ، ورواه أحمد (٢ / ٣١٧)

فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من أعادته » .

ورواه البخاري (١) عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : « كذبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ، ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي ، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمته إياي فقوله : لي ولد ، فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولدًا»

وفي الصحيحين (٢) عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل ، إنه يشرك به ، ويجعل له نِد وهو يعافيهم ويرزقهم ويدفع عنهم » .

الوجه الثاني عشر : أن كل من يعتقد التجسيم ما يعتقد ،يمكنه أن يقول كما يقوله النصارى ، فإن النصارى عمدوا إلى ما هو جسد من جنس سائر أجساد بني آدم . قالوا : إنه إله تام ، وإنسان تام . وليس فيه من الإلهية شئ ، فما بقي - مع هذا - يمتنع أن يعتقد في نظائره ما يعتقد فيه .

فلو قال القائل : إن موسى بن عمران كان هو الله ، لم يكن هذا أبعد من قول النصارى ، فإن معجزات موسى ، كانت أعظم ، وانتصاره على عدوه أظهر ،

---

(١) صحيح من رواية ابن عباس ، رواه البخاري في كتاب « التفسير » باب قوله تعالى « وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه » (٨ / ١٨ ح ٤٤٨٢)

(٢) « متفق عليه » من رواية أبي موسى ، رواه البخاري في كتاب « الأدب » باب « الصبر في الأذى » (١٠ / ٥٢٧ ح ٦٠٩٩)

ورواه أيضًا برقم (٧٣٧٨)

ورواه مسلم في كتاب « صفات المنافقين » باب « لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل » (٤ / ٢١٦٠ح ٢٨٠٤)

ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « النعوت » باب « قول الله عز وجل ، هو الرزاق » (٤ / ٤٠٦ ح ٧٧٠٨) ، ورواه أيضا ـ برقم (١١٤٢٣ ، ١١٤٤٥)

وقد سماه الله في التوراة إلهًا لهارون ولفرعون .

فإذا قيل فيه ما قالوا في المسيح : إنه أظهر المعجزة بلاهوته ، وأظهر العبودية بناسوته ، لم يكن بطلان هذا أظهر من بطلان قول النصارى ، بل متى جوزوا اتحاد اللاهوت بالناسوت ، لم يمكنهم دفع ذلك عن أحد ممن يدعي فيه إلا بدليل خاص بل إذا قيل لهم : حل في كثير من الأنبياء ، والقداديس لم يمكنهم نفي ذلك .

وإذا قالوا : لم يخبر بذلك أحد ، ولم يبشر به نبي ، أو هذا غير معلوم

قيل لهم : غاية هذا كله ، أنكم لا تعلمون ذلك ، ولم يقم عندكم دليل عليه ، وعدم العلم ليس علمًا بالعدم ، فعدم علمكم ، وعدم علم غيركم بشئ ، وليس علمًا بعدم ذلك الشئ .

وكذلك عدم الدليل المعين ، لا يستلزم عدم المدلول عليه ، فإن كل ما خلقه الله دليل عليه ، ثم إذا عدم ذلك ، لم يلزم عدم الخالق فلا يجوز نفي الشئ لعدم الدليل الدال عليه إلا أن يكون عدم الدليل مستلزمًا لعدمه ، كالأمور التي تتوفر الهمم على نقلها إذا لم ينقل علم انتفاؤها

والمقصود أنكم ـ مع العدم ـ لا يمكنكم النفي العام عن غير المسيح لعدم الدليل الدال عليه ، فإنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول في نفس الأمر ، لا سيما وهو كان متحدًا بالمسيح عندهم أكثر من ثلاثين سنة ، ومع هذا فكان يخفي نفسه ولا يظهر إلا العبودية .

فإذا قيل لهم : هكذا كان متحدًا بغيره من الأنبياء والصالحين ، ولكن أخفى نفسه لحكمة له في ذلك ، أوأظهر على نفسه بعض خواص عباده ، أو أظهر لطائفة لم ينقل إلينا خبرهم ونحو ذلك ، لم يمكن ـ مع تصديق النصارى فيما

يدعونه ـ الجزم بكذب هؤلاء . بل جوز قول النصارى ، جوز أن يكون متحداً بغير ذلك من الأجسام ، فيجعل كثيراً من الأجسام المخلوقة هي رب العالمين ، إذ كان ليس هو متحداً بها في نفس الأمر .

فإذا اعتقدوا الاتحاد فيها ، كما اعتقدته النصارى في المسيح ، لم يكن ثم إله في الحقيقة إلا ذلك الجسم الناسوتي المخلوق .

لكن ظن الضال أنه رب العالمين كما ظن عباد العجل أن العجل إله موسى .

فإذا جاز أن يتحد الرب عز وجل ببعض الأجسام ، لم ينكر على أصحاب العجل إذا جوزوا أن يكون رب العالمين اتحد بالعجل ، وقد رأوا منه نوع خرق عادة ، فليس للنصارى أن ينكروا على عباد العجل . ولا عباد شئ من الأصنام ، إذا أمكن أن يكون الرب عز وجل حل فيها عندهم ، إن لم يقيموا دليلا على أن الرب لم يحل في ذلك .

فإذا قيل : إن موسى عليه السلام أنكر على عباد العجل .

قيل : نعم . وموسى ينكر على كل من عبد شيئًا من المخلوقات ، حتى لو عبد أحد الشجرة التي كلمه الله منها ، لأنكر عليه ، فإنكاره على النصارى أعظم .

وموسى عليه السلام ، لم يقل قط : إن الله يتحد بشئ من المخلوقات ويحل فيه ؟ بل أخبر من عظمة الله عز وجل بما يناقض ذلك .

ففي التوراة ، من نهيه عن عبادة ما سوى الله ، ومن تعظيم أمره ، وعقوبة المشركين به ، وبما أخبر به من صفات الله عز وجل ، ما يناقض قول النصارى ولهذا كان من تدبر التوراة وغيرهما من كلام الأنبياء عليهم السلام من النصارى ، تبين له أن دينهم يناقض دين الأنبياء كلهم ، وإن ما هم عليه من التثليث والاتحاد والشرك ، لم يبعث به أحد من الأنبياء عليهم السلام . وما يفعلونه من

دعاء المخلوقين كالملائكة ، أو كالأنبياء والصالحين الذين ماتوا مثل دعائهم مريم وغيرهم ، وطلبهم من الأموات الشفاعة لهم عند الله ، لم يبعث به أحد من الأنبياء . فكيف وقد صوروا تماثيلهم ، ليكون تذكيرًا لهم بأصحابها ويدعون تلك الصورة ؟!

وإن قصدوا دعاء أصحابها فهم إذا صرحوا بدعاء أصحابها وطلبوا منهم الشفاعة وهم موتى وغائبون ، كانوا مشركين .

فكيف إذا كان الدعاء في الظاهر لتماثيلهم المصورة ؟! وهذا مما يعترفه حذاق علمائهم بأنه مخالف لدين الأنبياء كلهم .

ولهذا وقع بينهم تنازع في اتخاذ الصور في الكنائس ، لما ابتدعه بعضهم كما هو مذكور في أخبارهم ، ولم يأت من ابتدع بحجة شرعية .

والمجسمة يعتقدون أن الله قديم أزلي ، وأنه عظيم جدًا ، لا يقولون : إنه متحد بشيئ من الأجسام المخلوقة ، ولا يحل فيها .

فمن قال باتحاده وحلوله فيها ، كان قوله شرا من قول هؤلاء المجسمة .

كما أن المتفلسفة الذين يقولون بأن الأفلاك أجسام قديمة أزلية واجبة بنفسها أولها علة تتشبه بها كما يقوله « أرسطو » وذووه ، أو يثبتون له علة فاعلة لم تزل مقارنة لها كما يقوله « ابن سينا » وأمثاله .

وهؤلاء قولهم شر من قول اليهود والنصارى ومشركي العرب الذين يثبتون للسموات والأرض خالقًا خلقها بمشيئته وقدرته .

ولو قال من قال منهم : إن ذلك جسم فغايته أن يثبت جسما قديمًا أزليًا موصوفًا بصفات الكمال .

ممن أثبت جسما قديمًا أزليًا ليس موصوفًا بصفات الكمال ، كان قوله شرًا من قول هذا .

فتبين أن المجسمة الذين يثبتون جسما ، قديمًا أزليًا واجب الوجود بنفسه ، عالمًا بكل شئ قادرًا على كل شئ مع قولهم : إنه تحله الحوادث ، وتقوم به الحركة والسكون ، خيرًا من قول الفلاسفة الذين يقولون : إن الأفلاك أجسام قديمة أزلية واجبة الوجود بنفسها ، كما يقوله « أرسطو»وذووه ، وخير من النصارى أيضًا الوجه الثالث عشر : ـ قولهم : من قال ثلاثة آلهة مختلفة أو متفقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة أو غير ذلك مما يقتضي الاشتراك والتكثير والتبعيض واستبيه فنحن نلعنه ونكفره .

فيقال لهم : وأنتم أيضًا تلعنون من قال : إن المسيح ليس هو إله حق من إله حق ، ولا هو مساوي الأب في الجوهر ، ومن قال : إنه ليس بخالق ، ومن قال : إنه ليس بجالس عن يمين أبيه ، ومن قال أيضًا : إن روح القدس ليس برب حق محيي ، ومن قال : إنه ليس ثلاثة أقانيم .

وتلعنون أيضًا مع قولكم إنه الخالق من قال : إنه الأب ، والأب هو الخالق ، فتلعنون من قال هو الأب الخالق ومن قال : ليس هو الخالق فتجمعون بين النقيضين .

فتلعنون من جرد التوحيد بلا شرك ولا تثليث ، ومن أثبت التثليث مع انفصال كل واحد عن الآخر ، وتجمعون بين النقيضين .

فمن أثبت أحدهما منفكا عن الآخر لعنتموه ، كمن قال : عندي واحد ثلاثة فمن قال : هو واحد ليس بثلاثة كذبه ، ومن قال : هو ثلاثة ليس واحدًا كذبه . ومن قال : عندي شئ موجود معدوم .

فمن قال : هو موجود ليس بمعدوم كذبه ، ومن قال معدوم ليس بموجود كذبه ، ومن قال : عندي شيء هو حي ميت ، هو عالم جاهل ، هو قادر عاجز .

فمن قال هو حي ليس بميت كذبه ، ومن قال : هو ميت ليس بحي ، كذبه فهكذا أنتم ، تجمعون بين قولين متناقضين ، أحدهما حق ، والآخر باطل فمن قال الحق ونفى الباطل ، لعنتموه . ومن قال الباطل ونفى الحق لعنتموه .

وأنتم تشبهون الملاحدة ، من الجهمية والفلاسفة والباطنية ، الذين يسلبون عنه النقيضين ، أو يمتنعون عن إثبات أحد النقيضين ، فيقولون : لا نقول هو حي ولاليس بحي ، ولا عالم ولا ليس بعالم ، ولا قادر ولا ليس بقادر بل منهم من يقول : لا نقول هو موجود ولا معدوم ولا نقول : هو شيء ، ولا نقول : ليس بشيء .

ومنهم من يقول : ليس بحي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز .

ومنهم من يقول : لا نطلق لا هذا ولا هذا .

فيقال لهم : رفع النقيضين كجمع النقيضين ، والامتناع عن إثبات أحد النقيضين ، كالامتناع عن نفي أحد النقيضين .

وكذلك من وصفه بأنه موجود واجب الوجود لذاته ، ثم وصفه بصفات تستلزم عدمه ، فقد جمع بين النقيضين .

وكل قول يتضمن جمع النقيضين وإثبات الشيء ونفيه ، أو رفع النقيضين بالإثبات والنفي ، فهو باطل .

والنصارى ـ في هذا الباب ـ من أبلغ الناس تناقضا ، يقولون الشيء ويقولون بما يناقضه ، ويلعنون من قال هذا ومن قال هذا .

وأيضًا فكل طائفة منكم تلعن الأخرى ، فإن أهل الأمانة تلعن الأريوسية وغيرهم من طوائف النصارى وهم يلعنونكم ، وكل من فرقكم الثلاثة ، النسطورية ، واليعقوبية ، والملكية تلعن الطائفتين الأخريين .

فأنتم واليعقوبية تلعنون من يقول : إن مريم لم تلد إلهًا ، ويقولون : إن مريم ولدت إنسانًا تامًا إلهًا تامًا .

وأنتم والنسطورية تلعنون من قال : إنهما جوهر واحد بمشيئة واحدة وطبيعية واحدة .

ومن قال : إن اللاهوت تألم مع قولكم : إن اللاهوت مولود من مريم ومع قولكم المسيح الذي ولدته مريم : مات وصلب ، وفي أقوالكم من العجائب المتناقضة التي توجب أنكم ملعونون ، ما يطول وصفه ، فما منكم من أحد إلا وهو لاعن ملعون ، فلعنكم من قال بهذه المقالات ، لا يوجب أنكم على الحق ، بل يوجب أن يكون من جملة الملعونين عندكم ، كطائفة من طوائفكم ، والنصارى طوائف كثيرون مختلفون اختلافًا كثيرًا والطوائف الثلاثة المشهورة في الأزمان المتأخرة فهم بعض طوائفهم وإلا فهم طوائف كثيرون ، مختلفون في التثليث والاتحاد .

وتجد كل صنف منهم - أو من غيرهم في مقالاتهم - يحكي أقوالا غير الأقوال التي حكاهان الآخرون .

ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم سعيد بن البطريق بترك الإسكندرية ، في أثناء المائة الرابعة من دولة الإسلام ، وقد بحث لهم بحثًا استقصى فيه - بزعمه - نصر مذهبهم ، وهو ملكي ، وقد ذكرت كلامهم في غير هذا الموضع .

وفيهم من يقول : إن مريم زوجة الله ، وفيهم من يجعلها إلهًا آخر ،

كالمسيح .

وفيهم من يثبت أن المسيح ابن الله ، الولادة المعروفة من الحيوان .

والأمانة التي جعلوها عقيدتهم وأصل إيمانهم في زمن قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، هي وغيرها من أقوالهم الظاهرة ، تدل على هذه الأمور المنكرة القبيحة دلالة بينة .

لكن علماؤهم يتأولونها بتأويلات تناقض مدلولها ، مع فساد تلك المعاني التي يحملونها عليها عقلا وشرعًا .

وليست تلك ألفاظ الأنبياء ، حتى يقال : حكمهم في ذلك حكم سائر الطوائف من المسلمين وغيرهم ، الذين يقولون مايرونه متشابهًا من كلام الأنبياء ويقولون إن الأنبياء تكلموا بما لا يعرف أحد معناه ، أو أنهم خاطبوا الجمهور بما أرادوا به تفهيمهم أمورًا ينتفعون بها ، وإن كان ذلك كذبًا باطلا في نفس الأمر .

فإن هؤلاء الطوائف ، وإن كان فيهم من الضلال والجهل ما قد بسط في غير هذا الموضع ، فقد فعلوا ذلك في ألفاظ الأنبياء التي له حرمة النبوة بخلاف النصارى فإنهم وضعوا عقيدة وشريعة ، ليست ألفاظها منقولة عن أحد من الأنبياء .

الوجه الرابع عشر : ـ قولهم : ومرادنا بالأب والابن ، غير أبوة وبنوة نكاح ، ومن أراد ولادة زوجة لعنّاه .

فيقال : لفظ الولادة المعروف ، إنما يكون من أصلين وإنما يكون بانفصال جزء من الأصلين ، وإنما يكون بحدوث المولود ، سواء أريد ولادة الحيوان أو غيرهما ، كما تتولد النار من بين الزنادين ، فإذا قدح أحدهما بالآخر ، خرج منهما جزء لطيف ، فاستحال نارًا ثم سقط على الحراق .

وقد توسع بعض الناس في الولادة حتى عبر به عما يحدث عن الشئ وإن لم يكن

بانفصال جزء منه ، كتولد الشعاع عن النار ، والشمس وغيرها ، لأن هذا يحدث بشيئين أحدهما ، ما يصدر عنه ، من الشمس والنار . والثاني المحل القابل الذي ينعكس عليه ، وهو الجرم المقابل له الذي يقوم به الشعاع .

فأما ما يحدث عن شئ واحد فلا يعرف إنه يسمى ولادة إن قدر وجود ذلك ، وكذلك ما يلزم الشئ الواحد أنه يسمى ولدا .

فأما ما يقوم بالموصوف من صفاته اللازمة له ، فهذا أبعد شئ عن أن يسمى هذا الملزوم ولادة ، بل لا تكون الولادة إلا عن أصلين .

وكل من قال : إن لله ولداً ، لزمه أن تكون له صاحبة بأي وجه فسر الولادة ، وأن يكون له ولد حادثا ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ﴾ (سورة الأنعام : ١٠٠ ، ١٠١) فاستفهم تعالى استفهام إنكار ، يبين امتناع أن يكون له ولد ، إذا لم تكن له صاحبة فإن الولد لا يكون إلا من أصلين ، وهذا مما ينبغي أن يتفطن له ، فإن جعل ما يلزم مشئ الواحد متولداً عنه ، لا يعرف ، لا سيما صفاته القائمة به اللازمة له ، كعلمه ، وحياته ، لا سيما الصفات القديمة الأزلية لذات رب العالمين ، الذي لم يزل ولا يزال موصوفا بها ، فإن صفات العبد اللازمة له ، كحياته ، وقدرته ونحو ذلك ، ليست متولدة عند جميع العقلاء .

ولا يقول عاقل يعقل ما يقول : إن لون السماء وقدرها متولد عنها ولا إن قدر الشمس وضوءها القائم بها ، اللازم لها ، متولد عنها ، ولا يقول أحد : إن حرارة النار وضوءها القائم بها متولد عنها

وإنما يقال : ـ إن قيل ـ فيما ليس بقائم بها ، بل قائم بغيرها ،أو فيما هو حادث بعد أن لم يكن ، كالشعاع القائم بالأرض والحيطان ، وهذا ليس بقائم بها ، بل قائم

بغيرها ، وهو حادث متولد عن أصلين ، لا عن أصل واحد .

فأما صفات المخلوق القائمة بهم اللازمة له ، فلا يقول أحد من العقلاء : إنها متولدة عنه .

والنصارى يزعمون أن كلمة الله التي يفسرونها بعلمه أو حكمته وروح القدس التي يفسرونها بحياته وقدرته ، هي صفة له قديمة أزلية ، لم يزل ولا يزال موصوفًا بها .

ويقولون - مع ذلك - إن الكلمة هي مولودة منه ، فيجعلون علمه القديم الأزلي متولدًا عنهم ، ويجعلون حياتهتن القديمنة الأزلية متولدة عنه .

وقد أصابوا في أنهم لم يجعلوا حياته متولدة عنه ، لكن ظهر بذلك بعض مناقضاتهم وضلالهم بأنه أنواع كثيرة ، فإنه إن كانت صفة الموصوف القديمة اللازمة لذاته ، يقال : إنها وولده ومتول عنه ، ونحو ذلك ، فتكون حياته أيضًا ابنه وولده . ومتولدًا عنه ، وإن لم يكن كذلك فلا بكون علمه ابنه ولا ولده ولا متولدا عنه .

وأبلغ من ذلك أن روح القدس المنفصلة عنه ، القائمة بالأنبياء والصديقين ، لا يقولون : إنها ولده ، ولان إنها متولدة عنه ، بل يخصون ذلك بالكلمة فلا ينقلون عن أحد من الأنبياء أنه سمى شيئًا من صفات الله ابنًا ولا ولدًا ، ولا قال : إن علم الله أو كلامه أو حكمته ولده أو أبنه ، أو هو متولد عنه .

فعلم أن القوم في غاية التناقض في المعاني والألفاظ وأنهم مخالفون للكتب الإلهية كلها ، ولما فطر الله عليه عباده من المعقولات التي يسمونها نواميس عقلية ومخالفون لجميع لغات الآدميين ، وهذا مما يظهر به فساد تمثيلهم فإنهم قالوا : تولدت الكلمة عنه ، كما تولدتت الكلمة والحكمة فينا عن العقل .

فيقال لهم : لو قدر أن الأنبياء سموا ذلك تولدًا ، فما يتولد فينا حادث بعد إن لم يكن ، وحدوثه يتسبب من فعلنا وقدرتنات ومشيئتنا .

فأما صفاتنا اللازمة لنا ، التي لا اختيار لنا في اتصافنا بها ولم نزل متصفين بها ، فلا يقول عاقل : إنها متولدة فينا وعنا .

وأنتم تجعلون صفة الله القديمة اللازمة له ، التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها متولدة عنه .

فلو قدر أن ما ذكرتموه من التولد العقلي أمرًا معروفًا في اللغة والعقل والشرع ، لم يكن لكم أن تجعلوا علم الله وحكمته التي فسرتم بها كلمته ابنًا له ومولودًا منه ، لم يزل مولودا منه ، لأن هذا باطل عقلا وشرعا ولغة .

أما العقل فإن صفة الموصوف اللازمة له ـ وإن كان مخلوقا ـ ليست متولدة عنه ، فكيف الصفة القديمة للموصوف القديم ؟

ولو جاز هذا ، جاز أن يجعل ما كان لازمًا لغيره ولدا له ومولودا منه فيجعل كيفيات الأشياء وكمياتها متولدة عنه وأمثالها .

ويقال : إن طول الجسم وعرضه وعمقه متولدة عنه ، وإن حياة الحي متولدة عنه وإن القوى والطبائع التي جعلها الله في الحيوان متولدة عنها

وأما الشرع ، فإن هذا لو كان متولدا ـ وهو في بعض اللغات يسمى ولدًا ـ لم يجز أن يحمل علي ذلك كلام الأنبياء إلا أن يكون في لغتهم يسمى ولدا .

وكل من نظر في كتب الأنبياء من علماء النصارى وغيرهم ، لم يجد أحدًا من الأنبياء يسمى علم الله وكلمته وحياته ، ولدًا له ولا ابنًا ، ولا قال : إن ذلك يتولد عنه .

فقولهم عن المسيح : عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس أنه أراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية ، وأنها متولدة منه وأنه أراد بروح القدس حياة الله القديمة الأزلية ، كذب محض على المسيح عليه السلام لا يوجد قط في كلامه ولا كلام غيره

من الأنبياء أنهم سموا علم الله وحكمته ولا شيئًا من صفاته القائمة به ابنًا ولا سموا حياته روح القدس

وأما اللغة فإن هذا التعبير الذي ذكروا ـ وهو تسمية صفات الموصوف اللازمة له ولدا وابنًا ومتولدا ـ لا يعرف في لغات بني آدم المعروفة .

وقد يتبنى الرجل ولد غيره فيتخذه ولداً ويجعله بمنزلة الولد وإن لم يكن متولداً عنه كما كانت تفعله أهل الجاهلية من العرب وغيرهم ، ولهذا نزه الله تعالي نفسه عن الولادة وعن اتخاذ الولد فقال تعالى : ﴿ ألا أنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وأنهمنم لكاذبون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ﴾ (سورة الأنعام : ١٠٠ ، ١٠١) وقال تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وأما أتخاذ الولد ، ففي مواضع متعددة كقوله تعالي : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ﴾ (سورة الإسراء : ١١١) وقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له مافي السموات والأرض كل له قانتونه * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمنرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (سورة البقرة : ١١٦ ، ١١٧) وقوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم : أني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك ننجزي الظالمين ﴾ (سورة الأنبياء : ٢٦ ، ٢٩) وقوله ﴿ ما اتخذ الله من ولد ومام كان معه من إلاه إذً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ (سورة المؤمنون : ٩١) وقوله ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ ،(الزمر : ٤)

وأهل الكتاب يذكرون أن في كتبهم تسمية عباد الله الصالحين ابنًا وتسمية الله أبًا ، وتسمية المصطفين أبناء ، وهذا إذا كان ثابتًا عن الأنبياء فإنهم لا يعنون به إلا معنى صحيحًا .

واللفظ قد يكون له في لغة معنى ، وله في لغة أخرى معنى غير ذلك والمراد بهذا الولد والابن ، لا ينافي كونه مخلوقًا مربوبًا عبدًا لله عز وجل وأما تسمية شئ من صفات الله ابنا أو ولدًا ، فهذا لا يعرف عن أحد من الأنبياء ولا الأمم أهل اللغات سوى مبتدعة النصارى .

ولم يبق للتولد إلا معنيان ، أحدهما : ـ أن ينفصل عنه جزء .

والثاني : ـ أن يحدث عنه شئ إما باختياره ، وإما بغير اختياره وقدرته ، كحدوث الشعاع عن النار والشمس .

وكل من الأمرين لا يكون إلا عن أصلين ، ولا بد أن يكون حادثًا لا يكون من صفاته اللازمة له ، فيمتنع أن يتولد عنه شئ إن لم يكن معه أصل آخر يتولد عنهما .

والتولد عنه بغير قدرته ومشيئته ممتنع عند أهل الملل ، المسلمين واليهود والنصارى وسائر الأمم ، سوى طائفة من المتفلسفة يقولون : إنه موجب بذاته مستلزم لما يصدر عنه ، فهؤلاء قولهم يناسب هذا التولد .

والنصارى تكفر هؤلاء ، لكن قد ضاهوهم في القول ، كما قال تعالى ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ (التوبة : ٣٠) وهذا قاله طائفة من اليهود ، وهو معروف عن شخص يقال له فنحاص بن عازورا وأتباعه

قال أبو محمد ابن حزم : والصدوقية ، طائفة من اليهود ، نسبوا إلى رجل يقال له صدوق ، وهم يقولون ـ من بين سائر اليهود ـ إن العزير ابن الله وكانوا بجهة اليمن .

ولكن المتفلسفة الذين يقولون بصدور العقول والأفلاك عنه ، وإن سمى ذلك تولدا ، فهم يجعلون ولده منفصلا عنه ، لكن يثبتون ولدا قديما أزليًا صدر عنه بغير اختياره ، ويجعلون الشئ الواحد متولدًا عنه .

وسائر الطوائف الذين أثبتوا لله ولدًا جعلوه حادثًا منفصلا عنه .

فأما جعل صفته القائمة به ولدًا ومولودًا ، فهذا لا يعرف عن غير النصارى فإذا اثبتوا له ولدًا وابنًا غير مخلوق ، والصفة القائمة به اللازمة له لم تتولد عنه ولا تسمى ابنا ولا ولدًا عند أحد من الأنبياء وغيرهم ، تعين أن يكون الولد إما جزءا منفصلا عنه ، وإما معلولا له صادرا عنه بغير قدرته ومشيئته ، وأي القولين قالوه ، فهم فيه كفار مضاهئون لقول الذين كفروا من قبل .

وبعض علمائهم ، وإن أنكر ذلك ، لكنهم يقولون بما يستلزم ذلك ويشبهونه بالشعاع من الشمس ، ويقولون عنه الروح ، هو منبثق من الله خارج منه .

وهذا كله يناسب الولادة ، التي هي خروج شئ منه ، أو حدوث شئ عنه بغير اختياره ومشيئته ، ولا بد له ـ مع ذلك ـ من محل يقوم به ، فإن الشعاع لا يقوم إلا بالأرض .

والأمر المنبثق الخارج من غيره إما أن يكون جوهرًا قائمًا بنفسه ، أو صفة قائمة بغيرها .

فإن كان جوهرًا فقد انفصل من الرب جزء .

وإن كان عرضًا ، فلا بد له من محل فيكون متولدًا عن أصلين .

وتشبيههم بتولد الكلام عن العقل ، تشبيه باطل ، فإن ذلك يحصل بقدرة الإنسان ومشيئته ، وهو حادث بعد أن لم يكن .

هذا إذا عرف أن ما يقوم بقلب الإنسان من علم وحكمة ، يقال : إنه يتولد عنه ،

ويقال : إنه ابنه مع أن هذا أمر غير معروف في اللغات ، ولو كان معروفًا في لغة بعض الأمم ، لم يجز أن يفسر به كلام الأنبياء إن لم يكن معروفا في لغتهم .

وأما ما يدعونه ، فإنهم يقولون : إن الكلمة لازمة لذات الله أزلا وأبدًا ، وهي مولودة منه ، مع أنها غير مصنوعة ، فهذا كلام متناقض باطل من وجوه .

فإن المتولد عن الشيء ، لا يتولد إلا عنه وعن غيره .

وأما الشيء الواحد ، فلا يتولد عنه وحده شيء .

وأيضًا فإن ما تولد عن غيره لم يكن إلا حادثًا .

وأما الصفة القديمة اللازمة لذات الرب ، فليست مولودة له ، ولا متولدة عنه ، بل هي قائمة به لازمة لذاته .

وأيضًا ، فإن المولود اسم مفعول ،يقال : ولده يلده فهو مولود ، وهذا لا يقال إلا في الحادث المتجدد ، فإن مفعول فعل الوالد .

والقديم الأزلي ، لا يكون مفعولا مولودًا .

وأيضًا فتسمية الصفة القديمة الأزلية ، مولودًا وابنا لا يوجد في كلام أحد من الأنبياء عليهم السلام .

فهب أن هذا مما يسوغ لنا في اللغة أن نقوله لكن لا يجوز أن نحدث لغة غير لغة الأنبياء ، ونحمل كلام الأنبياء عليها ، فإن هذا كذب عليهم .

وهكذا تفعل النصارى وأمثالهم من أهل التحريف بكلام الأنبياء يحدثون لهم لغة مخالفة لغة الأنبياء ، ويحملون كلام الأنبياء عليه .

مثال ذلك الأنبياء أخبروا بأن الله إله واحد ، وكفروا من أثبت إلهين اثنين ، وأمروا بالتوحيد ودعوا إليه وحرموا الشرك وكفروا أهله وأخبروا أن الله واحد أحد ، وكان مرادهم بذلك توحيده وأنه لا يجوز أن يعبد إلا الله ، وإنه لا يستحق العبادة إلا هو ،

ليس مقصودهم بذلك نفي صفاته فلم يقصدوا بلفظ « الأحد » و « الواحد » أنه ليس له علم ولا قدرة ولا شئ من الصفات فجاء طائـفة من أهل البدع ففسروا لفظ اسم « الواحـد » و « الأحد » بما جـعلوه اصطلاحـا لهم ، فقـالوا : الواحـد الذي ليس فيـه تركيب ولاينقـسم ولو كان له صفات لـكان مركبًا ، ولو قامت به الصـفات ، لكان جسـمًا والجسم مركب من الجـواهر المنفردة ، أو من المادة والصور ، فـلا يكون أحدًا ولا واحدًا .

فيقال : هذا الذي قالوه لو قدر أنه صحيح في العقل واللغة ، فليس هو لغة الأنبياء التي خاطبوا بها الخلق ، فكيف إذا لم يكن هذا الواحد من لغة أحد من الأمم ؟!

بل جميع الأمم تسمى ما قام به الصفات واحداً ، بل يسمونه وحيداً ، وقد يسمونه في غير الإثبـات أحدا كقوله ﴿ وإن أحد من المشـركين استجارك فأجـره حتى يسمع كـلام الله ﴾ (التوبة : ٦) وقـوله ذرني ومن خلقت وحـيـداً ﴾(المدثر :١١) وأمثـال ذلك .

وأما البحث العقلي في هذا ، فقد بسطناه في غير هذا الموضع ، وبينا أن ما يسميه هؤلاء المتفلسـفة تركيبًا كقـولهم : إن الشئ مركب من وجود وماهـية ، وقولهم ، إن الأنواع مركبة من الأجناس والفصول ، هو باطل عند جميع جمهور العقلاء .

وليس في الخارج إلا ذات متصفة بصفات ، وليس في الخارج وجود القائم بنفسه ، وماهية أخرى غير هذا الشئ الموجود القائم بنفسه مثلا .

ولكن قد يعني بلـفظه « الماهية » ما يتـصور في الأذهان ، وبالوجود مـا يوجد في الأعيان ، وحينئذ ، فهذه الماهية غير هذا الموجود ، وحينئذ فيقال هذه الماهية غير هذا الوجود .

وكذلك قـولهم : إن الإنسان الموجود في الخـارج مركب من الجنس والفـصل فإن الإنسان الموجود هو ذات متصفة بصفات هو وغيره من الموجودات

ولكن يتصور في الذهن ما هو مركب من الحيوان والناطق ، كما يتصور ما هو مركب من الحيوان والضاحك ، وهذا تركيب ذهني ، لا تركيب في الخارج ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وتبين أن ما جعلوه من الصفات داخلا في الماهية ، وما جعلوه خارجًا عنها لازمًا لها وما هو مجموع أجزاء الماهية ، يرجع - عند التحقيق - إلى ما هو مدلول عليه بالتضمن والالتزام والمطابقة .

ومن ذلك تركيب الجسم من الجواهر المفردة ، أو من المادة والصورة ، وأكثر العقلاء ينكرون تركيب الجسم من هذا وهذا ، كما قد بسط في موضع آخر .

والمقصود هنا ، كلام الأنبياء لا يجوز أن يحمل إلا على لغتهم التي عادتهم أن يخاطبوا بها الناس ، لا يجوز أن يحدث لغة غير لغتهم ويحمل كلامهم عليها .

بل إذا كان لبعض الناس - عادة ولغة - يخاطب بها أصحابه وقدر أن ذلك يجوز له فليس له أن يجعل ذلك لغة النبي ، ويحمل كلام النبي على ذلك .

ومن هذا إخبار الأنبياء بأن الله يقول ويتكلم وينادي ويناجي ، وأنه قال كذا وتكلم بكذا ، ونادى موسى ونحو ذلك .

والمعروف في لغتهم ولغة سائر الأمم ، أن المتكلم من قام به الكلام وإن كان متكلمًا بقدرته ومشيئته ، لا يعرف في لغتهم أن المتكلم من أحدث كلامًا منفصلا عنه ، ولا أن المتكلم من قام به الكلام بدون قدرته ومشيئته .

فليس لأحد - إذا جعل اسم المتكلم لمن يحدث كلامًا بائنًا عنه ، أو من قام به بدون قدرته ومشيئته - أن يحمل كلام الأنبياء على هذا .

بل المتكلم - عند الإطلاق - من تكلم بقدرته ومشيئته ، مع قيام الكلام به وهذا هو المعروف في لغة الأنبياء وسائر الأمم عند الإطلاق ، ونظائر هذا متعددة .

فمن فسر كلام الأنبياء بغير لغتهم المعروفة ، فهو ممن يدل كلامهم وحروفه والنصارى من هؤلاء .

وكذلك اسم العادل والظالم ونحوهما ، فإن المعروف من كلام الأنبياء وغيرهم أن العادل من قام به العدل وفعل العدل بمشيئته وقدرته .

والظالم من قام به الظلم ، وفعله بقدرته ومشيئته ، لا يسمون من لم يقم به الظلم ؛ ولكن قام بغيره ، ظالما ، لكونه قد جعل ذلك فاعلا له ولا يسمون من لم يفعل الظلم - ولكن فعله غيره فيه - ظالمًا .

فمن جعل الظالم والكافر والفاسق من لم يفعل شيئًا من ذلك ، ولكن فعله غيره فيه ، أو جعل الظالم من لم يقم به ظلم فعله ، ولكن جعل غيره متصفًا به ظالمًا ، فقد خرج عن المعروف من كلام الأنبياء وغيرهم .

وأبلغ من ذلك أن المحدث والحادث في لغة جميع الأمم ، لا يسمى به إلا ما كان بعد أن لم يكن والمخلوق أبلغ من المحدث والحادث .

فليس لأحد - إذا أحدث إصطلاحًا سمى به القديم الأزلي الذي لم يزل موجوداً ولكنه زعم أنه معلوم لغيره فسماه محدثًا بهذا الاعتبار – أن يقول أنا أحمل كلام الأنبياء الذي أخبروا به ، أن السموات والأرض وما بينهما مخلوق أو مصنوع أو مفعول أو محدث ونحو ذلك من العبارات ، على أن مرادهم بذلك أنه معلول كونه قديمًا أزليًا لم يزل .

وأما لفظ « القديم » فهو في اللغة المشهورة التي خاطبنا بها الأنبياء يراد به ما كان متقدمًا على غيره تقدمًا زمانيًا سواء سبقه عدم أو لم يسبقه كما قال تعالى ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾(يس : ٣٩) وقال تعالى ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ (يوسف : ٩٥) وقال الخليل ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ و(الشعراء : ٧٥ - ٧٧) فلهذا كان القديم الأزلي

الذي لم يزل موجوداً ، ولم يسبقه عدم ، أحق باسم القديم من غيره .

وليس لأحد أن يجعل القديم والمتقدم اسما لما قارن غيره في الزمان لزعمه أنه متقدم عليه بالعلة ، ويقول : إنه متقدم على غيره وسابق له بهذا الاعتبار وإن ذلك المعلول متأخر عنه بهذا الاعتبار ، ثم يحمل ما جاء من كلام الأنبياء وأتباع الأنبياء وعموم الخلق على هذا الاصطلاح لو كان حقًا فكيف إذا كان باطلا ؟وما ذكره من التقدم والسبق والتأخر بغير الزمان ، أمر غير موجود ولا معقول ، ولا يعرف في الوجود من فعل شيئًا وكان علة فاعلة لا إله إلا وهو متقدم عليه سابق له ، ليس مقارنًا له في الزمان ألبتة ، بل متقدم عليه تقدمًا زمانيًا .

وكل ما يعرف أنه سبب أو علة فاعلة فإنه متقدم على مسببه ومعلوله لكن قد يكون متصلا به ، ليس بينهما زمان آخر .

فيقال : ليس هذا متأخرا عن هذا أي هو متصل به ليس بينهما فصل ، ويقال : ليس ذلك متقدمًا على هذا أي ليس بينهما زمان ، بل هو متصل به ، إذ قد يراد بلفظ التقدم هذا ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الجنازة متبوعة وليست بتابعة ليس منها من تقدمها » (١) أي من كان قد تقدمها ، حتى من لم يكن قريبًا منها ، لم يكن

(١) « ضعيف » من رواية ابن مسعود

رواه أبو داود في كتاب « الجنائز » باب « الإسراع بالجنازة » (٨ / ٤٧١) وقال أبو داود وهو ضعيف وأبو ماجد هذا لا يعرف .

ورواه الترمذي في كتاب « الجنائز » باب « ما جاء في المشي خلف الجنازة » (٤ / ٩١ ح ١٠١٦) وقال : « هذا حديث لا نعرفه من حديث ابن مسعود إلا من هذا الوجه وسمعت محمد بن إسماعيل يضعف حديث أبي ماجد هذا وقال محمد : قال الحميدي قال ابن عيينة : قيل ليحيي : من أبو ماجد هذا ؟ فقال : طائر طار فحدثنا » .

ورواه ابن ماجه في كتاب « الجنائز » باب « ما جاء في المشي أمام الجنازة » (١ / ٤٧٦ ح ١٤٨٤) ، وقال السندي « قد ضعف الترمذي وغيره هذا الحديث بحالة أبي ماجد »

وقد ضعفه الألباني في « ضعيف سنن ابن ماجة » (صـ ١١٣ ح ٣٢٤) ، قلت : الحديث فيه « أبو ماجد » قال عنه ابن حجر في « التقريب » (٢ / ٤٦٨) : قيل اسمه عائذ بن نضلة ، مجهول لم يرو =

تابعًا لها ، كما جاء في الحديث الآخر « الراكب خلف الجنازة ، والماشي أمامها ووراءها : وعن يمينها ويسارها قريبًا منها » رواه أبو داود وغيره (١) ، وهو أبين حديث وروي في هذا الباب في هذا الحكم ،منه قوله تعالى : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ (يس : ٤٠) أي لا يتقدم عليه ، بحيث يكون بينهما انفصال . بل كل منهما متصل بالآخر .

والمقصود هنا أن معرفة اللغة التي خاطبنا بها الأنبياء وحمل كلامهم عليها ، أمر واجب متعين ، ومن سلك غير هذا المسلك ، فقد حرف كلامهم عن مواضعه وكذب عليهم وافترى .

ومثل هذا التحريف والتبديل ، قد اتفق المسلمون واليهود والنصارى ، على أنه وقع فيه خلق كثير من أهل الكتب الثلاثة ، وأن التوراة والإنجيل حُرِّفا بهذا الاعتبار ، وكذلك القرآن حرَّفه أهل الإلحاد والبدع ، بهذا الاعتبار .

فأهل الكتاب نقلوا عن الأنبياء أنهم تكلموا بلفظ الأب والابن .

عنه غير يحيي الجابر ، من الثانية »

ويحيي بن عبد الله الجابر قال عنه ابن حجر في التقريب (٢ / ٣٥١) أبو الحارث الكوفي ، لين الحديث من السادسة وروايته عن المقدام مرسلة » .

(١) « صحيح » من رواية المغيرة بن شعبة

رواه أبو داود في كتاب « الجنائز » باب المشي أمام الجنازة » (٨ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ ح ٣١٦٤)

ورواه الترمذي في كتاب « الجنائز » باب « في الصلاة على الأطفال » (٤ / ١١٨ ح ١٠٣٦)

وقال « هذا حديث حسن صحيح »

ورواه النسائي في السنن « في كتاب الجنائز » باب مكان الراكب من الجنازة (٤ / ٥٥)

ورواه النسائي أيضًا في الكبرى (١ / ٦٣١ ح ٢٠٦٩) و (٢٠٧٠)

ورواه ابن ماجه في كتاب « الجنائز » باب « ما جاء في شهود الجنائز » (١ / ٤٧٥ ح ١٤٨١)

وصححه الألباني كما في صحيح ابن ماجه (١ / ١٢٠٥،٤٨)

ومرادهم - عندهم - بالأب الرب ، وبالابن المصطفى المختار المحبوب .

ولم ينقل أحد منهم عن الأنبياء أنهم سموا شيئًا من صفات الله ابنًا ، ولا قالوا عن شئ من صفاته : إنه تولد عنه ، ولا إنه مولود له .

فإذا وجد في كلام المسيح عليه السلام أنه قال « عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس » ثم فسروا الابن بصفة الله القديمة الأزلية ، كان هذا كذبًا بينًا على المسيح ، حيث لم يكن في لغته أن لفظ الابن ، يراد به صفة الله القديمة الأزلية .

وكذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس ، وإنما يريدون بروح القدس ، ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحين ، ويؤيدهم . كان تفسير قول المسيح : روح القدس أنه أراد حياة الله ، كذبًا على المسيح .

وهذا من بعض الوجوه أفسد من قول بعض المتفلسفة : إن العقول والنفوس والفلك معلوله متولدة عنه . لازمة له أزلا وأبدًا ، وإن كان هذا أيضًا باطلا في صريح العقل كما هو كفر بما أخبرت به الأنبياء ، كما قد بسط في موضع آخر فإنه لا يصدر شئ عن فاعل الأشياء بعد شئ لا يتصور أن يكون المفعول مقارنًا للفاعل ولا يتأخر عنه . ولا يكون التولد إلا عن أصلين .

والواحد من كل وجه الذي ليس له صفة ثبوتية ، لا وجود له ، ولو كان له وجود لم يصدر عنه شئ ، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع أخر .

ومما يوضح ذلك أن خواص النصارى وعلماءهم - مع تجويزهم أن يقال : إن المسيح ابن الله - يلزمهم أن تكون مريم صاحبة الله وامرأته . كما قال ذلك من يغلو منهم .

ومنهم من يجعل مريم إلهًا مع الله كما جعل المسيح إلهًا فإن قالوا بذلك . جعلوا لله صاحبة وولدًا ، وجعلوا المسيح ابن مريم وأمه إلهين من دون الله ، كما فعل ذلك من فعله منهم .

فإنهم يعبدون مريم ، ويدعونها بما يدعون به الله سبحانه والمسيح ، ويجعلونها

إلهًا كما يجعلون المسيح إلهًا .

فيقولون : ياوالدة الإله ، اغفري لنا وارحمينا ونحو ذلك ، فيطلبون منها ما يطلبونه من الله عز وجل .

ومنهم من يقول عن مريم : إنها صاحبة الله سبحانه وتعالى .

وبيان لزوم ذلك أن المسيح عندهم إنسان تام وإله تام ناسوت ولاهوت ، فناسوته من مريم ، ولاهوته الكلمة القديمة الأزلية وهي الخالق عندهم .

فالمسيح بين أصلين ، ناسوت ولاهوت ، فإذا كان الأب هو الله عندهم والكلمة المولودة عن الأب ابن الله فمعلوم أن اللاهوت لما التحم بالناسوت ليصير منها ، أن المسيح ازدوج به ، وقارنه ، وهذا معنى الزوجية .

فكما أنهم قالوا : إن الولادة عقلية لا حسية ، فكذلك الازدواج والنكاح عقلي لا حسي ، فإن اللاهوت ـ على قولهم ـ ازدوج بناسوت مريم ونكحها نكاحًا عقليًا وخلق من هذا وهذا .

وهم يقولون في الأمانة : إن المسيح تجسد من مريم ومن روح قدس .

فإن فسروا روح القدس بجبريل ـ كما يقوله المسلمون ـ فهو الحق ، وبطل قولهم . لكنهم يقولون : روح القدس هو الأقنوم الثالث ـ كما يقولون في الكلمة وهو اللاهوت عندهم .

فهم قد ذكروا أنه تجسد من الناسوت واللاهوت ، فيلزمهم على هذا أن يكون المسيح هو الابن ، وهو روح القدس ، فيكون أقنومين ، لا أقنومًا واحدًا وقد تقدم تناقضهم في هذا .

والمقصود هنا أنهم إذا قالوا : إن الرب أو بعض صفاته اتحد بما خلق من مريم فلا بد أن يحصل له اتصال بمريم قبل اتصاله بما خلق منها وذلك هو معنى النكاح

والازدواج .

وعند جمهور النصارى أن مريم ولدت اللاهوت كما ولدت الناسوت ، وهي أم اللاهوت ، ويقولون في دعائهم : ياوالدة الإله .

واللاهوت الذي ولدته مريم هو - عندهم - رب العالمين ، واللاهوت اتحد بالناسوت عندهم من حين خلق الناسوت في بطن مريم ، لم يحدث بعد الولادة فإذا جاز أن يكون لرب العالمين عندهم أم ولدته بوجه من الوجوه فإمكان أن يكون له صاحبة وزوجة ، أولى وأحرى ، وليس في ذلك ما يحيله العقل والشرع إلا وهو لكونها أما للاهوت أشد إحالة .

فإن جاز أن يكون اللاهوت أم والأم أصل ، فلأن يكون له صاحبة هي زوجة ونظير أقرب وأولى ، فإن من المعلوم أن ولد ذلك الشئ ، وهو المتفرع المتولد عنه أنقص بالنسبة إليه من نظيره .

فإذا قالوا : إن رب العالمين ولداً اتحد بالناسوت هو نظيره المساوي له في الجوهر ، وقالوا إن الناسوت أم هذا المسيح الذي هوالله وهو ابن الله ، وقالوا : إن الناسوت مريم ، ولد اللاهوت ، كما ولد الناسوت ، ولم يكن هذا عيبًا ينزه الرب عنه ، فلأن يجعلوا له أم هذا الولد الذي حبلت به واتحد به اللاهوت وهو فيها ، وولدت اللاهوت ، صاحبة وزوجة للأب ، أولى وأحرى ، وإلا فكيف تلد ابنه الذي هو اللاهوت ، ولا تكون صاحبته وامرأته ؟

وهم يقولون : نحن سمينا علمه مولوداً عنه ، لكونه تولد عنه تولد الكلمة عن العقل ، وهذا الولد اتحد بالناسوت ، فسمينا المجموع ولداً .

وبهذا يفرقون بين كون المسيح ابنًا ، وغيره من الأنبياء يسمى ابنًا .

فإنهم يقولون : هؤلاء أبناء بالوضع ، والمسيح ابن بالطبع ، أي أولئك سموا أبناء بمشيئة الرب وقدرته ، لأنهم اصطفاهم ، والكلمة التي جعلوها متحدة بالمسيح هي -

عندهم - متولدة عن الله تولداً قديماً أزلياً ، لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، ولهذا قالوا : مولود غير مصنوع ، فإن القديم الأزلي - مع كونه قائماً بذاته - لا يكون مصنوعاً عند أحد من العقلاء ، ولا القائلين بقدم العالم .

فإذا كانت الكلمة اتحدت بالمسيح المخلوق من مريم والتحمت به ، فإذا قيل - مع ذلك - : إن القديم مس المحدث أو لاصقه أو باشره ، كان أيسر من هذا كله .

والمسيح ولد ولاده حادثه عندهم ، غير الولادة القديمة التي للكلمة ، فيلزم أن تكون مريم قد صارت زوجة وامرأة ، بل نكحت نكاحاً حادثاً يناسب تلك الولادة المحدثة ، قال تعالى : ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ﴾(الأنعام : ١٠١) ولهذا كان الحلول أسهل من الاتحاد .

فمن قال : إنه حل في جسد المسيح وماسه وباشره كما يحل الماء في اللبن كان أهون ممن يقول : إنه اتحد به والتحم به .

فإذا قيل : إن مريم امرأة القديم وصاحبته وزوجته كان ما في هذا من إثبات مباشرته لها ومماسته لها ، واتصاله بها .

ومهما قُدّر من اتصال الزوج وزوجته أهون مما قالوه من اتحاد القديم بالمحدث ومصيره وإياه ، إما جوهراً واحداً ، وإما شخصاً واحداً ، وإما مشيئة واحدة .

ولهذا كان كل عاقل يعلم أن النكاح الحسي أسهل من الولادة الحسية .

فالذكر من الحيوان إذا نكح الأنثى فإنما مس الذكر للأنثى لم تصر الأنثى متولدة عنه ، فإذا جوزوا أن يكون للرب القديم الأزلي ، ما يتولد عنه ويتحد به ، وهو محدث مخلوق ، فلأن يكون له ما يمسه أولى وأحرى .

وإذا قالوا : إن المسيح إنما كان ابناً ، لأن الكلمة القديمة التي هي ابن اتحدت به قبل ، فقد يسمى الناسوت الذي اتحد به القديم ابناً عندكم ، باسم القديم وجعلتموه إلهاً

خالقًا فما المانع من جعل أم ذلك الناسوت الذي جعلتموه ابن الله ، صاحبة لله وزوجته ، باعتبار أن القديم الأزلي حصل منه ومنها ماهو من القديم الأزلي ؟

الوجه الخامس عشر : ـ أن يقال : لفظ الابن وروح القدس ، قد جاء في حق غير المسيح ـ عندكم ـ حتى الحواريين عندكم يقولون : إن المسيح قال لهم : إن الله أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم ويقولون : إن روح القدس تحل فيهم .

وفيما عندكم من التوراة أن الرب قال لموسى : اذهب إلى فرعون ، فقل له : يقول لك الرب : إسرائيل ابني بكري أرسله يعبدني ، فإن أبيت أن ترسل ابني بكري ، قتلت ابنك بكرك .

فلما لم يرسل فرعون بني إسرائيل كما قال الله قتل الله أبكار فرعون وقومه من بكر فرعون الجالس على السرير إلى الأول من أولاد الآدميين إلى ولد الحيوان إليهم .

فهذه التوراة تسمى بني إسرائيل كلهم أبناء الله وأبكاره ، وتسمى أبناء أهل مصر أبناء فرعون ، ويتوسع فتسميه سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان .

وفي مزامير داود يقول « أنت ابني ، سلني أعطك » .

وفي الإنجيل يقول عن المسيح « أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم ، وإلهي وإلهكم » .

وقال : إذا صليتم فقولوا : « ياأبانا الذي في السماء ، قدوس اسمك ، افعل بنا كذا وكذا » .

ويقولون عن القديسين : إن روح القدس يحل فيهم ، وكذلك حلت في داود وغيره من الأنبياء ، بل عندهم إن الله يحل في الصديقين كلهم .

فإن كان الابن وروح القدس ، يقتضي اتحاد اللاهوت بالناسوت ، وجب أن يكون كل من الحواريين لاهوتًا وناسوتًا ، وكذلك الأنبياء فيكون النبي لاهوتًا وناسوتًا لأنه قد سمى عندكم ابن الله ، ونطقت فيه روح القدس ، لا سيما وأنتم

قلتم في الأمانة : إنه روح ممجد مسجود له ، ناطق في الأنبياء .

فإن كان هذا يوجب حلول اللاهوت في الناسوت ، أو اتحاده به ، لزم أن يكون غير المسيح من الأنبياء ، والحواريين ، بل وأبناء إسرائيل ، لاهوتًا وناسوتًا ، إذ كان الذي جعلتموه اللاهوت ، حل بغير المسيح واتحد به ، أو سكن فيه ، أو احتجب به ، أو ما قلتم من الألفاظ التي استدللتم بها على أن اللاهوت حل في المسيح ، كلفظ الابن وروح القدس ، موجودة عندكم في غير حق المسيح .

والمعجزات التي احتججتم بها للمسيح ، قد وجدت لغير المسيح .

ولو قدر أن المسيح أفضل من بعض أولئك ، فلا ريب أن المسيح عليه السلام أفضل من جمهور الأنبياء ، أفضل من داود وسليمان وأصحاب النبوات الموجودة عندكم ، وأفضل من الحواريين .

لكن مزيد الفضل يقتضي الفضيلة في النبوة والرسالة ، كفضيلة إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك لا يقتضي خروجه عن جنس الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ (المائدة : ٧٥) وقال تعالى : ﴿ وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ الآية كلها (المائدة : ٧٢ ، ٧٥) .

وجماع هذا الجواب : إن ما يوصف به المسيح عندهم ، من كونه ابن الله وكون الله حل فيه ، أو ظهر ، أو سكن ، وكون روح القدس ، أو روح الله حلت فيه ،

وكونه مسيحًا . كل ذلك موجود عندهم في حق غير المسيح .

فليس للمسيح اختصاص بشيء من هذه الألفاظ ، وإنما يوجد اختصاصه بلفظ « الكلمة » وكونه تجسد من روح القدس وهذا هو الذي خصه به القرآن فإن الله قال : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ (النساء : ١٧١) وفي الصحيحين (١) عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه أدخله الله الجنة على ما كان له من عمل » فهذا الذي خصه به القرآن ، هو الذي خصته الكتب المتقدمة ، إذ كان القرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه .

وأما سائر ما يوصف به ، ويدعون اختصاصه به ، من كونه ابنًا لله ، وكونه مسيحًا ، فغيره أيضًا في كتب الله يسمى ابنًا ومسيحًا ولذلك ما يذكر من الألفاظ التي يحتجون بها على الحلول ، مثل كون الرب ظهر فيه أو حل أو سكن ، فإن هذه الألفاظ موجودة عندهم في حق غير المسيح ، بخلاف لفظ « الاتحاد » فإنه لا يوجد - عندهم - عن الأنبياء ، لا في حق المسيح ولا غيره ، كما لا يوجد عندهم عن الأنبياء لفظ « الأقانيم » ولا لفظ « التثليث » ولا « اللاهوت » و « الناسوت » ولا تسمية الله جوهراً . بل هذا كله مما ابتدعوه كما ابتدعوا أيضًا تسمية صفات الله ابنًا وروح

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » باب قوله تعالى « ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ....الآية » (٦ / ٥٤٦ ، ٥٤٧ ح ٣٤٣٥)

ورواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا » (١ / ٥٧ ح ٢٨)

ورواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » من الكبرى باب « ما يقول عند الموت » (٦ / ٢٧٧ : ٢٧٨ ح ١٠٩٦٩) ، ورقم (١٠٩٧٠ ، ١١١٣٢)

القدس ، فهم ابتدعوا ألفاظًا لم ينطق بها الأنبياء ، أثبتوا لها معاني باطلة وابتدعوا استعمال ألفاظ الأنبياء في غير مرادهم ، وحملوا مرادهم عليها .

والألفاظ المتشابهة التي يحتجون بها على اتحاد اللاهوت بالناسوت موجودة - عندهم - في حق غير المسيح .

فليس للمسيح خاصة في كلام الأنبياء ، توجب أن يكون هو الله أو ابن الله .

وتلك الألفاظ قد عرف - باتفاقهم واتفاق المسلمين - أن المراد بها حلول الإيمان بالله ومعرفته وهداه ونوره ومثله العلمي في قلوب عباده الصالحين كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع ، وقد تقدم ومن قال من ضُلال المسلمين : « إن الرب يتحد أو يحل في الأنبياء والأولياء ، وإن هذا من السر الذي لا يباح به » فقوله من جنس قول النصارى في المسيح وهذا كثير في كلام كثير من المشايخ والمدعين للمعرفة والتحقيق والتوحيد ، فيجعلون توحيد العارفين أن يصير الموحد هو الموحد ، ومنهم من يقول : إن الله يحل في قلب العارف ويتكلم بلسانه ، كما يتكلم الجني على لسان المصروع ويقول الأول :

ما وَحَّد الواحد من واحدِ ... إذ كل من وحَّده جَاحِدُ
توحيدُ من ينطق عن نعتهِ ... عارية أبطلها الواحـــــد
توحيده إياه توحيــــده ... ونعت من ينعته لاحـــد

ومن هؤلاء من يقول : إن هذا هو السر الذي باح به الحلاج وغيره وهذا عندهم من الأسرار التي يكتمها العارفون ، فلا يبوحون بها إلا لخواصهم ومنهم من يقول : إنما قتل الحلاج لأنه باح بهذا السر ، وينشدون :

من باح بالسر كان القتل شيمته ... بين الرجال ولم يؤخذ له ثار

وأمثال ذلك

وهؤلاء في دعواهم الاتحاد والحلول بغير المسيح ، شر من النصارى فإن المسيح –

صلوات الله عليه ـ أفضل من كل من ليس بنبي ، بل هو أفضل من جماهير الأنبياء والمرسلين .

فإذا كان من ادعى أن اللاهوت اتحد به كافراً ، فكيف بمن ادّعى ذلك فيمن هو دونه ؟!

وهذا الاتحاد الخاص غير الاتحاد والحلول العام لقول الذين يقولون : إنه حال بذاته في كل مكان ، أو متحد بكل شئ .

وغلاة هؤلاء ومحققوهم يقولون : إنه عين الوجود ، والوجود واحد فيجعلون الوجود الخالق القديم الواجب هو عين وجود المخلوق المحدث الممكن .

وهؤلاء مثل ابن عربي الطائي ، وصاحبه الصدر القونوى ، وصاحبه العفيف التلمساني ، وابن سبعين ، وصاحبه الششترى ، وعبد الله البلباني ، وعامر البصري ، وطوائف غير هؤلاء .

وهؤلاء يقولون : إن النصارى إنما كفروا لأنهم خصوا ذلك بالمسيح وحقيقة قول هؤلاء ، هو جحد الخالق وتعطيله ، كما قال فرعون ﴿ وما رب العالمين ﴾ (الشعراء : ٢٣) وقال ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ (القصص : ٣٨) .

فإن فرعون ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، لكن ينكر أن له صانعًا مباينًا له خلقه ، وهؤلاء موافقون لفرعون في ذلك .

لكن فرعون أظهر الجحود والإنكار ، فلم يقل : الوجود المخلوق هو الخالق .

وهؤلاء ظنوا أنهم يقرون بالخالق وأن الوجود المخلوق هو الخالق ، وقد بسط الكلام على هؤلاء في آخر هذا الكتاب .

وهؤلاء لهم شعر نظموا قصائد على مذهبهم ، كابن الفارض في قصيدته المسماه : بنظم السلوك حيث يقول :

لها صَلَوَاتِي بِالْمَقَامِ أُقِيمُهَا وأَشْهَدُ فِيهَا أنَّها لِيَ صَلَّتِ
كِلانَا مُصَلٍّ وَاحِدٌ سَاجِدٌ إِلَى حَقِيقَتِهِ بِالجمعِ فِي كُلِّ سَجدَةِ
ما كان لِي صَلَّى سِوايَ ولَم تَكُن صَلاتِي لغيرى في أَدَاء كُلِّ رَكعَة

إلى أن قال :

وَمَا زلتُ إيَّاها وَإيَّايَ لَم تزَلْ ولا فَرقَ بَل ذَاتي لذاتي أَحَبَّتِ

وقوله :

إليَّ رسولاً كُنتُ مِنّي مُرسِلاً وذاتي بِإِيايَ عَلَيَّ كُلّ استَدلَّتِ
فإن دُعِيت كنت المُجِيبَ وإن أكُن مُنَاىَ أجابَت مَن دَعَانِي وَلَبَّت
وقد رُفِعَت ياء المُخَاطَبِ بَينَنا وفي رَفعِها عن فِرقَةِ الفَرقِ رِفعتِ

إلى أمثال هذه الأبيات

وكذلك ابن إسرائيل في شعره قطعة من هذا كقوله :

وَمَا أنتَ غيرُ الكونَ بَل أنت عينُهُ ويفهمُ هذا السِّرَّ مَن هو ذائِقُ

والتلمساني الملقب بالعفيف كان من أفجر الناس ، وكان أحذق هؤلاء الملاحدة .

ولما قرئ عليه كتاب « نصوص الحكم » لابن عربي قيل له : هذا الكلام مخالف القرآن . فقال : « القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا »

فقيل له : إذا كان الوجود واحداً ، فلماذا تحرم عليَّ أمّي وتباح لي امرأتي ؟

فقال : الجميع عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام فقلنا حرام عليكم .

وكلام هؤلاء كله متناقض ينقض بعضه بعضاً .

فإن قوله : « هؤلاء المحجوبون » وقوله : « قلنا حرام عليكم » يقتضي الفرق بينه

وبين المحجوبين ، وبين المخاطِب والمخاطَب ، وهذا يناقض وحدة الوجود .

وإذا قالوا : « هذه مظاهر للحق ومجالٍ » فإن كان الظاهر غير المظهر ، والمجلي غير المتجلي ، فقد ثبت التعدد ، وأن في الوجود اثنين ظاهراً ومظهراً وإن جعلوهما واحداً ، فقد بطل جوابهم .

فصل

قال الحاكي عنهم : فقلت فإنهم ينكرون علينا في قولنا : إن الله تعالى جوهر .

قالوا : إننا نسمع عن هؤلاء القوم أنهم ذو فضل وأدب ومعرفة .

ومن هذا صورته ، وقد قرأ شيئًا من كتب الفلاسفة والمنطق ، فما حقهم ينكرون هذا علينا ، وذلك أنه ليس في الوجود شيئ إلا وهو إما جوهر وإما عرض ، لأن أي أمر نظرناه وجدناه ، إما قائمًا بنفسه غير مفتقر في وجود إلى غيره ، وهو الجوهر ، وإما مفتقر في وجوده إلى غيره ، لا قوام له بنفسه وهو العرض ، ولا يمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث

فأشرف هذين القسمين ، القائم بذاته الغير مفتقر في وجوده إلى غيره ، وهو الجوهر .

ولما كان الباري ـ تقدست أسماؤه ـ أشرف الموجودات ، إذ هو سبب سائرها ، أوجب أن يكون أشرف الأمور وأعلاها الجوهر .

ولهذا قلنا : إنه جوهر لا كالجواهر المخلوقة ، كما نقول : إنه شيئ كالأشياء المخلوقة وإلا لزم أن يكون قوامه بغيره ومفتقره في وجوده إلى غيره . وهذا فمن القبيح ، أن يقال على الله تعالى .

فقلت لهم : إنهم يقولون : إنا نمتنع من أن نسميه جوهرًا ، لأن الجوهر ما قبل عرضًا وما شغل الحيز ، ولهذا من يطلق عليه القول بأنه تعالى جوهر ، قالوا : إن الذي

يقبل عرضًا ويشغل حيزًا هو الجوهر الكثيف ، فأما الجوهر اللطيف ، فما يقبل عرضًا ولا يشغل حيزًا ، مثل جوهر النفس ، وجوهر العقل ، وجوهر الضوء ، وما يجري هذا المجرى من الجواهر اللطيفة المخلوقة .

فإذا كانت الجواهر اللطيفة المخلوقة لا تقبل عرضًا ، ولا تشغل حيزًا فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف ومركب اللطائف بالكثائف ، يقبل عرضًا ويشغل حيزًا كلا ، والجواب من وجوه :

أحدها : أن يقال : أما تسمية الباري جوهرا فهو من أهون ما ينكر على النصارى ، ولهذا كان من الناس من ينكره من جهة الشرع فقط ، أو اللغة ومنهم من ينكره من جهة العقل أيضًا ، ومنهم من يراه نزاعًا لفظيًا وطائفة من المسلمين يسمونه جوهرا وجسما أيضًا ، وذلك أن المسلمين في أسماء الله تعالى على طريقتين ، وكثير منهم يقول : إن أسماءه سمعية شرعية ، فلا يسمى إلا بالأسماء التي جاءت بها الشريعة . فإن هذه عبادة ، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع .

ومنهم من يقول : ما صح معناه في اللغة ، وكان معناه ثابتًا له ، لم يحرم تسميته به ، فإن الشارع يحرم علينا ذلك فيكون عفوًا .

والصواب القول الثالث ، وهو أن يفرق بين أن يدعى بالأسماء أو يخبر بها عنه .

فإذا دُعِيَ لم يدع بالأسماء الحسنى كما قال تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ (الأعراف : ١٨٠)

وأما الإخبار عنه ، فهو بحسب الحاجة ، فإذا احتيج في تفهيم الغير المراد إلى أن يترجم أسماؤه بغير العربية أو يعبر عنه باسم له معنى صحيح ، لم يكن ذلك محرما

وأما الذين منعوه من جهة العقل ؛ فكثير .

منهم من يقولون : إن الجوهر ما شغل الحيز ، وحمل الأعراض ، والله سبحانه

وتعالى ليس كذلك ، وهذا قول من نفى ذلك من أهل الكلام .

ومنهم من يقول : الجوهر ما إذا وجد كان وجوده لا في موضوع ، وهذا إنما يكون فيما وجوده زائدا على ذاته ، وواجب الوجود ، وجوده عين ذاته فلا يكون جوهرا ، وهذا قول ابن سينا وأمثاله من متأخري المتفلسفة وأما قدماء الفلاسفة ، كأرسطو وأمثاله ، فكانوا يسمونه جوهرا ،

وعنهم أخذت النصارى هذه التسمية ، فإن أرسطو كان قبل المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، ولهذا قال هؤلاء في كتابهم : نعجب ممن ينكر ذلك وهو قرأ شيئًا من كتب الفلاسفة والمنطق .

وقد ذكرت طائفة أن أفلاطون وغيره كانوا ينكرون تسميته جوهراً وأن أرسطو سماه جوهراً ، وم حكى النزاع بينهم أبو النصر الفارابي .

وأما اللغة فإن لفظ الجوهر ليس من العربية العرباء ، ولهذا لا يعرف في كلام العرب المحض ، وإنما هو معرب كما ذكر ذلك الجوهري وغيره .

قال الجوهري : الجوهر معرب ،الواحدة : جوهرة ، فهو من العربية المعربة ، لا من العربية العرباء ، كلفظ سجيل ، وإستبرق ، وأمثال ذلك من الألفاظ المعربة ، وهذا اللفظ ليس موجوداً في القرآن .

ومع هذا فلما عرب كان معناه في اللغة هو الجوهر المعروف وتسمية القائم بنفسه ، أو الشاغل للحيز جوهراً ، فهو أمر اصطلاحي ، ليس هو من الأسماء اللغوية ولا العرفية العامة ؛ ولا الأسماء الشرعية .

وقد قيل : إنه مأخوذ من كلام الأوائل ، كاليونان وغيرهم ، فإنه يوجد في كلامهم تسمية القائم بنفسه جوهراً .

وقد قيل : سموه بذلك ، لأن جوهر الشئ أصله ، والقائم بنفسه هو الأصل - وقد

يسمون العرض القائم بغيره جوهراً .

وقيل : لأن لفظ الجوهر ، فوعل ، من الجهر ، وهو الظهور والوضوح به والقائم بنفسه يظهر ويعرف قبل أن يعرف ما قام به من الأعراض .

والناس متفقون على إثبات الأعيان القائمة بنفسها التي تسمى جواهر أو أجسامًا ، وتنازعوا في ثبوت الأعراض القائمة بها ، والنزاع عند محققيهم لفظي ، فإن عاقلا لا ينازع أن الجسم يتحرك بعد سكونه .

لكن منهم من يقول : حركته ليست زائدة على ذاته .

ومنهم من يقول هي زائدة على ذاته ، وهو نظير نزاعهم في الصفات ، هل هي زائدة على الذات أو ليست زائدة ؟

والتحقيق أن مسمى الإنسان إذا أطلق ، دخل فيه صفاته ، وإذا ميز بين هذا وهذا ، قيل : الذات والصفات .

ومن الناس من يخص بلفظ العرض ما لم يكن من الصفات لازمًا للموصوف .
والصفات اللازمة يسميها صفات ذاتيه أو جوهرية .

ومنهم من يخص بالعرض مالا ينفي (١) عنده زمانين ، ويقول صفات المخلوقات تسمى أعراضًا ، لأنها لا تقبل زمانين بخلاف صفات الله ، فإنها ثابتة فلا تسمى أعراضًا .

ومن نُظّار المسلمين وغيرهم من يسمى صفات كل موصوف أعراضًا ، إذا كان كذلك فلا يدخل في أسماء الله التي تذكر في أصول الإيمان التي يجب اعتقادها من الأسماء ، ما هو اصطلاح طائفة من الناس ، مع أنه يوهم معنى باطلاً .

وهذا الموضع مما اضطرب فيه ـ مع النصارى ـ كثير من الناس .

---

(١) قوله « ينفي » كذا في الأصل ، والصواب « يبقى » كما هو مقرر في علم الفلسفة .

منهم : من يجعل الصفات أعيانًا قائمة بنفسها وجواهر قائمة بنفسها .

ومنهم : ـ من يجعل الأعيان القائمة بنفسها صفات ، والصفات لا تقوم بأنفسها ، بل لابد لها من موصوف تقوم به .

والأولون نوعان :

منهم : ـ من نفى الصفات : وقال : لو أثبتنا له حياة وعلماً ، وقدرة ، لزم أن تكون هذه آلهة ، فإن القدم أخص وصفه ، فلو أثبتنا قديمًا ليست هي الذات ، لزم أن يشارك الذات في أخص وصفها ، فتكون ذاتًا أخرى قائمة بنفسها وهذه طريقة كثير من نفاة الصفات من مبتدعة المسلمين ، اليهود والنصارى احتجوا على نفي الصفات بأنا لو أثبتناها ، لزم أن تكون آلهة .

وقال من قال من المنتسبين إلى الإسلام : إنا لو أثبتنا الصفات ، لقلنا بقول النصارى حيث أثبتوا لله الأقانيم ، وحجة هؤلاء قائمة على النصارى ، وهم النوع الثالث ، فإنهم أثبتوا لله صفات وجعلوها جوهراً قائماً بنفسه ، فقالوا : إن الله موجود حي ناطق ، ثم قالوا : حياته جوهر قائم بنفسه ، ونطقه ـ وهو الكلمة ـ جوهر قائم بنفسه ، وقالوا في هذا إنه إله من إله ، وهذا إله من إله ، فأثبتوا صفات لله وجعلوها جواهر قائمة بنفسها ، ثم قالوا : الجميع جوهر واحد ، فكان في كلامهم أمور كثيرة من الباطل المتناقض .

منهم : ـ من جعل الصفات جوهراً .

ومنهم : ـ من جعل الجواهر المتعددة جوهراً واحداً .

والذين قالوا من نفاة الصفات من المعتزلة والجهمية : إن من أثبت الصفات ، فقد قال بقول النصارى ، فهو متوجه على من جعل الصفات جواهر .

وهؤلاء هم والنصارى يزعمون أن الصفات جواهر آلهة ، ثم قال هؤلاء ولا إله إلا الله ، فلا صفة له .

وقالت النصارى : بل الأب جوهر إله ، والابن جوهر إله ، وروح القدس جوهر

إله ، ثم قالوا : والجميع إله واحد .

ونفس تصور هذه الأقوال التصور التام ، يوجب العلم بفسادها .

وليس الرسل وأتباعهم ، فنطقوا : إن لله علماً وقدرة وغير ذلك من الصفات وبينوا أن الإله واحد .

فإذا قال القائل : عبدت الله ، ودعوت الله ، فإنما دعا وعبد إلهاً واحداً ، وهو ذات متصفة بصفات الكمال ، لم يعبد ذاتاً لا حياة لها ولا علم ولا قدرة ، ولا عبد ثلاثة آلهة ولا ثلاثة جواهر ، بل نفس اسم الله يتضمن ذاته المقدسة المتصفة بصفاته سبحانه ، وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ولا زائدة على مسمى اسمه ، بل إذا قدر ذات مجردة عن الصفات ، فالصفات زائدة على هذه الذات المقدرة في الذهن المجردة عن الصفات ، ليست الصفات زائدة على الذات المتصفة بالصفات ، فإن تلك لا وجود لها إلا بصفاتها ، فتقديرها - مجردة عن صفاتها - تقدير ممتنع .

وقد تنازع المثبتة : هل يقال الصفات غير الذات ، أما يقال ليست غير الذات ؟ أما يقال : لا يقال غير الذات ، ولا يقال ليست غير الذات ؟

وتنازعوا في مسمى الغيرين : هل مما جاز مفارقة أحدهما الآخر مطلقاً أو ما جاز مفارقته بوجود أو زمان أو مكان ، أو هما ما جاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر ؟ وغير ذلك منازعات لفظية .

وكثير منهم فرق في الصفات اللازمة بين بعضها وبعض .

فجعل بعضها زائداً على الذات ، وبعضها ليس بزائد على الذات ، وكان الفرق بحسب ما يتصوره ، لا بحسب ما الأمر عليه في نفسه .

فإذا أمكنهم تصور الذات بدون صفة ، قالوا : هذه زائدة ، وإلا قالوا : ليست زائدة ، وهذا يقتضي أنها زائدة على ما تصوروه هم من الذات ، لا أنه في الخارج ذات مجردة من تلك الصفة وصفة زائدة عليها ، بل ليس إلا الذات المتصفة بتلك الصفات .

ولكن يجب الفرق بين إن يقال : أن الصفات غير الذات ، وبين أن يقال : إنها غيرالله ، فإن اسم الله متناول لذاته المتصفة بصفاته .

فإذا قال القائل : دعوت الله ، وعبدت الله فلم يدع ذاتًا مجردة ولا صفات مجردة ، بل دعا الذات المتصفة بصفاتها ، فاسمه تعالى يتناول ذلك فليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ولا زائدة على ذلك . وإن قيل : إنها زائدة على الذات المجردة .

ومن ظن أنها زائدة على الذات المتصفة بصفاتها التي تدخل صفاتها في مسماها ، فقد غلط ، ولكن الأذهان والألسنة تزلق في هذا الموضع كثيراً .

فإذا قيل : الصفات مغايرة للذات ، لم يكن في هذا من المحذور ما في قولنا : إن صفات الله غير الله فإن اسم الله يتناول صفاته .

فإذا قيل : إنها غيره ، فهم من ذلك أنها مباينة له ، وهذا باطل .

ولهذا كان النفاة إذا ناظروا أئمة المسلمين ، كما ناظروا الإمام أحمد بن حنبل في محنته المشهورة ، فقالوا له : « ما تقول في القرآن وكلام الله ، أهو الله ، أم غير الله ؟ »

عارضهم بالعلم ، وقال لهم : « ما تقولون في علم الله ، أهو الله أم غير الله ؟ »

وأجاب أيضًا بأن المرسلين لم تنطق بواحد من الأمرين ، فلا حجة لكم في كلام الله ورسوله ، فإن الله لم يقل لكلامه : هو أنا ، ولا قال : إنه غيري حتى يقول القائل ، إذا كان قد جعل كلامه غيره وسواه ، فقد أخبر أنه خالق لكل ما سواه .

فإن كان الإحتجاج بالسمع فلا حجة فيه ، وإن كان الاحتجاج بالعقل ، فالمرجع في ذلك إلى المعاني لا إلى العبارات .

فإن أراد المريد بقوله : هل كلامه وعلمه غيره أنه مباين له فليس هو غير إله بهذا الاعتبار .

وإن أراد بذلك أن نفس الكلام والعلم ، ليس هو العالم المتكلم ، فهو غير إله بهذا

الاعتبار .

وإذا كان اللفظ مجملا لم يجز إطلاقه على الوجه الذي يفهم المعنى الفاسد وأما الذين جعلوا الأعيان القائمة بأنفسها صفات ، فهم هؤلاء المتفلسفة النفاة للصفات ، ومن أشبههم ، فإنهم قالوا : إن رب العالمين عقل ، وعاقل ، ومعقول .

ولفظ « العقل » عندهم ، وإن كانوا يقولون : هو جوهر قائم بنفسه ، فقد صرحوا أيضًا بأنه نفسه علم ، حتى صرحوا بأن رب العالمين علم ، كما صرح بذلك ابن رشد وغيره .

ونقلوه عن أرسطو ، وأن العقول العشرة كل منها علم فهو علم وعالم ومعلوم . بل قالوا : عقل وعاقل ومعقول ، وعاشق ومعشوق وعشق ، ولذيذ وملتذ ولذة ، فجعلوه نفسه لذة وعقلا وعشقًا ، وجعلوا ذلك هو العالم العاشق الملتذ، وجعلوا نفس العلم نفس العشق ، ونفس اللذة .

فجعلوه نفسه صفات ، وجعلوه ذاتًا قائمة بنفسها وجعلوا كل صفة هي الأخرى ، وهذا مما يعلم بصريح العقل بطلانه .

ومنهم من لا يصرح بأنه نفسه علم ، فإنه يقول : هو عاقل ومعقول وعقل ، يقول : إنه يعلم نفسه بلا علم ، بل هو العالم وهو المعلوم ، وهو العلم .

وحقيقة كلامهم يعود إلى قول أولئك فإنهم إذا قالوا : إن العلم الذي يعلم به ذاته هو العالم ، وهو المعلوم . فقد جعلوا نفس العلم نفس العالم ، ونفس العلم نفس المعلوم ، وهذا هو حقيقة قول أولئك ، وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع .

الوجه الثاني : ـ أن يقال لهم : أنتم تقولون : إنكم متبعون للكتب الإلهية ، وإذا كان كذلك لم ينبغ لكم أن تدخلوا في شريعة إيمانكم من الأسماء إلا ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام .

والأنبياء لم يسم الله أحد منهم جوهرًا وإنما سماه بذلك أرسطو وأمثاله ، وهؤلاء كانوا مشركين يعبدون الأصنام ، ولم يكونوا يعرفون الله المعرفة الصحيحة ولا

يقولون : إنه خالق السماوات والأرض ولا إنه بكل شئ عليم ولا على كل شئ قدير ، وإنما كانوا يعبدون الكواكب العلوية والأصنام السفلية ، ويعبدون الشياطين ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت .

وإنما صاروا مؤمنين ، لما دخل إليهم دين المسيح ، صلوات الله عليه وسلامه ، بعد الإسكندر المقدوني - صاحب أرسطو - بنحو ثلاثة مائة سنة وكانوا يسمون الملك من ملوكهم بطليموس ، كما تسمى القبط ملكها فرعون ، والحبشة ملكها النجاشي ، والفرس كسرى ونحو ذلك .

وحنيئذ فعدولكم عن طريقة الأنبياء والمرسلين إلى طريقة الكفار والمشركين المعطلين من الضلال المبين .

وفي كتبهم : أن بولص لما صار إلى أثينا ، دار الفلاسفة ، وفيها دار الأصنام ، وجد مكتوبًا على باب دار العلماء والأصنام مكتوبًا « الإله الخفي الذي لا يعرف ، هو الذي خلق العالم » فكانوا لا يعوفون رب العالمين ، فكيف يعدل عن طريقة رسل الله وأنبيائه ، كموسى ، وداود ، والمسيح إلى طريقة هؤلاء الكفار المشركين المعطلين ؟!

ولكن النصاري ركبوا من دينا من دينين من دين الأنبياء الموحدين ، ودين المشركين فصار في دينهم قسط مما جاءت به الأنبياء ، وقسط مما ابتدعوه من دين المشركين في اقوالهم وأفعالهم ، كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم ، وهى أله ظلا توجد في شئ من كلام الأنبياء ، وكما أحدثوا الأصنام المرقومة بدل الأصنام المجدة ، والصلاة إلي الشمس والقمر والكواكب ، بدل الصلاة إليها ، والصيام في وقت الربيع ، ليجمعوا بين الدين الشرعى، والأمر الطبيعى وغير ذلك .

الوجه الثالث :- قولهم إن الذى يشغل حيزًا ويقبل عرضًا هو الجوهر الكثيف.

فأما الجوهر اللطيف فما يقبل عرضًا ولا يشغل حيزًا ، جوهر النفس ، وجوهر العقل ، وجوهر الضوء.

فيقال : الكلام في الجواهر ، هل هى منقسمةإلى متحيز وغير متحيز ، أو كلها متحيز؟ وهو متصل بالكلام على نفس الإنسان الناطقة.

فنقول : إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة ، ووجودالجن ، كما دل علي ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وكذلك سلف الأمة وأئمتها ، يعرفون النفس التى هى روح الإنسان التى تفارق بدنه حين الموت ،كما دل على ذلك الكتاب والسنة ،واجماع السلف والأئمة ، وإن كان كثير من أهل الكلام يزعم أنها عرض من أعراض البدن ، أو جزء من أجزائه ، فهذا قول محدث في الإسلام لم يذهب إليه أحد من السلف والأئمة، وإن كان محكيًا عن أكثر المتكلمين ، فليس الذين قالوا هذا من سلف الأمةولا أئمتها ، بل هم من أهل الكلام المحدث المذموم عند السلف .

وأئمة الأمة ، وكثير من المتفلسفة الداخلين في أهل الملل يقولون : إن الذوات التى تسميها الأنبياء الملائكة ، هى التى تسميها المتفلسفة المشاؤون عقولا ، أو عقولا ونفوسا ، وهذا غلط عظيم ، كما قد بسط في موضعه.

فإن العقول التى يثبتها هؤلاء المتفلسفة، لا حقيقة لها عند الرسل واتباعهم ، بل ولا حقيقة لها عند العقل الصريح أنها أعراض قائمة بأنفسها .

وقد صرحوا بأن واجب الوجود نفسه هو علم ، وجعلوا نفس العلم هو نفس العالم ، ونفس تصور هذا القول يكفى في العلم بفساده ، كما أن هؤلاء المتفلسفة ، أتباع أرسطو لا يعرفون الملائكة ، بل ولا الجن ، وإنما علمهم بمعرفة الأجسام الطبيعية، وتكلموا في الإلهيات بكلام قليل نزر . باطله أكثر من حقه ، كما بسط في موضع آخر.

وهؤلاء يزعمون أن العقل الأول أبدع ما دونه من العقول والأفلاك إلى أن ينتهى الأمر إلى العقل العاشر ، فهو مبدع ما تحت فلك القمر .

وهذا كله من أعظم الكفر عند الرسل وأتباعهم أهل الملل .

فإن مضمون هذا ، أن ملكًا من الملائكة خلق كل ما تحت السماء ، وملكا فوقه خلق كل ما سوى الله سبحانه ، وهذا من أعظم الكفر في دين المرسلين وأهل الملل، المسلمين ، واليهود ، والنصارى قال تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ .(سورة الأنبياء آية : ٢٦-٢٨)

فأخبر أن الملائكة لا تسبقه بالقول ، ولا تعمل إلا بأمره ، فضلا عن أن يكون ملك هوخلق كل شئ.

وهؤلاء يقولون : إن الوحي والكلام الذى جاءت به الرسل، إنما هو فيض من هذا العقل الفعال على قلوب الأنبياء

والله تعالى – عند هؤلاء – لم يكن يعرف موسى ولا عيسى ولا إبراهيم ولا محمداً ولا غيرهم من الرسل ، ولا يعرف الجزئيات ،بل عند أرسطو وأتباعه ، أنه لا يعلم شيئًا من الأشياء ، بل ولا خلق عندهم شيئًا ، بل ولا يقدر عندهم على خلق شئ ، فضلا عن أن يكون على كل شئ قدير ، وأن يكون قد أحاط بكل شئ علمًا.

وأرسطو وقومه ، كانوا مشركين يعبدون الأصنام بمقدونية، وأثينة، وغيرهما من مدائن فلاسفة اليونان ، وكان وزيراً للإسكندر بن فيلبس المقدوني وكان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة، ولم يكن وزيراً لذي القرنين الذي بنى سد يأجوج ومأجوج، وكان عامة علم القوم : الطبيعيات والحسابيات وأما العلم الإلهى– وهو الذى يسمونه علم ما بعد الطبيعة ، وهو منتهى فلسفتهم – فإنما تكلموا فيه على أمور كلية ، قسموا الوجود إلى جوهر وتسعة أعراض يجمعها بيتان:

زبد الطويل الأسودبن مالك   في داره بالأمس كان متكى

في يده سيف نضاه فانتضى   فهذه عشر مقولات سوا

وهى : ١:–الجوهر. ٢:– والكم . ٣:– والكيف .

٤:– الإين ٥:–ومتى. ٦:– والإضافة

٧:– والملك ٨:– والوضع. ٩:– وأن يفعل.

١٠:–وأن ينفعل.

وقد نازعه أتباعه وغيرهم في هذا الحصر ، وقالوا : إنه لا دليل عليه .

ومنهم من جعلها ثلاثة.

ومنهم من قال غير ذلك ، وأثبت العلة الأولى بناء على حركة الفلك ، وأنه يتحرك حركة شوقية. فلا بد له مما يتشبه به.

فالعلة الأولى هى علة لحاجة الفلك إليها من جهة أنه يتحرك ليتشبه بها كحركة المؤتم بإمامه ، والمقتدى بقدوته، وقد يقولون : كتحريك المعشوق لعاشقه.

وكلام أرسطو في ذلك موجود ، وقد نقلته بألفاظه وتكلمت عليه في غير هذا الموضع ، وقد ذكر ذلك في مقالة اللام وهى آخر فلسفته ، ومنتهى حكمته .

وفي كتاب أثولوجيا (ولم يثبت أن الرب مبدع للفلك ، ولا علة فاعلة، ولا سماه واجب الوجود ، ولا قسم الموجودات إلى واجب قديم وممكن قديم .

بل ذلك فعل المتأخرين ، وكابن سينا وأمثاله ، وقد بسطنا الكلام عليهم في عير هذا الموضع.

والمتأخرون الذين سمعوا كلام أهل الملل ، أرادوا إصلاح كلامه وتقريبه إلى العقول ، لعلة توافق ما علم بصريح المعقول ، وصحيح المنقول .

فتكلم عليه ثابت بن قرة ، وبيّن أن الفلك إذا كان لا قوام له إلا بطبيعة ، ولا قوام

لطبيعته إلا بحركته ، ولا قوة لحركته الإرادية إلا بمحرك لها .

وزعموا أن المحرك يجب ألا يكون متحركا، وقرروا ذلك بأدلة فاسدة، قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع ، فقالوا : إنه إنما تحرك الفلك ، من جهة نسبة الفلك به ، وإن لم يكن هو القادر على تحريك الفلك ، بل ولا شعور منه بالفلك .

وعبر عن ذلك ابن رشد الفيلسوف وأمثاله ، فقالوا :إنه يأمر الفلك بالحركة وقوام الفلك بطاعته لأمر الله .

مع أنه عندهم لا إرادة له ولا علم له بما يأمر به ، بل كونه أمراً ، هومعنى كون الفلك يتشبه به ، كما يأمر المعشوق عاشقه أن يحبه ، وإن كان المعشوق لا شعور له ولا إرادة في أن يحبه ذلك.

ثم لو قدر أنه هو الآمر ، فإنما يصدر بسبب أمره ، مجرد حركه الفلك ، ولهذا شبهوا ذلك بأمر السلطان لعسكره بأمر يطيعونه فيه ، فجعلوا الحركات معلولة له بهذا الاعتبار ، لم يثبتوا أنه أبدع سيئًا من الأفلاك والعناصر والمولدات لا العقول ولا النفوس ، لا أبدع أعيانها ولا صفاتها ولا أفعالها ، بل غايته أن يكون آمراً لها بالحركة كأمر الملك لعسكره ، مع أنه عندهم ليس آمراً بالحقيقة بل ولاعلم له بشئ من الموجودات .

بل غاية مايزعم أرسطو وأتباعه : أن للفلك حاجة إليه من جهة تشبهه به .

وأما كونه هو علة موجبة للفلك . وإنما يقول هذا من يقوله من متأخريهم ، كابن سينا .

وأما الفارابى ، فهو الذى وسّع القول في هذا الباب ، وقسم الموجود إلى واجب وممكن ، وجعل الأفلاك واجبة ممكنه بـه ، وفى ذلك من الفساد والاضطراب ، ماقد بسط في غير هذا الموضع .

وبنى ابن سينا الكلام في نفى صفاته عن كونه واجب الوجود .

وأما الفارابى في كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وغير ذلك ، فاعتمد على كونه أول . وكذلك أرسطو، في كتاب « أثولوجيا » اعتمد على كونه هو الأول ، وشبيهه بالأول في العدد ، وعلى ذلك بنو نفى الصفات ، وأنا لو أثبتناها لخرج عن كونه أول ، مع أنهم لم يقيموا حجة على كونه أول بهذا المعنى الذى زعموه كما لم يقيموا حجة على كونه واجب الوجود بالمعنى الذى ادعوه ، بل تكلموا بألفاظ مجملة متشابهة ، تحتمل حقًا وباطلا. فإنه معلوم أن الله واجب الوجود بذاته ، موجود بنفسه ، وأنه الأول الذى ليس قبله شئ ، وهو القديم الأزلى الذى لم يزل ولايزال .

وهؤلاء جعلوا وجوب الوجود بمعنى أنه لايتعلق بغيره ، فلايكون له صفة .

وكونه أول ؛ بمعنى أول الأعداد الذي لاتعدد فيه .

ومعلوم أن الواحد والأول المجرد عن كل شئ إنما يقدر في الأذهان لافي الأعيان .

فالذهن يقدر واحدا واثنين وثلاثة وأربعة ، إلى سائر الأعداد المجردة .

والعدد المجرد عن المعدود ، إنما يوجد في الأذهان ، لافي الأعيان .

فأما الموجود في الخارج ، فإنما هى أعيان قائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها .

والأول منها هو ذات متصفة بصفاتها ، لايوجد في الأعيان شئ ليس بذات قائمة بنفسها ، ولاصفة قائمة بغيرها ، بل لايوجد ذات مجردة عن صفاتها وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع .

ولكن نبهنا هنا عليها ، لأن هؤلاء القوم قالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم ، أنهم ذو فضل وأدب ومعرفة ، ومن هذا صورته ، وقد قرأ شيئًا من كتب الفلاسفة والمنطق ، فما حقهم ينكرون علينا هذا .

فكان كلام هؤلاء النصارى يتضمن تعظيم الفلاسفة ، وأهل المنطق وأن من قرأ كتبهم ، عرف بها عن الحق في الإلهيات ، مالايعرفه سائر أهل الملل .

وهذا يدل على جهل هؤلاء النصارى ، بما جاءت به الرسل ، وبما يعرف بالعقل المحض .

أما الأول فلإنَّ المسيح وأتباعه كالحواريين ومن اتبعهم ، ليس فيهم من عظم هؤلاء الفلاسفة ، ولا استعان بهم ، ولا التفت إليهم ، بل وهم عندهم من أئمة الكفر ، ورؤوس الضلال .

وكذلك موسى وأتباعه ، وكذلك محمد وأتباعه .

وليس في رسل الله وأنبيائه ، ولا في أتباعهم من يعظمهم ، ولايستعين بكلامهم ، بل الرسل وأتباعهم متفقون على تضليلهم وتجهيلهم .

وأما العقليات ، فإنما يعظم كلام هؤلاء الفلاسفة في العلوم الكلية والإلهية من هو من أجهل الناس بالمعارف الإلهية والعلوم الكلية ، إذ كان كلامهم في ذلك فيه من الجهل والضلال مالا يحيط به إلا ذو الجلال .

وإنما كان القوم يعرفون مايعرفونه من الطبيعيات والرياضيات ، كالهندسة وبعض الهيئة وشيئًا من علوم الأخلاق والسياسة المدنية والمنزلية ، التى هى جزء مما جاءت به الرسل .

واليهود والنصارى ـ بعد النسخ والتبديل ـ أعلم من هؤلاء بالعلوم الإلهية والأخلاق والسياسات ، فضلا عما وراء ذلك .

فاعتضاد هؤلاء النصارى بهؤلاء المتفلسفة ، يدل على عظيم جهلهم بالشرعيات والعقليات ، وهذا قد بسط الكلام عليه في مواضع متعددة .

إذ كان الرد على الفلاسفة لايختص به النصارى ، بل الكلام في ذلك معهم ومع

من يعظمهم من أهل الملل عموما .

ومعلوم أن المنتسبين إلى الإسلام من أتباع الفلاسفة ، كالفارابى ، وابن سينا ، والسهروردى المقتول ، وابن رشد الحفيد وأمثالهم ، أحذق بهم وأعلم من النصارى .

وكتب الفلاسفة التى صارت إلى المسلمين ، من الطب والحساب والمنطق ، وغير ذلك ، هذبها المنتسبون إلى الإسلام ، فجاء كلامهم فيها خيراً من كلام أولئك اليونان .

والنصارى واليهود إنما يعتمدون في هذه العلوم على ماوضعه هؤلاء المنتسبون إلى الإسلام ، مع أن هؤلاء عند علماء المسلمين جهال ضلال في الإلهيات والكليات ، فكيف يكون سلفهم ومن يعظمهم من اليهود والنصارى ؟

ولما صار أولئك اليونان عارفين بالله ، موحدين له ، عابدين له مؤمنين بملائكته وكتبه ورسله ، لما دخل إليهم أتباع المسيح يدعونهم إلى دين الله الذى بعث به المسيح .

وكل من كان من أتباع المسيح ، غير مبدل لشئ من دينه قبل النسخ فإنه من المؤمنين المسلمين المهتدين ، وهم من أولياء الله المتقين من أهل الجنة .

ومن ظن أن كلام الرسل يوافق هؤلاء اليونان ، فإن ذلك يدل على جهله بما جاءت به الرسل وبما يقوله هؤلاء .

وإنما يوجد مثل هذا في كلام الملاحدة من أهل الملل ، ملاحدة اليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم ، كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وأمثالهم من الملاحدة المنتسبين إلى تشيع ، أو إلى تصوف ، كابن عربى وابن سبعين وأمثالهما .

وفي الكتب المضنون بها على غير أهلها ونحو ذلك من الكلام المنسوب إلى أبى حامد قطعة من ذلك .

وهؤلاء قد يحتجون بالحديث المأثور « أول ماخلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : وعزتي ماخلقت خلقًا أكرم عليّ منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب ، وعليك العقاب ».

وهذا الحديث كذب موضوع على النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك أهل العلم بالحديث ، كأبي جعفر العقيلي ، وأبي حاتم ابن حبان البستي وأبي الحسن الدارقطني ، وأبي الفرج ابن الجوزي وغيرهم .

ثم لفظه لو كان صحيحًا حجة ، على نقيض مطلوبهم ، فإنه قال : « أول ماخلق الله العقل » بنصب « أول » وفي لفظ « لما خلق الله العقل قال له » .

فلفظه يقتضي أنه خاطبه في أول ماخلقه ، فحرفوا لفظه وقالوا : أول ماخلق الله العقل بالضم ، وليس هذا لفظه ولكن لفظه يقتضي أنه خاطبه في أول أوقات خلقه ، ولهذا قال : ماخلقت خلقًا أكرم عليّ منك ، وهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره .

وعندهم هو أول المبدعات ، يمتنع أن يتقدمه شيء ، مع أنه وسائر العقول والأفلاك - عندهم - قديمة أزلية ، لم تزل ولاتزال .

ثم قال : فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب وعليك العقاب .

فجعل به هذه الأنواع الأربعة .

وعندهم أن العقل صدر عنه جميع العالم العلوي والسفلي ، وذلك أن لفظ « العقل » في الحديث سواء كان صحيحًا أو ضعيفًا ، هو العقل في لغة الأنبياء والمرسلين ، هو عقل الإنسان ، وهو عرض قائم به ، وهذا صفة قائمة بالإنسان ، ليس هو جوهرًا قائمًا بنفسه .

والعقل في لغة هؤلاء الفلاسفة ، هو جوهر قائم بنفسه .

وأما النفس الفلكية ، فلهم فيها قولان :

١- قيل إنها عرض قائم بالفلك وهو قول أكثرهم .

٢- وقيل : بل جوهر قائم بنفسه ،. ولهذا يميل ابن سينا.

وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر هؤلاء أن ثم جوهراً لطيفًا ، غير الجوهر الكثيف ، ومثلوا ذلك بالنفس والعقل والضوء .

ثم إن النصارى لم يقيموا على ثبوت شئ من ذلك دليلا ، ولادليل ، ذلك مما دلت عليه الكتب الإلهية .

فإن النفس الفلكية والعقول العشرة ، لم ينطق بها كتاب ولا رسول ، بل ولا دل عليها دليل عقلى ، وأدلة المتفلسفة عليها ضعيفة .

وإنما دل العقل على ما أخبرت به الرسل من الملائكة .

ولكن هؤلاء الذين حملوا كلام الرسل على مايوافق قول هؤلاء المتفلسفة يجعلون اللوح المحفوظ ، هو النفس الفلكية ، كما يجعلون العقل والقلم هو العقل الأول ، والعرش هو الفلك التاسع ، وغير ذلك مما قد بسط الكلام عليه في موضع آخر .

وإذا لم يقيموا حجة شرعية ولاعقلية على مامثلوا به من الجواهر اللطيفة لم يكن لهم حجة على من قال : إن الجوهر مايشغل حيزاً ويقبل عرضاً .

ولما قرنوا النفس بالعقل ، كان ذلك ظاهراً في أنهم أرادوا النفس الفلكية .

فأما إن أرادوا النفس الإنسانية ، فهذه ثابتة ، قد أخبرت بها الرسل وأتباعهم ، كما بسط في موضعه .

لكن هذه لاتقرن بالعقل الذى هو جوهر ، والعقل صفة هذه ، وهو مصدر عقل يعقل عقلا .

وقد يراد بالعقل غريزة قائمة بها ، ويراد بالعقل العمل بالعلم كما قد بسط في

موضع آخر .

الوجه الرابع : قولهم : « وجوهر الضوء » .

فيقال لهم : إن أردتم بالضوء ، نفس الشمس والنار ، فهذا جسم متحيز ، يشغل حيزاً ، أو يقبل عرضاً ، ليس هو من الجواهر اللطيفة التى مثلتم بها .

وإن أردتم بالضوء الشعاع القائم بالهواء والجدران ونحو ذلك ، فليس هذا بجوهر ، لالطيف ولا كثيف ، بل هو عرض قائم بغيره .

الوجه الخامس : قولكم : « إن الجوهر اللطيف لايقبل عرضاً » كلام ممنوع ، وهو باطل أيضاً فإن نفس الإنسان تقبل الأعراض القائمة بها وكذلك النفس الفلكية عند من أثبتها . يقوم بها إرادات وتصورات متجددة .

ولفظ « العرض » في اصطلاح النظائر يراد به ماقام بغيره سواء كان صفة لازمة أو عارضة ، وهذا موجب تقسيم النصارى . كما هو قول الفلاسفة .

فإنهم قالوا : ليس في الوجود شئ إلا وهو إما جوهر وإما عرض ، لأنه أى أمر نظرناه وجدناه إما قائماً بنفسه ، غير مفتقر في وجوده إلى غيره وهو الجوهر . وإما مفتقر في وجوده إلى غيره ، لاقوام له بنفسه وهو العرض .

قالوا : ولايمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث .

وهذا الذى قالوه هو تقسيم أرسطو وأتباعه ، وهو يسمى المبدأ الأول جوهراً وهذا تقسيم سائر النظار .

لكن أكثرهم لايدخلون رب العالمين فى مسمى الجوهر ، ومنهم من يدخله فيه وبعض النزاع في ذلك لفظى .

وإذا كان الأمر على ماقالوه . فالضوء القائم بالأرض والهواء ، عرض ليس جوهراً قائماً بنفسه ، وهم قد جعلوه جوهرا . وهذا تناقض بيِّن .

وأيضًا ، فالجواهر اللطيفة ، تقوم بها الأعراض كالحياة والعلم ، بل والرب على قولهم - تقوم به الحياة والعلم .

فإذا سموه جوهرًا ، لزمهم أن يسموا صفاته أعراضًا إذا قالوا : لاموجود إلا جوهر أو عرض .

فهؤلاء إن عنوا بالعرض هذا ، فكل جوهر يقبل الصفات . وإن أرادوا بالعرض مايعنيه المتفلسفة بالصفات العرضية التي يفرقون بينها وبين الذاتية ، مع أن هذا ليس مقتضى كلامهم ، فقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن تقسيم هؤلاء الصفات اللازمة للموصوف إلى ذاتية عرضية ، تقسيم باطل . وبتقدير أن يكون حقًا . فالنفس أيضًا تقبل الصفات العرضية . بل وكذلك كل جوهر سواء كان لطيفًا أو كثيفًا .

فقولكم : إن الجوهر اللطيف لايقبل عرضًا ، مثل جوهر النفس وجوهر العقل وجوهر الضوء ومايجرى هذا المجرى من الجواهر اللطيفة ، كلام باطل على كل تقدير

وإن عنوا بلفظ العرض شيئًا آخر لم ينفعهم ذلك . فإن المتكلمين الذين قالوا : الجوهر مايشغل حيزًا ويقبل عرضًا إنما أرادوا بالعرض مايقوم بغيره من المعانى ، سواء كان لازمًا أو عارضًا له . ومعلوم أن كل جوهر ، فإنه تقوم به المعانى . والخالق تعالى - عندهم - تقوم به الحياة والعلم ، فإذا كان الخالق تقوم به المعانى وهم يسمونه جوهرًا ، فكيف لاتقوم بغيره المعانى ؟

وهؤلاء يثبتون جوهرًا لاتقوم به الأعراض . مع قولهم : إنه تقوم به المعانى ؛ وهذا اصطلاح لهم لايوافقهم عليه أحد .

ثم يتناقضون فيقولون : الموجود إما جوهر وإما عرض ، وهذا يناقض قولهم : الموجود إما جوهر وإما عرض ، فليس في الموجودات إلا هذا أو هذا ، بل وموجب كلامهم أنها قائمة بذات الله ، فكيف بذات غيره ؟

وإن قالوا : نعنى بالأعراض ، الصفات العارضة أو القائمة بالأجسام ، كان هذا

مناقضاً لقولهم : الموجود إما جوهر ، وإما عرض ، مع قولهم : إن الرب جوهر ثلاثة أقانيم . والأقنوم ذات وصفة ، مع أقوالهم : إن الرب جوهر .

فقولهم يقتضى أن الرب جوهر تقوم به الأعراض . فكيف غيره ؟

ثم يقال : إذا قدر أنهم يدّعون ثبوت جوهر لاتقوم به الأعراض : فهذا اصطلاح لهم ، وافقوا فيه نفاة الصفات من الفلاسفة كأرسطو وأتباعه . فإنهم يقولون : إن الرب جوهر لايتصف بشئ من الصفات الثبوتية . لكن ليس هذا قول النصارى . فتبين أنهم في قولهم : إن الرب جوهر . وفى قولهم : إن من الجواهر مالاتقوم به الصفات موافقون للمشركين الفلاسفة ، أرسطو وأتباعه ، لاموافقين للمسيح والحواريين . وأنهم أثبتوا الصفات لله موافقة للمسيح والحواريين . ثم جعلوه جوهراً . ثم قالوا : إن الجوهر اللطيف لاتقوم به الصفات . وهذا قول الفلاسفة المشركين المعطلين وهذا تحقيق ماذكرناه عنهم من أنهم ركبوا ديناً من دين المسيح والحواريين ومن دين الكفار المشركين .

ونظار المسلمين لهم في تسمية صفات الله القائمة به أعراضاً نزاع بينهم :

بعضهم يسميها أعراضاً وبعضهم ينكر هذه التسمية مع اتفاق هاتين الطائفتين على قيام الصفات به .

وجمهور نظار المسلمين لايسمونه جوهراً وبعضهم يسميه جوهراً .

وأما من أنكر قيام الصفات به ، فذاك لايسمى الله جوهراً ولاجسما .

وهؤلاء النصارى متناقضون تناقضاً بيناً ، ولهذا كان لهم طريقة لايوافقهم عليها أحد من طوائف العقلاء وذلك يظهر .

بـ الوجه السادس : ـ وهو أن الناس لهم في إثبات الصفات القائمة بذات الله تعالى قولان :

فسلف المسلمين وأئمتهم ، وجمهور الخلق من أهل الملل وغير أهل الملل ، يثبتون قيام الصفات بالله تبارك وتعالى ، وهل تسمى أعراضاً ؟ على قولين ٠

والقول الثاني : ـ قول من ينفي الصفات ، مثل الملاحدة الجهمية ونحوهم ، من مبتدعة المسلمين ، ومن وافقهم من الفلاسفة ، وبعض اليهود والنصارى ٠

فهؤلاء لا تقوم به المعاني والصفات عندهم ، فلا يقولون تقوم به الأعراض ثم من هؤلاء من يسميه جوهراً كأرسطو وأتباعه ، ومنهم من لا يسميه جوهراً كمتأخري الفلاسفة ، ابن سينا وأمثاله ، مع جمهور نظار المسلمين وغيرهم

وأما الجمهور القائلون بقيام المعاني به ، فبعضهم يسميها أعراضاً وإن لم يسمه جوهراً ، وقد سماه بعضهم جوهراً ، وبعضهم ينفي أن يكون أعراضاً ، وبعضهم يسكت عن النفي والإثبات ، فلا يسميها أعراضاً ، ولا ينفي تسميتها بذلك ، أو يستفصل القائل عن كونها أعراضاً ٠

وأما هؤلاء النصارى فقالوا : هو جوهر ثلاثة أقانيم ، ووصفوه بالصفات الثبوتية ، وهي الحياة والنطق ، وقالوا : الموجود إما جوهر ، وإما عرض فلزمهم أن تكون صفات الله أعراضاً عندهم ٠

ثم قالوا : الجوهر اللطيف لا تقوم به الأعراض ، ونزهوا الرب أن تقوم به الأعراض ، مع قولهم : إنه جوهر ، فتناقضوا تناقضاً بينا، حيث جمعوا بين كلام الرسل وأتباعهم وبين كلام المشركين المعطلين الفلاسفة ٠

فما تلقوه عن المسيح فهو حق ، وما ابتدعوه من قول من خالف الرسل فهو باطل ٠

فجمعوا في قولهم بين الحق والباطل ، وسلكوا مسلكا لا يعرف عن غيرهم

وإيضاح هذا أن يقال في :

الوجه السابع : ـ أن هذا الذي ذكروه تناقض بين ، فإنهم قالوا : الموجود إما جوهر وإما عرض ، فالقائم بذاته هو الجوهر ، والقائم بغيره هو العرض .ثم قالوا : إنه موجود حي ناطق له حياة ونطق .

فيقال لهم : حياته ونطقه ، إما جوهر ، وإما عرض ، ليس جوهراً ، لأن الجوهر ما قام بنفسه ، والحياة والنطق لا يقومان بأنفسهما ، بل بغيرهما فهما من الأعراض ، فتعين أنه عندهم جوهر تقوم به الأعراض ، مع قولهم : إنه جوهر لا يقبل عرضا .

وإن قيل : أرادوا بقولهم : « لا يقبل عرضا » ما كان حادثا .

قيل : فهذا ينقض تقسيمهم الموجود إلى جوهر وعرض ، فإن المعنى القديم الذي يقوم به ليس جوهراً وليس حادثا .

فإن كان عرضاً ، فقد قام به العرض وقبله ، وإن لم يكن عرضاً ، بطل التقسيم .

فتبين من هذا ، أنهم يقال لهم : أنتم قلتم : إنه شئ حي ناطق ، وقلتم : هو ثلاثة أقانيم ، وقلتم : المتحد بالمسيح أقنوم الكلمة ، وقلتم في الأمانة : نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور إله حق من إله حق من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر .

ثم قلتم : إن الرب جوهر ، وقلتم : إن الذي يشغل حيزاً أو يقبل عرضاً الجوهر الكثيف .

فأما الجوهر اللطيف فلا يقبل عرضاً ولا يشغل حيزاً ، ومثل جوهر النفس وجوهر العقل ، وما يجرى هذا المجري من الجواهر اللطيفة .

فإذا كانت هذه الجواهر اللطيفة المخلوقة عرضاً ، ولا تشغل حيزاً ، فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف ، ومركب اللطائف بالكثائف يقبل عرضا ويشغل حيزاً كلا ، فصرحتم بأنه جوهر لا يقبل عرضاً ، وقلتم : ليس في الوجود شئ إلا وهو إما

جوهر وإما عرض ، فإن كان قائما بنفسه غير محتاج في وجوده إلى غيره ، فهو الجوهر ، وإن كان مفتقراً في وجوده إلى غيره ، لا قوام له بنفسه فهو العرض .

فيقال لكم : الابن القديم الأزلي الموجود من جوهر أبيه ، الذي هو مولود غير مخلوق ، الذي تجسد ونزل ، هو جوهر قائم بنفسه أم هو عرض قائم بغيره ؟ والوجود عندكم إما جوهر وإما عرض .

فإن قلتم : هو جوهر ، فقد صرحتم بإثبات جوهرين ، الأب جوهر ، والابن جوهر ، ويكون حينئذ أقنوم الحياة جوهراً ثالثًا ، فهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر قائمة بأنفسها .

وحينئذ فيبطل قولهم : إنه إله واحد ، وإنه أَحَدِيُّ الذات ، ثلاثي الصفات ، وإنه واحد بالجوهر ، ثلاثة بالأقنوم ، إذ كنتم قد صرحتم - على هذا التقدير - بإثبات ثلاثة جواهر .

وإن قلتم : بل الابن القديم الأزلي ، الذي هو الكلمة ، التي هي العلم والحكمة ، عرض قائم بجوهر الأب ، ليس هو جوهراً ثانيًا ، فقد صرحتم بأن الرب جوهر تقوم به الأعراض ، وقد أنكرتم هذا في كلامكم ، وقلتم : هو جوهر لا تقوم به الأعراض ، وقلتم : إن من المخلوقات جواهر لا تقوم بها الأعراض . فالخالق أولى ، وهذا تناقض بين ، لا حيلة فيه لمن تدبر كلامهم ، أوله وآخره .

فإن كلامهم هذا يوجب أنه جوهر واحد ، لا يقوم به شئ من الأعراض ، وهم يقولون : جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم ، وسواء سموها صفات أو خواص أو أعراضًا ، أو قالوا : الأقنوم هو الذات والصفة .

فيقال لهم : الرب مع الأقانيم ، ثلاثة جواهر ، أو جوهر واحد له ثلاث صفات ، أو جوهر واحد لا صفة له ؟

فإن قالوا : ثلاثة جواهر ، وأثبتوا ثلاثة ، بطل قولهم : إن الرب جوهر واحد ، وإله

واحد ، وصرحوا بإثبات ثلاثة آلهة .

وإن قالوا : بل جوهر واحد له ثلاث صفات ، فقد صرحوا أن هذا الجوهر تقوم به الصفات ، وإذا قامت به الصفات ـ وقد سموه جوهرًا ، وقالوا : كل موجود إما جوهر ، وإما عرض ، لزمهم قطعًا أن تكون صفاته أعراضًا ، فبطل قولهم : إنه جوهر لا تقوم به الأعراض .

وإن قالوا : جوهر واحد ، لا تقوم به الصفات بحال ، بطل قولهم : له حياة ونطق وإذا نفوا الصفات ، أبطلوا التثليث والاتحاد ، وبطلت الأمانة مع مخالفتهم لكتب الأنبياء ، فإنها مصرحة بإثبات الصفات ، ومع مخالفتهم لصريح العقل .

والمقصود أنهم يتناقضون تناقضًا بينًا ، لأنهم أثبتوا جوهرًا لا تقوم به الأعراض ، مع قولهم : الموجود إما جوهر وإما عرض ، ومع قولهم : إنه جوهر ثلاثة أقانيم .

فإذا لم تقم به الأعراض ، لم يكن له صفات ، فإن الصفة قائمة بغيرها ، ليست جوهرًا ، بل هي ـ إذا كان الموجود إما جوهر وإما عرض ـ من قسم الأعراض ، لا من قسم الجواهر ، فكان هذا الكلام نافيًا لقيام الصفات به مطلقًا .

ثم قالوا بالأقانيم التي توجب إما إثبات صفات ، وإما إثبات جواهر ثلاثة قائمة بنفسها ، مع أنها إذا قامت بنفسها ، لزم اتصافها بالصفات

ولا ريب أن القوم يجمعون في قولهم ، بين النقيضين ، بين إثبات الصفات ونفيها وبين إثبات ثلاثة جواهر ، ثلاثة آلهة ، وبين قولهم : الإله واحد .

وسبب ذلك ، أنهم ركبوا لهم اعتقادا ، بعضه من نصوص الأنبياء المحكمة ، كقولهم : الإله واحد ، وبعضه من متشابه كلامهم ، كلفظ الابن ، وروح القدس ، وبعضه من كلام الفلاسفة المشركين المعطلين ، كقولهم : جوهر لا تقوم به الصفات .

ومما يوضح ذلك أنك تجد عامة علماء النصارى ـ فضلا عن عامتهم ـ لا يعرفون ما

نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، مع اتفاقهم على أن المسيح لم ينسخها كلها ، ولم يقرها كلها ، بل أخبرهم أنه إنما جاء ليتمها لا ليطلبها ، وقد أحل بعض ما حرم فيها ، كالعمل في السبت .

ومعلوم أن المقصود بالرسل تصديقهم فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا فإذا كان عامة النصارى لا يميزون ما أمرهم به مما لم يأمرهم به ، ولا ما نهاهم عنه مما لم ينههم عنه - مع اعترافهم بأنه أقر كثيراً من شريعة التوراة ،بل أكثرها ، وأحل بعضها فنسخه ورفعه ، وهم لا يعرفون هذا من هذا ، لم يكونوا عارفين بما جاء به المسيح ، ولا يعرفون ما أمرهم الله على لسان موسى وسائر الأنبياء - فإنهم لا يجوز لهم العمل بكل ما في التوراة ، بل قد نسخ المسيح بعض ذلك باتفاقهم ، واتفاق المسلمين على ذلك .

ولا يجوز لهم تعطيل جميع شريعة التوراة ، بل يجب عليهم العمل بما لم ينسخه المسيح .

وعامتهم لا يعرفون ما نسخه ، مما لم ينسخه ، فلا يمكنهم العمل بالتوراة والانتفاع بها في الشرع ، حتى يعرفوا المنسوخ منها من غير المنسوخ .

وعامتهم لا يعرفون ذلك ، فلم يكونوا حينئذ على شريعة منزلة من الله ، لا من جهة المسيح ، ولا من جهة موسى ، فلم يعلموها ، بل كان ذلك مجهولا عند عامتهم وجمهورهم أو جميعهم ، فكانوا محتاجين إلى أن يعرفوا ما شرعه الله مما لم يشرعه .

فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بشرع ، أمر فيه بمحاسن ما في الكتابين ، وعوض عما نسخه بما هو خير منه .

فصـــل

ثم قالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم الذين مع أدبهم وما يأخذون به أنفسهم من

الفضل ، كيف لم يعلموا أن الشرائع شريعتان ، شريعة عدل وشريعة فضل ، لأنه لما كان الباري عدلا وجوادًا ، وجب أن يظهر عدله على خلقه .

فأرسل موسى الى بني إسرائيل ، فوضع شريعة العدل ، وأمرهم بفعلها إلى أن استقرت في نفوسهم .

ولما كان الكمال الذي هو الفضل ، لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال ، وجب أن يكون هو ـ تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه ـ الذي يضعه ، لأنه ليس شئ أكمل منه ، ولأنه جواد ، وجب أن يجود بأجل الموجودات .

وليس في الموجودات أكمل من كلمته ، ولذلك وجب أن يجود بكلمته ، فلهذا وجب أن يتحد بذات محسوسة ، يظهر منها قدرته ووجوده .

ولما لم يكن في المخلوقات أجل من الإنسان ، اتحد بالطبيعة البشرية من السيدة الطاهرة ، من مريم البتول المصطفاه على نساء العالمين .

وبعد هذا الكمال ، ما بقى شئ يوضع ، لأن جميع ما تقدمه منقصة وما يأتي بعد الكمال ، غير محتاج إليه لأنه ليس شئ يأتي بعد الكمال فيكون فاضلا بل دونًا ، أو أخذ منه ، والأخذ منه ، فهو فضل لا يحتاج إليه ، وفي هذا القول مقنع ، والسلام على من اتبع الهدى .

وهذا مما عرفته من أن القوم الذين رأيتهم وخاطبتهم في محمد عليه الصلاة والسلام وما يحتجون به عن أنفسهم .

فإن يكن ما ذكروه صحيحًا ، فلله الحمد ، وإن يكن خلاف ذلك ، فمولانا يكتب ذلك بعد أن جعلوني سفيراً ، والحمد لله رب العالمين .

والجواب عن هذا من وجوه :

أحدها : ـ أن يقال : بل الشرائع ثلاثة ، شريعة عدل فقط ، وشريعة فضل فقط ،

وشريعة تجمع العدل والفضل ، فتوجب العدل وتندب إلى الفضل وهذه أكمل الشرائع الثلاث ، وهي شريعة القرآن الذي يجمع فيه بين العدل والفضل ، مع أننا لا ننكر أن يكون موسى عليه السلام أوجب العدل وندب إلى الفضل ، وكذلك المسيح أيضاً أوجب العدل وندب إلى الفضل .

وأما ما يقول : إن المسيح أوجب الفضل وحرم على كل مظلوم أن يقتص من ظالمه أو أن موسى لم يندب إلى الإحسان ، فهذا فيه غضاضة بشريعة المرسلين .

لكن قد يقال : إن ذكر العدل في التوراة أكثر ، وذكر الفضل فى الإنجيل أكثر ، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال .

والقرآن بين أن السعداء أهل الجنة ، فهم أولياء الله نوعان ، أبرار مقتصدون ، ومقربون سابقون .

فالدرجة الأولى تحصل بالعدل ، وهي أداء الواجبات وترك المحرمات .

والثانية : ـ لا تحصل إلا بالفضل ، وهو أداء الواجبات والمستحبات ، وترك المحرمات والمكروهات .

فالشريعة الكاملة ، تجمع العدل والفضل كقوله تعالى : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ [البقرة : ٢٨٠] فهذا عدل واجب ، من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة .

ثم قال : ﴿ وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ، [البقرة : ٢٨٠] فهذا فضل مستحب مندوب إليه ، من فعله أثابه الله ورفع درجته ، ومن تركه لم يعاقبه .

وقال تعالى : ﴿ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة ودية مسلمة إلى أهله ﴾ ، [النساء : ٩٢] فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ فهذا فضل .

وقال تعالى : ﴿ والجروح قصاص ﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ فمن تصدق به فهو

كفارة له ﴾ [المائدة : ٤٥] فهذا فضل .

وقال تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ، [البقرة : ٢٣٧] فهذا فضل .

وقال تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ ، [النحل : ١٢٦] فهذا فضل .

وقال تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ ، [الشورى : ٤٠] فهذا فضل .

وهو - سبحانه - دائمًا يحرم الظلم ، ويوجب العدل ، ويندب إلى الفضل ، كما في آخر سورة البقرة ، لما ذكر حكم الأموال .

والناس فيها ، إما محسن وإما عادل وإما ظالم .

فالمحسن المتصدق والعادل المعاوض كالبايع ، والظالم كالمرابي .

فبدأ بالإحسان والصدقة ، فذكر ذلك ورغب فيه فقال : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ﴾ الآيات [البقرة : ٢٦١ - ٢٦٣] .

ثم ذكر تحريم الربا فقال : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك

أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ، [البقرة : ٢٧٥] .

ثم لما أحل البيع ذكر المداينات ، وذكر حكم البيع الحال والمؤجل ، وحفظ ذلك بالكتاب والشهود أو الرهن ، وختم السورة بأصول الإيمان ، من الإيمان بالكتب والرسل ، بعد أن افتتحها بذلك ، وذكر أصناف الناس ، وهم ثلاثة ، إما مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .

فذكر نعت المؤمنين ، ثم ذكر نعت الكافرين ، ثم ذكر نعت المنافقين ، ثم مهد أصول الإيمان ، فأمر بعبادة الله تعالى ، وذكر آياته وآلائه .

ثم قرر نبوة رسوله ، ثم ذكر اليوم الآخر ، والوعد والوعيد ، ثم ذكر بدء العلم وخلق السماوات والأرض ، ثم خلق آدم وإسجاد الملائكة له ، وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض .

ثم بعد أن عم بالدعوة جميع الخلق ، خص أهل الكتاب فخاطبهم .

خاطب اليهود أولا بني إسرائيل ، ثم النصارى ، ثم خاطب المؤمنين .

فقررلهم قواعد دينه ، فذكر أصل ملة إبراهيم وبناءه للبيت ودعاءه لأهل مكة ووكد الأمر بملة إبراهيم .

ثم ذكر ما يتعلق بالبيت من اتخاذه قبلة ، ومن تعظيم شعائر الله التي عنده ، كالصفا والمروة ، ثم ذكر التوحيد والحلال والحرام في المطاعم للناس عمومًا ، ثم للذين آمنوا خصوصًا .

ثم ذكر ما يتعلق بالقتل من القصاص وبالموت ، من الوصية .

ثم ذكر شرائع الدين ، فذكر صيام شهر رمضان ، وما يكون فيه من الاعتكاف .

ثم ذكر ما يتصل بشهر الصيام ، وهو أشهر الحج ، فذكر الحج ، وذكر حكم القتال عمومًا وخصوصًا في البلد الحرام .

ولما ذكر الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، ذكر بعد ذلك الحلال والحرام في الفروج .

فذكر أحكام وطء النساء والحيض ، والإيلاء منهن ، والطلاق لهن واختلاعهن .

وذكر حكم الأولاد وإرضاعهم ، واعتداد النساء ، وخطبتهن في العدة ، وطلاقهن قبل الدخول وبعده .

ثم ذكر الصلوات والمحافظة عليهن ، ثم قرر المعاد ، وما يدل عليه من إحياء الموتى في الدنيا مرة بعد مرة .

فتضمنت هذه السورة الواحدة جميع ما يحتاج الناس إليه في الدين ، أصوله وفروعه ، وافتتحها بالإيمان بالكتب والرسل ، ووسطها بالإيمان بالكتب والرسل ، وختمها بالإيمان بالكتب والرسل .

فإن الإيمان بالكتب والرسل هو عمود الإيمان وقاعدته وجماعه .

وأمر فيها الخلق عمومًا ، وخصوصًا بعد عموم ، وذكر فيها الإيمان بالخالق وآيات ربوبيته ، والإيمان بالمعاد والدار الآخرة والأعمال الصالحة التي أمر بها ، وإن من كان من أتباع الرسل ، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ، قائمًا بهذه الأصول ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، فهو السعيد في الآخرة الذي له أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

بخلاف من بدل منهم الكتاب ، أو كذب بكتاب فإن هؤلاء من الكفار .

فمن كان متبعًا لشرع التوراة ، قبل مبعث المسيح ، غير مبدل له ، فهو من السعداء .وكذلك من كان متبعًا لشرع الإنجيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، غير مبدل له فهو من السعداء ، ومن بدل شرع التوراة أو كذب بالمسيح فهو كافر كاليهود بعد مبعث المسيح عليه السلام ، وكذلك من بدل شرع الإنجيل أو كذب

محمداً فهو كافر كالنصارى بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

فقدماء اليهود والنصارى ، الذين اتبعوا الدين قبل النسخ والتبديل سعداء وأما اليهود والنصارى الذين تمسكوا بشرع مبدل منسوخ وتركوا اتباع الكتاب والرسول الذي أرسل إليهم وإلى غيرهم ، وعدلوا عن الشرع المنزل المحكم فهم كفار .

ورد دعاوي اليهود والنصارى الكاذبة مثل قول هؤلاء : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ﴾ وقول هؤلاء : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فقال : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [البقرة : ١١٢] .

وبين من كفر اليهود والنصارى ، ما عرف بهم حالهم .

لكن أكثر ما ذكر في هذه السورة اليهود كما أن أكثر ما ذكر في سورة آل عمران النصارى ، فإن هذه نزلت أول مقدمه المدينة ، وكان اليهود جيرانه .

وآل عمران تأخر نزولها إلى آخر الأمر ، لما قدم عليه نصارى وفد نجران ، وفيها فرض الحج ، لما طهر الله مكة من المشركين ، فكان أكثر دعائه في أول الأمر للمشركين ، لأنهم جيرانه بمكة ، ثم لليهود لأنهم جيرانه بالمدينة ، ثم للنصارى لأنهم كانوا أبعد عنه من ناحية الشام ، واليمن ، والمجوس أيضاً لأنهم كانوا أبعد عنه بأرض العراق وخراسان .

وهذا هو الترتيب المناسب ، يدعو الأقرب إليه فالأقرب ، ثم يرسل رسله إلى الأبعد .

وهو صلى الله عليه وسلم ، كان أولا مشغولا بجهاد المشركين واليهود .

فلما صالح المشركين صلح الحديبية وحارب يهود خيبر عقيب ذلك ففتحها الله عليه وقسمها بين الذين بايعوه تحت الشجرة الذين شهدوا صلح الحديبية ، فتفرغ لمن

بعد عنه ، فأرسل رسله إلى جميع من حواليه من الأمم .

أرسل إلى ملوك النصارى بمصر والشام والحبشة ، فإنه كان قد مات ملك الحبشة النجاشي الذي أسلم ، وأخبر الناس بموته يوم مات ، وخرج بأصحابه إلى ظاهر المدينة ، فصلى عليه بهم صلاة الجنازة ، كما كان يصلي على سائر موتى المسلمين (١) .

وتولى بعد النجاشي آخر ، فأرسل إليه كما ذكره مسلم في صحيحه وغيره (٢) .

وأرسل إلى ملوك اليمن من المشركين واليهود وإلى ملوك العرب .

وكان في العرب خلق كثير يهود وخلق كثير نصارى وخلق كثير مجوس.

فدعا جميع الخلق من اليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، عربهم وعجمهم .

---

(١) « متفق عليه » ، رواه البخاري في كتاب « الجنائز » باب « الرجل ينعي إلى أهل الميت بنفسه» (٣ / ١٣٩ ح ١٢٤٥) ، ورواه أيضاً برقم (١٣١٨ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٣٣ ، ٣٨٨٠ ، ٣٨٨١) ، رواه مسلم في كتاب « الجنائز » باب « في التكبير على الجنازة » (٢ / ٦٥٦ ، ٦٥٧ ح ٩٥١) ورقم (٩٥٢) ، ورواه أبو داود في كتاب « الجنائز » باب « الصلاة على المسلم يموت في بلاد الشرك » (٩ / ٥ ، ٦ ح ٣١٨٨) ، رواه الترمذي في كتاب « الجنائز » باب « ما جاء في التكبير على الجنازة» (٤ / ١٠٢ ج ١٠٢٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي في « السنن » في كتاب « الجنائز » باب « النعي » (٤ / ٢٦ ، ٢٧) ، ورواه النسائي أيضاً في الكبرى كتاب « الجنائز» باب « النعي » (١ / ٦١٦ ح ٢٠٠٦) ورواه برقم (٢٠٩٨ ، ٢١٠٧) ، ورواه ابن ماجه في كتاب « الجنائز » باب « ما جاء في الصلاة على النجاشي » (١ / ٤٩٠ ح ١٥٣٤) وفي الباب عن ابن عباس وابن أبي أوفى وجابر وأنس و زيد بن ثابت .

(٢) « صحيح » عن رواية أنس ، رواه مسلم في كتاب « الجهاد والسير» باب « كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل » (٣ / ١٣٩٧ ح ١٧٧٤)

ورواه الترمذي في كتاب « الاستئذان » باب « في مكاتبة المشركين » (٧ / ٤٩٩ ح ٢٨٥٩) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب »

ورواه النسائي في كتاب « السير » باب « الكتاب إلى أهل الحرب » (٥ / ٢٦٦ ح ٨٨٤٧)

الوجه الثاني : ـ أن يقال لهم : الناس لهم في أمر الله ونهيه ، قولان مشهوران .

أحدهما : أنه يرجع إلى محض المشيئة ، لا يعتبر فيه أن يكون المأمور به مصلحة للخلق ، وإن اتفق أن يكون مصلحة ، وإن كان الواقع كونه مصلحة وهذا قول من يقول : لا يفعل ولا يحكم لسبب ، ولا لحكمة ولا لغرض .

والقول الثاني : ـ وهو قول جمهور الناس ـ إن الله إنما أرسل الرسل ليأمروا الناس بما يصلحهم وينفعهم إذا فعلوه ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ، [الأنبياء : ١٠٧] وقال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ ، [طه : ١٢٣ ـــ ١٢٦] .

فإن قيل بالأول ، لم يسأل عن حكمة إرسال الرسل ، وإن قيل بالثاني ، ففي إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من الحكم والمصالح ، وأعظم مما كان في إرسال موسى والمسيح ، والذي حصل به من صلاح العباد في المعاش والمعاد أضعاف ما حصل بإرسال موسى والمسيح ، من جهة الأمر والخلق .

فإن شريعته من الهدى ودين الحق ، أكمل مما في الشريعتين المتقدمتين ، ويسر الله من اتباع الخلق له واهتدائهم به ، مالم يتيسر مثله لمن قبله ، فحصل فضيلة شريعته من جهة فضلها في نفسها ، ومن جهة كثرة من قبلها وكمال قبولهم لها .

بخلاف شريعة من قبله ، فإن موسى صلى الله عليه وسلم بعث إلى بني إسرائيل وكان فيهم من الرد والعناد في حياة موسى وبعد موته ما هو معروف .وقد ذكر النصارى في كتابهم هذا من ذلك ما تقدم .

ولم تكن شريعة التوراة في الكمال ، مثل شريعة القرآن ، فإن القرآن فيه من ذكر الميعاد ، وإقامة الحجج عليه وتفصيله ، ووصف الجنة والنار ، ما لم يذكر مثله في

التـــوراة .

وفيـه من ذكر قـصة هود وصالـح وشعيب وغـيرهم من الأنبـياء ، ما لـم يذكر في التوراة .

وفيه مـن ذكر أسماء الله الحـسنى وصفاته ، ووصف ملائكتـه وأصنافهم ، وخلق الإنس والجن ، ما لم يفصل مثله في التوراة .

وفيه من تقرير التوحيد بأنواع الأدلة ، ما لم يذكر مثله في التوراة .

وفيه من ذكر أديان أهل الأرض ، ما لم يذكر مثله في التوراة .

وفيـه من مناظرة المخالفين للرسل ، وإقـامة البـراهين على أصول الدين ، مـالم يذكر مثله في التوراة ، مع أنه لم ينزل كتاب من السماء أهدى من القرآن والتوراة .

وفي شريعة القرآن تحليل الطيبات وتحريم الخبائث .

وشريعة التوراة فيها تحريم كثير من الطيبات عليهم ، حرمت عليهم عقوبة لهم .

وفي شريعة الـقرآن من قبول الدية في الدمـاء ، ما لم يشرع في التوراة ، وفـيها من وضع الآصـار والأغـلال التي في التـوراة مـا يظهـر به أن نعـمـة الله على أهل القـرآن أكمـــــل .

وأماالإنجيل فليس فيـه شريعـة مسـتقلة ولا فـيه الكلام على التـوحيد وخلق الـعالم وقصص الأنبياء وأممهم بل أحالهم على التوراة في أكثر الأمر .

ولكن أحل لهم المسيح بعض ما حرم عليهم ، وأمرهم بالإحسان والعفو عن المظالم ، واحتمال الأذى ، والزهد في الدنيا ، وضرب الأمثال لذلك

فـعامـة مـا امتـاز به الإنجيل عن التـوراة ، بمكارم الأخـلاق المستـحسنة ، والزهد المستحب ، وتحليل بعض المحرمات وهذا كله في القرآن وهو في القران أكمل .

فليس في التوراة والإنجيل والنبوات ماهو من العلوم النافـعة والأعمال الصـالحة إلا

وهو في القرآن ، أو ما هو أفضل منه .

وفي القرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى ، ودين الحق ما ليس في الكتابين ، لكن النصارى لم يتبعوا لا التوراة ولا الإنجيل بل أحدثوا شريعة لم يبعث بها نبي من الأنبياء كما وضعوا لقسطنطين الأمانة ، ووضعوا له أربعين كتابًا ، ويسمونها القوانين ، فيها بعض ما جاءت به الأنبياء ، وفيها شئ كثير مخالف لشرع الأنبياء ، وصاروا إلى كثير من دين المشركين ، الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى وكذبوا رسله فصار في دينهم من الشرك وتغير دين الرسل ، ما غيروا به شريعة الإنجيل ، ولهذا التبست عند عامتهم شريعة الإنجيل بغيرها ، فلا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، ولا ما شرعه مما أحدث بعده .

فالمسيح لم يأمرهم بنصب الصور وتعظيمها ، ولا دعا من صورت تلك التماثيل على صورته ولا أمر بهذا أحد من الأنبياء .

لا يوجد قط عن نبي أنه أمر بدعاء الملائكة والاستشفاع بهم ، ولا بدعاء الموتى من الأنبياء والصالحين والاستشفاع بهم فضلا عن دعاء تماثيلهم والاستشفاع بها ، فإن هذا من أصول الشرك ، الذي نهت عنه الرسل ، وهذا كان أصل الشرك في بني آدم من عهد نوح عليه السلام .

قال الله تعالى عن قوم نوح : ﴿ وقالوا : لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ﴾ ، [نوح : ٢٣ ، ٢٤] .

قال كثير من العلماء (١) ، منهم ابن عباس وغيره : وهؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم وقد ذكر

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي (٦/٢٦٩) .

وانظر رواية البخاري عن ابن عباس في كتاب « التفسير » سورة نوح ، باب ﴿ ودًا ولا يغوث ويعوق ﴾ (٨/٥٣٥ح٤٩٢٠) ، وانظر تعليق الحافظ في الفتح على صحة هذه الرواية !

ذلك عن المسيح وعلماء النصارى .

والمسيح عليه السلام لم يأمرهم بعبادته ولا قال لهم : إنه الله ، ولا أمرهم بما ابتدعوه من التثليث والاتحاد .

والمسيح لم يأمرهم باستحلال كل ما حرمه الله في التوراة من الخبائث ، كالخنزير وغيره ، فاستحلوا الخبائث المحرمة وغيروا شريعة التوراة والإنجيل . والمسيح لم يأمرهم أن يصلوا إلى المشرق ، ولم يأمرهم أن يعظموا الصليب ، ولم يأمرهم بترك الختان ولا بالرهبانية ولا بسائر ما ابتدعوه بعده .

ولهذا لما ظهر فساد دين النصارى صار بعض الناس كأبي عبد الله الرازي يقول : لم يظهر الانتفاع بدين المسيح ، إلا في طائفة قليلة كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الدين الذي كان عليه جمهور النصارى ، ليس هو دين المسيح .

ويبين هذا بـ الوجه الثالث : ـ وهو أن يقال : هب إن شريعة الكتابين كانت كافية فإنما ذاك إذا كانت محفوظة معمولا بها ، ولم يكن الأمر كذلك ، بل كان قد درس كثير من معالمها .

وقد اختلف أهل الكتاب في المسيح وغيره اختلافا عظيما كما قال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [المائدة : ١٤] وقد قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ أي فاختلفوا ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ، [البقرة : ٢١٣] والوقت الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن قد بقي أحد مظهراً لمابعث الله به الرسل قبله .

فبعثه على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، أحوج ما كان الناس إلى رسول ، كما في صحيح مسلم (١) عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى

(١) سبق تخريجه (ص ١٠٢)

الله عليه وسلم : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » .

وكان الناس حين مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إما أميين ، لا كتاب لهم ، يشركون بالرحمن ، ويعبدون الأوثان ، وإما أهل كتاب قد بدلوا معانيه وأحكامه وحرفوا حلاله وحرامه ، ولبسوا حقه بباطله كما هو الموجود .

فلو أراد الرجل أن يميز له أهل الكتاب ما جاءت به الأنبياء ، مما هم عليه مما أحدثوه بعدهم ، لم يعرف جمهورهم ذلك بل قد صار الجميع ـ عندهم ـ دينًا واحدًا فبعث الله تبارك وتعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بالكتاب الذي أنزله عليه مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ، فميز به الحق من الباطل والهدى من الضلال والغي من الرشاد قال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم * لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير ﴾ إلى قوله : ﴿ ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شئ قدير ﴾ ، [المائدة : ١٥ - ١٩] .

الوجه الرابع : إن شريعة التوراة يغلب عليها الشدة ، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين ، وشريعة القرآن معتدلة جامعة ، بين هذا وهذا ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ، [البقرة : ١٤٣] وقال في وصف أمته : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ، [الفتح : ٢٩] إلخ وقال أيضًا : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على

المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ ، [المائدة : ٥٤] ، فوصفهم بالرحمة للمؤمنين ، والذلة لهم ، والشدة على الكفار والعزة عليهم .

وكذلك كان صفة محمد صلى الله عليه وسلم نبيهم ، أكمل النبيين وأفضل الرسل ، بحيث قال : « أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا نبي الرحمة ، وأنا نبي الملحمة وأنا نبي التوبة ، وأنا الضحوك القتال » (١) فوصف نفسه بأنه نبي الرحمة والتوبة ، وأنه نبي الملحمة ، وأنه الضحوك القتال .

وهذا أكمل من نعت بالشدة والبأس غالبًا ، أو باللين غالبًا .

وقد قيل : إن سبب ذلك أن بني إسرائيل كانت نفوسهم قد ذلت بقهر فرعون لهم واستعباد فرعون وقومه لهم ، فشرعت لهم الشدة لتقوى أنفسهم ، ويزول عنهم ذلك الذل .

ولهذا لما أمروا بالجهاد نكلوا عنه وقال لهم موسى : ﴿ ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا : ياموسى إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ، [المائدة الآيات : ٢١ ـ ٢٤] .

وأما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال له قائلهم (٢) يوم بدر : والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ، قالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » لكن نقاتل أمامك ووراءك وعن يمينك وعن يسارك والذي بعثك بالحق

---

(١) « صحيح » من رواية حذيفة بن اليمان ، رواه الترمذي في «الشمائل» (ص ٢٩٧ ح ٣٦١)

(٢) القائل هو المقداد بن الأسود .

نبيا لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك » (١) .

وكان الكلام قريبًا من « بدر » والبحر من جهة الغرب .

و« برك الغماد » مكان من يماني مكة ، بينه وبين مكة عدة ليال .

والكفار كانوا - إذ ذاك بمكة وأصحابه (٢) من ناحية المدينة شمالي مكة فمكة جنوبهم والبحر غربهم .

يقول : لو طلبت أن ندخل بلد العدو ، ونذهب إلى الناحية لفعلناه .

قالوا : فلما نصر الله بني إسرائيل وأظهرهم ظهرت فيهم الأحداث بعد ذلك وتجبروا وقست قلوبهم وصاروا شبيهًا بآل فرعون .

فبعث الله المسيح عليه السلام باللين والصفح ، والعفو عن المسئ واحتمال أذاه ليلين أخلاقهم ، ويزيل ما كانوا فيه من الجبرية والقسوة .

فأفرط هؤلاء في اللين حتى تركوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وتركوا الحكم بين الناس بالعدل وإقامة الحدود وترهب عبادهم منفردين .

مع أن ملوك النصارى من الجبرية والقسوة والحكم بغير ما أنزل الله ، وسفك الدماء بغير حق ، مما يأمرهم به علماؤهم وعبادهم ، ومما لم يأمروهم به ما شاركوا فيه اليهود .

---

(١)« صحيح » ورد هذا الحديث من رواية طارق بن شهاب
رواه البخاري في كتاب « المغازي » باب قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة ... الآية » (٧ / ٣٣٥ ح ٣٩٥٢) ورواه أيضًا برقم (٤٦٠٩)
ورواه النسائي في كتاب « التفسير » باب قوله تعالى « قالوا ياموسى إنا لن ندخلها .... الآية » (٦ / ٣٣٣ ح ١١١٤٠)

(٢) قوله وأصحابه : أي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالشريعة الكاملة العادلة وجعل أمته عدلا خياراً لا ينحرفون إلى هذا الطرف ولا إلى هذا الطرف ، بل يشتدون على أعداء الله ، ويلينون لأولياء الله ، ويستعملون العفو والصفح فيما كان لنفوسهم ، ويستعملون الانتصار والعقوبة فيما كان حقًا لله .

وهذا كان خلق نبيهم كما في الصحيحين (١) عن عائشة قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادمًا له قط ، ولا امرأة له قط ، ولا دابة ولا شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله ، لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله ، وما عرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا أخذ بأيسرهما إلا أن يكون مأثما ، فإن كان مأثمًا كان أبعد الناس منه » .

وفي الصحيحين (٢) عن أنس أنه قال : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) « صحيح » من رواية عائشة
رواه مسلم في كتاب « الفضائل » باب « مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام ...» (٤ / ١٨١٤ ح ٢٣٢٨) ، ورواه أبو داود في كتاب « الأدب » باب « العفو والتجاوز» (١٣ / ١٤٣ ح ٤٧٦٥) ورواه الترمذي في « الشمائل » (صـ ٢٧٤ ح ٣٣١) ، ورواه النسائي في الكبرى في « عشرة النساء » باب « ضرب الرجل زوجته » (٥ / ٣٧٠ ح ٩١٦٣) ، ورواه ابن ماجة في كتاب « النكاح باب « ضرب النساء » (١ / ٦٣٨ ح ١٩٨٤)

(٢) « متفق عليه » من رواية أنس
رواه البخاري في كتاب « الأدب » باب « حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل » (١٠ / ٤٧١ ح ٦٠٣٨) ، ورواه مسلم في كتاب « الفضائل » باب « طيب رائحة النبي صلى الله عليه وسلم ولين ملمسه والتبرك بمسحه » (٤ / ١٨١٤ ، ١٨١٥ ح ٢٣٣٠) ، ورواه أبو داود في كتاب « الأدب » باب « في الحلم والأخلاق » (١٣ / ١٣٠ ، ١٣١ ح ٤٧٥٣) ، ورواه الترمذي في كتاب « البر والصلة » باب « ما جاء في خلق النبي صلى الله عليه وسلم » (٦ / ١٥٦ ، ١٥٧ ح ٢٠٨٤) وقال : وفي الباب عن عائشة والبراء « هذا حديث حسن صحيح » ورواه أيضًا في « الشمائل » (صـ ٢٧٣ ح ٣٢٨)

عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيئ فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيئ لم أفعله لم لا فعلته ؟ ولا لما صنعت ، لم لا صنعت ، وكان بعض أهله إذا عتبوني على شيئ يقول : دعوه فلو قدر شيئ لكان هذا » مع قوله في الحديث الصحيح (١) لما سرقت امرأة كانت من أشرف قريش من بني مخزوم فأمر بقطع يدها ، فقالوا : من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد ؟ فكلموه فكلمه فيها ، فقال : « ياأسامة أتشفع في حد من حدود الله ؟ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ففي شريعته صلى الله عليه وسلم من اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما في الإنجيل وفيها من الشدة والجهاد وإقامة الحدود على الكفار والمنافقين أعظم مما في التوراة ، وهذا هو غاية الكمال .

ولهذا قال بعضهم : بعث موسى بالجلال وبعث عيسى بالجمال وبعث محمد بالكمال .

الوجه الخامس : ـ إن نعم الله على عباده تتضمن نفعهم والإحسان إليهم وذلك

---

(١) « متفق عليه » من رواية عائشة
رواه البخاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » باب (٥٤) (٦ / ٥٩٣ ح ٣٤٧٥) ، ورواه أيضاً برقم (٤٣٠٤ ، ٦٧٨٨) ، ورواه مسلم في كتاب « الحدود » باب قطع السارق الشريف وغيره ...» (٣ / ١٣١٥ ، ١٣١٦ ح ١٦٨٨) ، ورواه أبو داود في كتاب « الحدود » باب « في الحد يشفع فيه » (١٢ / ٣١ ، ٣٢ ح ٤٣٥١) ، ورواه الترمذي في كتاب « الحدود » باب « ما جاء في كراهية أن يشفع في الحدود » (٤ / ٦٩٨ ، ٦٩٩ ح ١٤٥٢) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ، ورواه النسائي في «السنن » في كتاب « قطع السارق » باب « المرأة المخزومية » (٨ / ٧٢ : ٧٥) ، ورواه النسائي أيضاً في الكبرى كتاب « قطع السارق » باب « المرأة المخزومية التي سرقت » (٤ / ٣٣٢ ح ٧٣٨٢ : ٧٣٨٤) ورواه أيضاً برقم (٧٣٨٥ : ٧٣٩٠)
ورواه ابن ماجه في كتاب « الحدود » باب « الشفاعة في الحدود » (٢ / ٨٥١ ح ٢٥٤٧)

نوعان :

أحدهما : ـ أن يدفع بذلك مضرتهم ويزيل حاجتهم وفاقتهم مثل رزقهم الذي لولا هو لماتوا جوعًا ، ونصرهم الذي لولا هو لأهلكهم عدوهم ومثل هداهم الذي لولا هو لضلوا ضلالا يضرهم في آخرتهم .

وهذا النوع من النعمة لابد لهم منه وإن فقدوه حصل لهم ضرر ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وإما فيهما .

ولهذا كان في سورة النحل ، وهي سورة النعم ، في أولها أصول النعم في أثنائها كمال النعم .

والنوع الثاني : ـ النعم التي يحصل بها من كمال النعم وعلو الدرجة ، مالا يحصل بدونها ، كما أنهم في الآخرة نوعان : أبرار أصحاب يمين ومقربون سابقون ومن خرج عن هذين كان من أصحاب الجحيم .

وإذا كانت النعمة نوعين ، فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من هذين الوجهين وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة فإن الناس بدونه كانوا جهالا ضالين أميهم وأهل الكتاب منهم .

ولم يكن قد بقى من أهل الكتاب أتباع المسيح ومن هو قائم بالدين الذي يوجب السعادة عند الله في الآخرة ، بل كانوا قد بدلوا وغيروا .

وأيضًا فلو قدر أنهم لم يبدلوا شيئًا ، ففي إرساله من كمال النعم وفواضلها وعلو الدرجات في السعادة ، مالم يكن حاصلا بالكتاب الأول فكان إرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض من نوعي النعيم

ومن استقرأ أحوال العالم ، تبين له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرساله صلى الله عليه وسلم ، وإن الذين ردوا رسالته هم ممن قال الله فيهم :

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ ، [إبراهيم : ٢٨] .

ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ ، [الأنعام : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ ، [آل عمران : ١٤٤] .

الوجه السادس : ـ أن يقال قولهم : « إنا نعجب من هؤلاء القوم » إلى آخر الفصل قول جاهل ظالم يستحق أن يقال له : بل العجب من هذا العجب هو الواجب ، بل هو الذي لا ينقضي منه العجب ، وإن كل عاقل ليعجب ممن عرف دين محمد صلى الله عليه وسلم وقصده الحق ، ثم اتبع غيره ويعلم أنه لا يفعل ذلك إلا مفرط في الجهل والضلال ، أو مفرط في الظلم واتباع الهوى .

وذلك أن أهل الأرض نوعان : أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، وغير أهل الكتاب كالمشركين من العرب والهند والترك وغيرهم ، وكالمجوس من الفرس وغيرهم وكالصابئة من المتفلسفة وغيرهم .

وأهل الكتاب يسلمون لنا ، أن من سوى أهل الكتاب انتفع بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم منفعة ظاهرة ، وأنه دعا جميع طوائف المشركين والمجوس والصابئين إلى خير مما كانوا عليه ، بل كانوا أحوج الناس إلى رسالته .

وأما أهل الكتاب فاليهود يسلمون لنا حاجة النصارى إليه ، وأنه دعاهم إلى خير مما كانوا عليه .

والنصارى تسلم لنا حاجة اليهود إليه ، وأنه دعاهم إلى خير مما كانوا عليه فما من طائفة من طوائف أهل الأرض إلا وهم مقرون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم دعا

سائر الطوائف وغيرهم إلى خير مما كانوا عليه

وهذه شهادة من جميع أهل الأرض بأنه دعا أهل الأرض إلى خير مما كانوا عليه .

فإن شهادة جميع الطوائف مقبولة على غيرهم إذا كانوا غير متهمين عليهم ، فإنهم معادون لمحمد وأمته ومعادون لسائر الطوائف .

وأما شهادتهم لأنفسهم فغير مقبولة فإنهم خصومه وشهادة الخصم على خصمه غير مقبولة .

وقد اعترف الفلاسفة بأنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه واعترفوا بأنه أفضل من ناموس موسى والمسيح عليهما الصلاة والسلام ، بل لهم من الطعن في نواميس غيره ، ماليس هذا موضع ذكره .

بخلاف ناموس محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لم يطعن فيه أحد منهم إلا من كان خارجاً عن قانون الفلسفة التي توجب عندهم العدل والكلام بعلم

فأما من التزم منهم الكلام بعلم وعدل ، فهم متفقون على أن ناموس محمد صلى الله عليه وسلم أفضل ناموس طرق العالم ، فكيف يتعجب من مثل هذا الناموس ؟!

الوجه السابع : - أن يقال لأهل الكتاب خصوصاً ، فيقال لليهود : أنتم أذل الأمم ، فلو قدر أن ما أنتم عليه دين الله الذي لم يبدل ، فهو مغلوب مقهور في جميع الأرض ، فهل تعجبون من أن يبعث الله رسولا يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فيبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله حتى يصير دين الله الذي بعث به رسله ، وأنزل به كتبه منصوراً ظاهراً بالحجة والبيان والسيف والسنان ؟؟

ويقال للنصارى : أنتم لم تخلصوا دين الله الذي بعث به رسله من دين المشركين والمعطلين بل أخذتم من أصول المشركين المعطلين من الفلاسفة وغيرهم ، ما أدخلتموه في دينكم وليس لكم على أكثر الكفار لا حجة علمية ، ولا يد قهرية بل للكفار في

قلوبكم من الرعب والخوف والتعظيم ، ما أنتم به من أضعف الأمم حجة ، وأضيقها محجة وأبعدها عن العلم والبيان وأعجزها عن إقامة الحجة والبرهان ، تارة تخافون من الكفار الفلاسفة وغيرهم من المشركين والمعطلين ، فإما أن توافقوهم على أقوالهم وإما أن تخضعوا لهم متواضعين .

وتارة تخافون من سيوف المشركين فإما أن تتركوا بعض دينكم لأجلهم وإما أن تذلوا لهم خاضعين .

ففيكم من ضعف سلطان الحجة ، وضعف سلطان النصرة ما يظهر به حاجتكم إلى قيام الهدى ودين الحق الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فالعجب منكم كيف تعدلون عما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة إلى ما فيه شقاؤكم في الدنيا والآخرة ؟! هذا هو العجب ليس العجب ممن آمن بما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وفي خلافه شقاوة الدنيا والآخرة

ومثل هذا لا يرد على المسلمين ، فإنه لم يزل ولا يزال فيهم طائفة قائمة بالهدى ودين الحق ، ظاهرة بالحجة والبيان ، واليد واللسان ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين كما ثبت في الصحاح (١) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفي لفظ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة حتى يأتي الله بأمره » .

الوجه الثامن : أن يقال لأهل الكتاب ، لليهود : أنتم لما كنتم متبعين موسى عليه

(١) ورد هذا عن جمع من الصحابة منهم المغيرة بن شعبة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وثوبان وجابر بن سمرة ، وجابر بن عبدالله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعقبة بن عامر ، وزيد بن أرقم ، وعمران بن حصين ، وقرة بن بن إياس ، وأبو هريرة وعمر بن الخطاب ، وسلمة ابن نفيل الكندي ، والنواس بن سمعان ، وأبو أمامة الباهلى ، ومُرّة بن كعب البهزي ، وشرجبيل بن السمط الكندي ، ومعاذ بن جبل .... وغيرهم

حديث المغيرة بن شعبة :

رواه البخاري في كتاب « المناقب » باب « بقية علامات النبوة في الإسلام » (٣٧١/٦ح٣٦٤٠) ورواه أيضا برقم (٧٣١١ ، ٧٤٥٩) ، ورواه مسلم في كتاب « الإمارة » باب « قوله صلى الله عليه وسلم (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ......) »

ورواه أحمد (٢٤٤/٤ ، ٢٥٢)

السلام كنتم على الهدى ودين الحق : فكنتم منصورين ثم كثرت فيكم الأحداث التي تعرفونها . كما قال تعالى لكم : ﴿ قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون * قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانًا وأضل عن سواء السبيل ﴾ ، [المائدة : الآيتان : ٥٩ ، ٦٠] .

وقوله : « وعبد الطاغوت » معطوف على قوله « لعنه الله » أي من لعنه الله وغضب عليه وعبد الطاغوت ، ليس داخلا في خبر جعل ، حتى يلزم إشكال كما ظنه بعض الناس .

وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات وقتلوا الأنبياء وقال تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا * عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ ، [الإسراء : الآيات ٤ ـ ٨] وهم معترفون بأن بيت المقدس خرب مرتين .

فالخراب الأول لما جاء « بخت نصر » وسباهم إلى بابل وبقى خرابًا سبعين سنة .

والخراب الثاني : بعد المسيح بنحو سبعين سنة .

وقد قيل : هذا تأويل قوله : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴾ ، [المائدة : ٧٨] .

فبعد الخراب الثاني ، تفرقوا في الأرض ، ولم يبق لهم ملك .

وبين الخرابين ، كانوا تحت قهر للملوك والكفار .

وبعث المسيح عليه الصلاة والسلام وهم كذلك .

ويقال للنصارى : أنتم ما زلتم مقهورين مغلوبين مهددين في الأرض حتى ظهر قسطنطين وأقام دين النصرانية بالسيف ، وقتل من خالفه من المشركين واليهود .

= وانظر تخريج الحديث مستوفى في كتاب « صفة الغرباء » لسلمان العودة (ص١٣٧ وما بعدها)

لكن أظهر دينًا مبدلا مغيرًا ، ليس هو دين المسيح عليه السلام .

ومع هذا فكانت أرض العراق وفارس كفارًا من المجوس وغيرهم مجوسًا مشركين.

وكانوا في بعض الأزمنة يقهرون النصارى على بلادهم .

وأما أرض المشرق والمغرب ففيهما من أنواع المشركين أمم .

وكان الشرك والكفر ظاهرًا في أرض اليمن والحجاز والشام والعراق .

فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم ، أظهر به توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ظهورًا لم يعرف في أمة من الأمم ، ولم يحصل مثله لنبي من الأنبياء ، وأظهر به من تصديق الكتب والرسل والتوراة والإنجيل والزبور ، وموسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الرسل ما لم يكن ظاهرا لا عند أهل الكتاب ولا غيرهم .

فأهل الكتاب ، وإن كانوا خيرا من غيرهم ، فلم يكونوا قائمين بما يجب من الإيمان بالله ورسله ولا باليوم الآخر ، ولا شرائع دينه ، ولا كانوا قاهرين لأكثر الكفار بل ولا كانوا منصورين عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ﴾ ، [التوبة ٢٩]

أما اليهود ففيهم من التنقص بالأنبياء وسبهم وذكر عيوب نزههم الله منها ، ما هو معروف .

حتى إن منهم من يقول : إن سليمان كان ساحرًا ، وداود كان منجمًا لم يكن نبيًا ، إلى أمثال ذلك مما يطول وصفه .

ففيهم من كفر بالأنبياء من جنس ما كان في سلفهم الخبيث .

وأما النصارى ـ فمع غلوهم في المسيح وأتباعه ـ يستخفون بغيره فتارة يجعلون

الحواريين مثل إبراهيم وموسى أو أفضل منهم ، وتارة يقولون كما قال اليهود : إن سليمان لم يكن نبيًا ، بل سقط من النبوة ، وتارة يجعلون ما خاطب الله به داود وغيره من الأنبياء ، إنما أريد به المسيح .

مع أن اللفظ لا يدل على ذلك ، بل يتأولون كتب الله بمجرد هوى أنفسهم وتارة يقولون : إن الواحد منهم إذا أطاع الله بما يزعمون أنه طاعة صار مثل واحد من الأنبياء وأفضل منه ، ووجب طاعته كما تجب طاعة الأنبياء ، ويسوغون لمثل هؤلاء أن يغيروا شرائع الأنبياء ويضعوا دينًا ابتدعوه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم وأمته أقاموا توحيد الله الذي كان عليه إبراهيم وموسى وسائر الرسل ، وآمنوا بكل كتاب أنزله الله ، وكل رسول بعثه الله ، وأقاموا دين الرحمن إقامة لم يقمها أحد من الأمم .

فعامة أهل الأرض مع محمد ، إما مؤمن به باطنًا وظاهرًا ، وهم أولياء الله المتقون وحزبه المفلحون وجنده الغالبون .

وإما مسلمون في الظاهر ، تقية وخوفًا من أمته وهم المنافقون .

وإما مسلمون له بالعهد والذمة والهدنة وهم أهل الذمة والهدنة في جميع الأرض ، وإما خائفون من أمته .

وحيث كان الواحد والطائفة من أمته متمسكا بدينه ، كان نوره ظاهرًا وبرهانه قاهرًا معظمًا منصورًا ، يعرف فضله على كل ما سواه .

وهذا أمر يعرفه الناس في أرض الكفار من المشركين وأهل الكتاب لما خص الله به محمدًا وأمته من الهدى ودين الحق .

وقد أظهروا دين الرب في مشارق الأرض ومغاربها بالقول والعمل .

فهل يقول عاقل ممن عنده علم وعدل : إنه لا فائدة في إرسال محمد وإنه يستغنى

بما عند أهل الكتاب عن رسالته ؟! .

الوجه التاسع : ـ أن يقال : هم معترفون بانتفاع المشركين به غاية الانتفاع ، فإنه أقام توحيد الله ودينه فيهم ، وأنه عظم المسيح ورد على اليهود قولهم فيه وأهانهم ، وحينئذ فهذا من أعظم الفوائد وأجل المقاصد ، وأعظم نعم الله على عباده .

ثم هو ـ مع ذلك ـ قال : إن الله أرسله وأمره بذلك .

فإن كان كاذبًا ، فالكذاب المفتري على الله من شر الكفار ، ومن يكون كذلك لا يحصل منه هذا الخير العظيم الذي ما حصل مثله من أحد من الأنبياء ، فإنه أزال دين المشركين ، ودين المجوس وقمع اليهود .

وكل واحدة من هذه الثلاث لم يقدر عليه أحد قبله من الأنبياء والمرسلين .

وإن كان صادقًا ، فهو قد أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من الأمم ، وأخبر عن الله بكفر كل من لم يؤمن به ، وهذا الوجه مما يخاطب به كل صنف .

فيقال لكل صنف من الأمم : أنتم معترفون بأن من سواكم إذا اتبعوا دين محمد كان خيراً لهم مما هم عليه .

فاليهود معترفة ، بأن النصارى إذا اتبعوه كان خيراً لهم من دين النصارى ، والنصارى معترفون بأن اليهود إذا اتبعوه كان خيراً لهم من دين اليهود.

وأهل الكتاب ، اليهود والنصارى معترفون بأن من سواهم إذا اتبعوه كان خيراً لهم مما هم عليه .

فالمجوس والمشركون من العرب . والسودان والترك وأصناف الخزر والصقالبة ، إذا اتبعوه كان خيراً لهم مما هم عليه .

وسائر أصناف الكفار معترفون بأن اتباعه خير من غيره .

ومن ليس من أهل الكتاب عامتهم معترفون بأن دين المسلمين خير من اليهود

والنصارى .

وحينئذ فيقال : من جاء بهذا الدين الذي يفضله جميع أهل الأرض على غيره ، يمتنع أن يكون من أكفر الناس وأحقهم بغضب الله وعقابه .

وكل من قال : إنه رسول الله ، فإن كان صادقا ، كان من خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه .

وإن كان كاذبا ، كان من شر أهل الأرض وأحقهم بغضب الله وعقابه .

ومن حصل منه هذا الخير والعلم والهدى وما فيه صلاح الدنيا والآخرة أعظم مما حصل من جميع الخلق يمتنع أن يكون من أكفر الناس المستحقين لغضب الله وعقابه ، فوجب أن يكون من خير أهل الأرض ، بل هو خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه .

الوجه العاشر : ـ إن الله سبحانه وتعالى كانت سنته قبل إنزال التوراة إذا كذب نبي من الأنبياء أن ينتقم له من أعدائه بعذاب من عنده ، كما أهلك قوم نوح بالغرق (١) وقوم هود بالريح الصرصر(٢) ، وقوم صالح بالصيحة(٣) ، وقوم شعيب بالظلة(٤) ، وقوم لوط بالحاصب (٥)، وقوم فرعون بالغرق (٦) ، قال تعالى : ﴿ ولقد

---

(١) كما في قوله تعالى ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ سورة الفرقان / آية (٣٧)

(٢) كما في قوله تعالى ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرا في يوم نحس مستمر ﴾ سورة القمر / آية (١٨ ، ١٩)

(٣) كما في قوله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ سورة هود / آية (٦٦ ، ٦٧)

(٤) كما في قوله تعالى عن قوم شعيب ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ سورة الشعراء / آية (١٨٩)

(٥) كما في قوله تعالى عن قوم لوط ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبًا إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ سورة القمر / آية (٣٤)

(٦) كما في قوله تعالى ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ سورة البقرة / آية (٥٠)

آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ ، [القصص : ٤٢] فلما أنزل التوراة ، أمر أهل الكتاب بالجهاد فمنهم من نكل ومنهم من أطاع .

وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى الله شهيداً ﴾ ، [الفتح : ٢٨] .

فقول هؤلاء : إن التوراة جاءت بالعدل ، والإنجيل بالفضل ، فلا حاجة إلى غيرهما لوقدر أنه حق ، إنما يستقيم إذا كان الكتابان لم يبدلا بل كانا متبعين علماً وعملا ، وكان أهلهما مع ذلك منصورين مؤيدين على من خالفهم ، فكيف وكل منهما قد بدل كثير مما فيه ، وأهلهما غير منصورين على الكفار ؟! بل الكفار ظاهرون عليهم في أكثر الأرض ، كأرض اليمن والحجاز ، وسائر جزيرة العرب وأرض العراق وخراسان والمغرب ، وأرض الهند والسند والترك .

وكان بأيدي أهل الكتاب الشام ومصر وغير ذلك ، ومع هذا ، فكانت الفرس قد غلبتهم على ذلك .

ثم إن الله أظهر النصارى عليهم ، فكان ظهورهم توطئة وتمهيداً لإظهار دين الإسلام .

فإن الفرس المجوس ، لما غلبوا الروم ساء ذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به ، وفرح بذلك مشركوالعرب ، وكانوا أكثر من المؤمنين لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، والمجوس أقرب إلى المشركين منهم إلى أهل الكتاب ، ووعد الله المؤمنين أن تغلب الروم بعد ذلك وأنه يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

فأضاف النصرة إلى اسم الله الذي هو الفاعل ، ولم يقل بنصر الله إياهم ، وذلك أنه حين ظهرت الروم على الفرس ، كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد ظهروا على المشركين واليهود .

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك يدعو ملوك النصارى بالشام ومصر إلى الإيمان به فعرفوه وعرفوا أنه النبي المبشر به ، وكان ذلك أول ظهور دينه .

ثم أرسل طائفة من أصحابه إلى « مؤتة » ثم خرج بالمسلمين معه عام تبوك إلى الشام ، ثم فتح هذه البلاد أصحابه فكان تأيد دين الله وظهوره وإذلال المشركين والمجوس وغيرهم من الكفار ، على يديه ويدي أمته ، لا على يد اليهود والنصارى .

فلو قدر أن شرع أولئك كامل لا تبديل فيه ، لكان مغلوبا مقهورا ، وكان الله قد أرسل من يؤيد دينه ويظهره ، فكيف وهو مبدل ؟!

ولو لم يبدل فدين أحمد أكمل وأفضل منه ، فذاك مفضول مبدل وهذا فاضل لم يبدل ، وذلك مغلوب مقهور ، وهذا مؤيد منصور ، وبعض هذا تحصل الفائدة في إرساله ؟!

فكان من أجل الفوائد إرسال محمد صلى الله عليه وسلم فكيف يقال : إنه لا فائدة في إرساله ؟!

الوجه الحادي عشر : ـ قولهم : « لما كان الباري عدلا جوادًا أوجب أن يظهر عدله وجوده » .

فيقال لهم : جود الجواد غير إلزام الناس بترك حقوقهم ، فإن الجواد هو الذي يحسن إلى الناس ، ليس هو الذي يلزم الناس بترك حقوقهم .

وهؤلاء يزعمون أن شريعة الإنجيل ألزمت الناس بترك حقوقهم ، وأنه لا ينصف مظلوم من ظالمه ، ولهذا ليس عندكم حكم عدل يحكمون به بين الناس ، بل الحكم عندهم حكمان : حكم الكنيسة ، وليس فيه إنصاف المظلوم من الظالم .

والثاني حكم الملوك . وليس هو شرعا منزلا ، بل هو بحسب آراء الملوك ولهذا نجدهم يردون الناس إلى حكم شرع الإسلام في الدماء والأموال ونحو ذلك ، حتى في بعض بلادهم يكون الملك والعسكر وأكثر أهل البلد نصارى ، وفيهم طائفة قليلة مسلمون لهم حاكم ، فيردون الناس في الدماء والأموال إلى حكم شرع المسلمين .

وذلك أن الدماء والأموال وإن كان يستحب للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه ، فالحاكم الذي يحكم بين الناس متى حكم على المظلوم بترك حقه كان حاكما بالظلم لا بالعدل .

ولو أمرنا كل ولي مقتول أن لا يقتص من القاتل ، وكل صاحب دين أن لا يطالب

غريمه بل يدعه على اختياره ، وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه لم يكن للظالمين زاجر يزجرهم وظلم الأقوياء الضعفاء وفسدت الأرض ، قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

فلابد من شرع يتضمن الحكم بالعدل ، ولابد - مع ذلك - من ندب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل .

وهذه شريعة الإسلام كما تقدم ما ذكرناه من الآيات ، مثل قوله : ﴿ والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ ، [المائدة : ٤٥] وقوله : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم ﴾ ، [البقرة : ٢٨٠] وقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ ، [الشورى : ٤٠] وقوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ ، [النحل : ١٢٦] وقوله : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ ، [آل عمران : ١٣٤] وقوله : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾ ، [الشورى الآيتان : ٤١ ، ٤٢] ، وقوله : ﴿ ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ﴾ ، [النساء : ٩٢] وقوله : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ ، [الشورى : ٤٣]

وقال أنس (١) : ما رفع للنبي صلى الله عليه وسلم أمر شئ فيه قصاص ، إلا أمر فيه بالعفو ، فكان يأمر بالعفو ولا يلزم الناس به .

ولهذا لما عتقت بريرة جارية عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وكان لها أن

---

(١) رواه أبو داود في كتاب « الديات » باب « الإمام يأمر بالعفو في الدم » (١٢ / ٢٠٩ ح ٤٤٧٤) ورواه النسائي في كتاب « القسامة » باب « الأمر بالعفو عن القصاص » (٨ / ٣٧ ، ٣٨)

ورواه ابن ماجه في كتاب « الديات » باب « العفو في القصاص » (٢ / ٨٩٨ ح ٢١٨٠) وانظر « صحيح ابن ماجه » للألباني (٢/١٠٨ح٢١٨٠)

تفسخ النكاح وطلب زوجها أن لا تفارقه ، فشفع إليها أن لا تفارقه ، فقالت : أتأمرني ؟ قال : لا ، إنما أنا شافع (١) ، فلم يوجب عليها قبول شفاعته صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثاني عشر : ـ قولهم : « ولما كان الكمال الذي هو الفضل ، لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال » .

فيقال لهم : العدل والفضل ، لا يشرعه إلا الله ، فشريعة التوراة لم يشرعها إلا الله وشريعة الإنجيل لم يشرعها إلا الله عز وجل .

يبين ذلك أن الله كلم موسى من الشجرة تكليما ، وهم غاية ما قرروا به إلهية المسيح أن زعموا أن الله كلم الناس من ناسوت المسيح ، كما كلم موسى من الشجرة .

ومعلوم عند كل عاقل ، لو كان هذا حقًا أن تكليمه لموسى من الشجرة أعظم تكليم كلمه الله لعباده ، فكيف يقال : إن شريعة العدل لم يشرعها الله عز وجل .

ثم يقال لهم : بل شريعة العدل أحق بأن تضاف إلى الله ، من شريعة الفضل فإن الأمر بالإحسان والعفو يحسنه كل واحد .

وأما شريعة العدل والحكم بين الناس به ، فلا يقدر عليه إلا آحاد الناس ولهذا يوجد من الذين يصلحون بين الناس بالإحسان خلق كثير .

---

(١) حديث صحيح من رواية ابن عباس :

رواه البخاري في كتاب « الطلاق » باب « شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة » (٩ / ٣١٩ ح٥٢٨٣) ، ورواه أبو داود في كتاب « الطلاق » باب « في المملوكة تعتق وهي تحت حر أو عبد » (٦ / ٣١٣ ، ٣١٤ ح ٢٢١٤)

ورواه النسائي في كتاب « القضاة » باب « شفاعة الحاكم للخصوم قبل فصل الحكم » (٨ / ٢٤٥ ، ٢٤٦)

ورواه ابن ماجه في كتاب « الطلاق » باب « خيار الأمة إذا أعتقت » (١ / ٦٧١ ح ٢٠٧٥)

وأما الذي يحسن أن يفصل بينهم بالعدل فناس قليل .

فكيف يقال : إن الذي يأمر بشرع الفضل هو الله ، دون الذي يأمر بشرع العدل؟!

والله تعالى أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوي عزيز ﴾ ، [الحديد : ٢٥] .

وأمر المسيح عليه السلام للمظلوم بالعفو عن الظالم ، ليس فيه ما يدل على أنه من الواجب الذي من تركه استحق الذم والعقاب ، بل هو من المرغب فيه ، الذي من فعله استحق المدح والثواب .

وموسى عليه السلام أوجب العدل الذي من تركه استحق الذم والعقاب ، وحينئذ فلا منافاة بين إيجاب العدل ، وبين استحباب الفضل .

لكن إيجاب العدل يقترن به الترهيب والتخويف في تركه ، واستحباب الفضل يقترن به الترغيب والتشويق إلى فعله .

فذاك فيه رهبة مع ما فيه من الرغبة .

وهذا فيه رغبة بلا رهبة ، ولهذا قال المسيح عليه السلام : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، [المائدة الآيتان : ١١٧ ، ١١٨] ولهذا قيل : إن المسيح عليه السلام بعث لتكميل التوراة ، فإن النوافل تكون بعد الفرائض كما في صحيح البخاري (١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن

---

(١) رواه البخاري في كتاب « الرقاق » باب « التواضع » (١١ / ٣٤٨ ، ٣٤٩ ح ٦٥٠٢)
ورواه البغوي في « شرح السنة » في كتاب « الدعوات باب التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالنوافل =

النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى : « من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ، ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولابد له منه » .

وإلا فلو قيل : إن المسيح عليه السلام أوجب على المظلوم العفو عن الظالم بمعنى أنه مستحق للوعيد ، وللذم وللعقاب إن لم يعف عنه ، لزم من هذا أن يكون كل من انتصف من الظالم ظالمًا مستحقًا للذم والعقاب ، وهذا ظلم ثان للمظلوم الذي

= والذكر » (٥ / ١٩ ح ١٢٤٨) وقال « هذا حديث صحيح »

ورواه ابن حبان في « الاحسان » (٢٨٠١ ح ٣٤٨)

وقال « لا يُعرف لهذا الحديث إلا طريقان اثنان : هشام الكناني عن أنس ، وعبد الواحد بن ميمون عن عروة عن عائشة وكلا الطريقين لا يصح ، وإنما الصحيح ما ذكرناه » اهـ .

ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١ / ٤ ، ٥)والبيهقي في الزهد الكبير « ص ٢٩٠ ح ٦٩٠ »

وأيضًا في « الأسماء والصفات » باب ما جاء في التردد (ص ٤٩٠ ، ٤٩١ »

وهذا الحديث إسناده فيه « خالد بن مخلد القطواني » قال عنه ابن حجر في التقريب (١ / ٢١٨) « أبو الهيثم البجلي ، مولاهم الكوفي ، صدوق يتشيع وله أفراد »

، وشيخ شيخ خالد وهو « شريك بن عبد الله بن أبي نمر » قال عنه ابن حجر في « التقريب » (١ / ٣٥١) : « أبوعبد الله المدني ، صدوق يخطئ »

وقال الذهبي في الميزان (١ / ٦٤١ ، ٦٤٢) بعد أن ساق هذا الحديث في ترجمة خالد : « فهذا حديث غريب ، لولا هيبة الجامع الصحيح لعدوه في منكرات خالد بن مخلد وذلك لغرابة لفظه ، ولأنه مما ينفرد به شريك وليس بالحافظ ولم يُرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد ولا خرّجه من عدا البخاري ... »

وتعقبه الحافظ في « الفتح » (١١ / ٣٤٩) وقال « .... وإطلاق أنه لم يُرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود ...... ولكن للحديث طرق أخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً ... » اهـ مختصرًا

انتصف ، فإن الظالم ظلمه أولا فلما انتصف منه ظلم ظلمًا ثانيًا ، فهو ظلم لعادل انتصف من ظالمه .

وما أحسن كلام الله حيث يقول : ﴿ فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ ، [الشورى الآيات : ٣٦ - ٤٣] وقال : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ﴾ ، [الحج : ٦٠] .

فهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله ، حيث يشرع العدل فقال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ ثم ندب إلى الفضل فقال : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ .

ولما ندب إلى العفو ، ذكر أنه لا لوم على المنتصف لئلا يظن أن العفو فرض فقال : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فاوّلئك ما عليهم من سبيل ﴾ .

ثم بين أن السبيل إنما يكون على الظالمين فقال : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾ .

ثم لما رفع عنهم السبيل ، ندبهم مع ذلك إلى الصبر والعفو ، فقال : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ .

فهذا أحسن شرع وأجمله ، يرغب في الصبر والعفو والإصلاح بغاية الترغيب ، ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة ، ويرفع عن المنتصف ممن ظلمه

الملام والعدل ، ويبين أنه لا حرج عليه ولا سبيل إذا انتصر بعد ما ظلم .

فهل يمكن أن تأتي شريعة تجعل على المنتصف سبيلا مع عدله ، وهي لا تجعل على الظالم سبيلا مع ظلمه ؟!

فعلم أن ما أمر به المسيح من العفو ، لم يكن لأن تاركه مستحق للذم والعقاب ، بل لأنه محروم مما يحصل للعافي المحسن من الأجر والثواب ، وهذا حتى لا يناقض شرع التوراة .

فعلم أن شرع الإنجيل لم يناقض شرع التوراة ، إذ كان فرعا عليها، ومكملا لها .

وحينئذ فزعمهم أن شرع الإنجيل شرعه الله ، دون شرع التوراة ، كلام من هو من أجهل الناس وأضلهم ، ولهذا كان هذا فرعا على قولهم بالاتحاد وأن المسيح هو الله .

فذاك الضلال أوجب هذا القول المحال .

فصل

وجميع ما احتجوا به من التوراة والإنجيل وغيرهما من كلام الأنبياء عليهم السلام إنما تكون الحجة فيه علمية برهانية ، إذا أقاموا الدليل على نبوة من احتجوا بكلامه ، بأن بينوا إمكان النبوة ، ثم تبينوا وقوعها في الشخص المعين بالطرق التي يستدل بها على نبوة النبي .

وهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك ، بل احتجوا بذلك على أنها مقدمة مسلمة يسلمها المسلمون لهم ، وهذا لا ينفعهم لوجوه :

أحدها : - أن فيمن ذكروه ، لم يثبت عند المسلمين أنه نبي ، كميخا ، وعاموص .

الثاني : - أن من ثبت عند المسلمين نبوته ، كموسى ، وعيسى ، وداود ، وسليمان ، لم يثبت عندهم أنهم قالوا جميع ما ذكروه من الكلام ، وأن ترجمته

بالعربية هو ما ذكروه وأن مرادهم به ما فسروه .

الثالث : ـ أن جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد إلا بإخبار محمد صلى الله عليه وسلم بنبوتهم ، فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء إلا بعد التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا طلب هؤلاء من المسلمين أن يسلموا نبوة هؤلاء ، دون نبوة محمد ، لم يمكن المسلمون أن يسلموا ذلك لهم ، ولا يسوغ ذلك للمسلمين ، لا عقلا ولا نقلا .

وحينئذ فإذا لم يقيموا الأدلة على نبوة أولئك ، لم يكونوا قد ذكروا ، لا حجة برهانية ولا حجة جدلية .

الرابع : ـ أن المسلمين لم يصدقوا بنبوة موسى وعيسى إلا مع إخبارهما بنبوة محمد .

فإن سلموا أنهما أخبرا بنبوة محمد ، ثبتت نبوته ونبوتهما .

وإن جحدوا ذلك ، جحد المسلمون نبوة من يدعون أنه موسى وعيسى الذين لم يخبرا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الخامس : ـ أن المسلمين وكل عاقل ، يمتنع ـ بعد النظر التام ـ أن يقر بنبوة موسى وعيسى دون محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كات نبوته أكمل وطرق معرفتها أتم وأكثر .

وما من دليل يستدل به على نبوة غيره إلا وهو على نبوته أدل ، فإن جحد نبوته يستلزم جحد نبوة غيره بطريق الأولى .

ولكن من قال ذلك ، هو متناقض كما تناقض سائر أهل الباطل .

ولهذا قال تعالى في الكفار : ﴿ إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك ﴾ ، [الذاريات : الآيتان : ٨ ، ٩] .

فصـــل

قد ذكرنا في جواب أول كتابهم ، بيان امتناع احتجاجهم بشئ من كلام محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء عليهم السلام ، على ما يخالف دين المسلمين من دينهم .

ونحن نبسط هذا هنا فنقول : لا ريب أن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح ، لا عقلي ولا شرعي ، سواء كان من الخبريات أو الطلبيات ، فإن الدليل الصحيح يستلزم صحة المدلول عليه .

فلو قام على الباطل دليل صحيح ، لزم أن يكون حقًا مع كونه باطلا ، وذلك جمع بين النقيضين ، مثل كون الشئ موجوداً معدوماً .

وأهل الكتاب معهم حق في الخبريات والطلبيات ، ومعهم باطل وهو ما بدلوه في الخبريات ، سواء كان المبدل هو اللفظ أو معناه ، وما ابتدعوه ، أو ما نسخ من العمليات .

والمنسوخ الذي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل .

فإن الذي اتفقت عليه ، هو الذي لابد للخلق منه في كل زمان ومكان ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [المائدة : ٦٩]

وعامة السور المكية ، كالأنعام والأعراف و حم ، و طس ، و آلر ، هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين ، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل والإخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش ، والشرك والقول على الله بلا علم ، وعامة ما عندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والإنجيل

والزبور ، ونبوات الأنبياء توافق المنقول عن محمد صلى الله عليه وسلم ، يشهد هذا لهذا ، وهذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن دلائل نبوة أولئك الأنبياء .

ولهذا يذكر الله ذلك بيانًا لإنعامه على محمد ودلالة لنبوته ، كقوله تعالى لما ذكر قصة مريم : ـ ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ ، [آل عمران : الآيات : ٤٣ ـ ٤٤] وقال تعالى ـ لما قص قصة نوح ـ ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ ، [هود : ٤٩] فذكر آلاءه ونعمته وآيته ، بكونه لم يكن يعلمها هو ولا قومه أيضًا كانوا يعلمونها ، لئلا يظن أنه تعلم ذلك من قومه ، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك .

وقد علم بالنقل المتواتر أن محمداً صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ، وبها نشأ بعد أن كان مسترضعًا في بادية سعد بن بكر ، قريبًا من الطائف ، شرقي مكة ، وهو صغير ثم حملته مرضعته حليمة السعدية إلى أمه بمكة ، ولا يعلم شيئًا من ذلك ، ولا هناك من يتعلم منه شيئ من ذلك .

وأهل مكة يعلمون حاله ، وأنه لم يتعلم ذلك من أحد ثم أخبرهم بالغيب الذي لا يعلمه أحد إلا بتعليم الله له .

فكان من أعلام رسالته ، ودلائل نبوته عليهم ، أولا ، وعلى غيرهم آخرًا ، فإنهم كانوا مشاهدين له ، يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من أحد .

وغيرهم يعلم ذلك بالأخبار المتواترة ، ويعلم أن قومه المكذبين له ـ مع حرصهم على الطعن فيه ، مع علمهم بحاله ـ لو كان قد تعلم من أهل الكتاب ، لقالوا : هذا قد

تعلمه منهم ، قال تعالى : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ ، [يونس : ١٦] .

والمقصود أنه نفى علم قومه بما أخبره فيه بيانًا لآلاء الله التي هي آياته ونعمه ، فإن ذلك يدل على أنه لم يتعلم ذلك من قومه ، وفيه إنعام الله على الخلق بذلك .

وقال تعالى ـ لما ذكر قصة يوسف ـ : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ ، [يوسف : ١٠٢] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون * وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قرونًا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويًا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك ﴾ ، [القصص : الآيات ٤٣ ـ ٤٦] .

فنفى سبحانه شهوده لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها ، تنبيهًا للناس على أنه أخبر بالغيب الذي لم يشهده ولم يعرفه ، من جهة أخبار الناس ، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك ، ولا عاشر غير قومه .

وكل من عرف حاله ، يعلم أنه لم يتعلم شيئًا من ذلك ، لا من أهل الكتاب ولا ممن نقل عن أهل الكتاب .

فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله ، في باب أسماء الله وصفاته وتوحيده ، وملائكته وأوليائه وأعدائه ، مع العلم بأن في هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ، ما يمتنع اتفاق اثنين عليه ، إلا عن مواطأة بينهما .

ومحمد وموسى صلوات الله عليهما وسلامه ، لم يتواطئا ، بل لم يواطئ محمد صلى الله عليه وسلم أحدًا من الرسل قبله ، ولا واطئوه .

والخبر الكذب إما أن يتعمد صاحبه الكذب فيه ، وإما أن يغلط .

فالكاذبان المتعمدان للكذب ، لا يتفقان في القصص الطويلة والتفاصيل العظيمة .

وكذلك الغالطان لا يتفق غلطهما في مثل ذلك .

بل الاثنان من آحاد الناس ، إذا أخبر كل منهما عن حال بلدة رآها وأخبر الآخر بمثل خبره من غير مواطأة ، عرف صدقهما فكيف بالأمور الغائبة التي لم يمكن العلم بها إلا من جهة الله تعالى ؟ فهذا من دلائل نبوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

وأما القدر الذي يخالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مما ينقلونه عن الأنبياء فهو نوعان :

أحدهما : ما وقع فيه النسخ من الشرائع ، وهذا لا يمنعه لكن المنسوخ مثل هذا بالنسبة إلى ما لم ينسخ من الكتاب ، نظير المنسوخ من القرآن والأحاديث النبوية ، فإنه قليل جداً بالنسبة إلى ما لم ينسخ ، وكذلك عامة ما أمر به موسى وداود والمسيح وغيرهم من الأنبياء ، إذا اعتبر ما أمر به محمد صلى الله عليه وسلم ، وجد عامة ذلك متفقاً لم ينسخ منه إلا القليل .

والثاني : الخبريات ، وهذه قد ادعى بعض أهل الكتاب أن محمداً خالف بعض ما أخبرت به الأنبياء قبله ، وهذا باطل فإن أخبار الأنبياء لا يجوز أن تتناقض ، إذ هم ـ كلهم ـ صادقون مصدقون .

فإن علم أن محمداً رسول الله وأن موسى رسول الله ، وأن المسيح رسول الله علم أن أخبارهم لا تتناقض .

لكن قد يخبر هذا بما لم يخبر هذا ، فيكون في أخبار أحدهم زيادات على أخبار غيره ، لا ما يناقض خبر غيره .

وما يذكره أهل الكتاب مما يناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم فهو ـ عامته ـ مما حرفوا معناه وتأويله ، وقليل منه حرف لفظه .

وأهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها ، إما عمداً ، وإما خطأ في ترجمتها وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها .

وإنما تنازع الناس : هل وقع التحريف في بعض ألفاظها ؟ فكل ما يدعى مدع أن محمداً صلى الله عليه وسلم ناقضه فلابد له من أن يثبت مقدمتين ، إحداهما ثبوت ذلك اللفظ عن ذلك النبي ، والثاني ثبوت معناه .

وكل من احتج بنقل عن نبي ، فلابد له من هاتين المقدمتين ، الإسناد والمتن ، فلابد من ثبوت اللفظ ، ولابد له من ثبوت معنى اللفظ .

وإذا كان النقل ليس بلغة النبي ، بل بلغة أخرى فلابد من الترجمة الصحيحة ، وعامة النصارى ليس عندهم كتب الأنبياء بلغة الأنبياء .

فإن موسى والمسيح ومن بينهما من أنبياء بني إسرائيل ، إنما كانوا يتكلمون باللغة العبرانية .

والمسيح كان عبرانيًا ، لم يتكلم بغير العبرانية ، وإنما تكلم بغيرها ، كالسريانية واليونانية والرومية بعض من اتبعه .

وجمهور النصارى لا يعرفون بالعبرانية ، فلا يحسنون أن يقرءوا بالعبرانية لا توراة ولا إنجيلا ، ولا غير ذلك ، وإنما يتكلمون بذلك باللغة الرومية ، أو السريانية أو غيرهما ، وإن كان فيهم قليل ممن يتكلم بالعبرانية .

بخلاف اليهود فإن العبرانية فاشية فيهم .

وحينئذ فمن احتج من أهل الكتاب بشئ من كلام الأنبياء المنقولة بالرومية والسريانية أو العبرانية ، فإنه يحتاج مع إثبات النقل إثبات الترجمة وصحتها . فإنهم كثيراً ما يضطربون في الترجمة ويختلفون في معناها .

فهذه مقدمات ثلاث ، لابد لهم منها في كل ما يحتاجون من كلام الأنبياء ولو لم يدعوا أنه معارض لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم فكيف إذا ادعوا مناقضته لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟!

فإن قدر أنه ثبت أن نبيًا أخبر بشئ ، امتنع قطعًا أن يخبر محمد بنقيضه . فإن فيما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم أيضًا ما ليس بثابت لفظه مثل بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، وفيما ثبت لفظه ماليس معناه صريحًا في المناقضة ، بل لا يدل على ذلك .

فكم ممن يفسر القرآن بما لا يدل عليه لفظ القرآن ، بل ولا قاله أحد من الصحابة ولا التابعين .

كمن يقول : إن شعيبًا النبي كان هو حما موسى ، وليس في القرآن والسنة وكلام الصحابة إلا ما يدل على نقيض ذلك .

وكمن يقول : إن الرسل الذين أرسلوا إلى القرية كانوا من أتباع المسيح وليس في القرآن والمنقول عن الصحابة إلا ما يدل على نقيض ذلك .

وأما ما علم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر به ، فقد قامت الأدلة القاطعة اليقينية على صدقه وصدق ما أخبر به ، أعظم مما قامت على صدق غيره وصدق ما جاء به ، فمهما عارض ذلك علم أنه كذب على الأنبياء .

ولا يمكن أحدًا من الخلق أن يذكر دليلا قطعيًا على صحة ذلك النقل ، بل غايتهم أن يذكروا طريقًا ظنيًا لا يفيدهم إلا الظن ، والظن لا يعارض اليقين .

فما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يمكن صاحب النظر والاستدلال أن يعلمه علمًا يقينًا ، لا يرتاب فيه .

وما يناقضه لا سبيل لأحد إلى العلم به ، ولا يتصور أن يقوم بقلبه منه إلا الظن

والتقليد ، وكلاهما لا يناقضان العلم فهذا أصل جامع ، ثم العارف يعبر عنه مع كل إنسان بحسب ما يوصل معناه إلى ذلك المخاطب .

والمقصود هنا أن يقال : كل ما يحتجون به على مخالفات ما ثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يقوم لهم عليه دليل ، لا شرعي ولا عقلي وهذا نعلمه مجملا .

ونحن نبين ذلك مفصلا فنقول : ما يحتجون به إما أن يكون حجة عقلية ، وإما أن يكون سمعية .

أما العقليات ، فمعلوم أن الحجج العقلية الدالة على فساد ما تقوله النصارى ، أظهر مما يحتجون به على صحة دينهم .

ومن احتج منهم ، أو من اليهود بحجة عقلية على مخالفة شئ من دينه فلها أجوبة .

أحدها : ـ أن يبين أن ذلك يلزم غيره من الأنبياء ، فإنهم جاءوا بذلك أو بأعظم منه .

فلا يقدح أحد بحجة عقلية في محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا كان ذلك قد جاء بطريق الأولى في غيره من الأنبياء ، كما بينا في الرد على الرافضة ، أنه لا يقدح أحد في الخلفاء الثلاثة ، أبي بكر وعمر وعثمان إلا أمكن أن يقدح بمثل ذلك وبأعظم منه ، في علي ، فيمتنع أن يكون علي سليما من القوادح في إمامته إلا والثلاثة أسلم منه مما يقدح في إمامتهم .

ويمتنع أن يكون موسى وعيسى وداود برآء مما يقدح في نبوتهم إلا ومحمد أبرأ مما يقدح في نبوته .

وهذا كما إذا احتج محتج بما في القرآن من آيات الصفات ، فيقال له : في التوراة

وغيرها من كتب الأنبياء مثل ذلك وأعظم .

وإذا احتج بإنزال المتشابهات ، فيقال له : في الكتب المتقدمة من المتشابهات أعظم مما في القرآن .

وهل ضلت النصارى إلا باتباع المتشابهات من كلام الأنبياء وترك المحكم

والثاني : ـ أن يبين أن مثل تلك الحجة لا تصلح أن يعارض بها ما جاءت به الأنبياء كما إذا أخذ بعض الناس يطعن في شئ من الشرائع بالرأي ، بين له أن ما ثبت عن الأنبياء لا يعارض برأى ولا قياس .

الثالث : ـ أن يبين فساد تلك الحجة العقلية .

إن كانت من باب الخبريات بين فسادها كما قد بسطنا القول في ذلك في كتاب « رد تعارض العقل والشرع » وذكرنا أن جميع ما يحتج به على خلاف نصوص الأنبياء من العقليات ، فإنه باطل فذكرنا ما يعتمد عليه النفاة في هذا الباب .

وإن كان من باب الطلبيات ، فهي من باب الأمر والنهي .

فمن كان مذهبه أنه لا يطل أحكام الله ، ولا يقول بأن حسن الأفعال وقبحها يعلم بالعقل ، ولا ينزه الله عن فعل ، ولا عن حكم ، بل يجوز عليه كل شئ ، وإنما ينفي ذلك بالخبر السمعي أو العادة ، فهذا يجيب بهذا الجواب لكن عامة القلوب والعقول لا تقبل هذا .

وأما على قول الجمهور ، فيبين ما في مأموراته من الحكم والمصالح ، وما في منهياته من المفاسد والضرر ، ويبين رجحان ما جاء فيه على ما يعارض به ، بل ويبين رجحان شرائع الأنبياء على سياسات سائر الأمم ، ويبين رجحان شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الشرائع ، وهذا مبسوط في مواضع .

وأما إذا احتج أهل الكتاب في مناقضة محمد صلى الله عليه وسلم بحجة سمعية

سواء كانت من كلامه ، أو كلام غيره من الأنبياء عليهم السلام ، كان الجواب من وجوه .

أحدها : ـ أن يقال لهم : لا يمكنكم أن تصدقوا بنبوة نبي من الأنبياء مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم فإنكم لا يمكنكم أن تحتجوا بكلام أحد من الأنبياء حتى تثبت نبوته .

والطريق التي بها تثبت نبوة الأنبياء تثبت نبوة محمد بمثلها وبأعظم منها بل نحن نبين أن التصديق بنبوته أولى من التصديق بنبوة غيره لأن كل ما يستدل به على نبوة نبي فمحمد صلى الله عليه وسلم أحق بجنس ذلك الدليل من غيره ، وما يعارض به نبوة نبي ، فالجواب عن محمد صلى الله عليه وسلم أولى من الجواب عن غيره .

فهو مقدم فيما يدل على النبوة وفيما يجاب به عن المعارضة ، وهو أكمل في ذلك فيمتنع عن العلم والعدل أن يصدق بنبوة غيره مع التكذيب بنبوته ، كما يمتنع مع العلم والعدل في كل اثنين ، أحدهما أكمل من الآخر في فن ، أن يقر بمعرفة ذلك الفن للمفضول دون الفاضل

وقولنا مع العلم والعدل ، لأن العالم يفضل المفضول مع علمه بأنه مفضول والجاهل قد يعرف المفضول ولا يعرف الفاضل .

فإن كثيراً من الناس يعلمون فضيلة متبوعهم إما في العلم أو العبادة ، ولا يعرفون أخبار غيره حتى يوجد أقوام يعظمون بعض الأتباع دون متبوعه الذي هو أفضل منه عند التابع وغيره لا يعرفونه ، فهؤلاء ليس عندهم علم ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء يرجح المفضول ، لعدم العلم بأخبار الفاضل .

وهذا موجود في جميع الأصناف ، حتى في المدائن يفضل الإنسان مدينة يعرفها على مدينة هي أكمل منها ، لكونه لا يعرفها .

والحكم بين الشيئين بالتماثل أو التفاضل ، يستدعي معرفة كل منهما ، ومعرفة ما اتصف به من الصفات التي تستدعي التماثل والتفاضل .

كمن يريد أن يعرف أن البخاري أعلم من مسلم ، وكتابه أصح ، أو أن سيبويه أعلم من الأخفش ونحو ذلك .

وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما قال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ [الإسراء : ٥٥] وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

والكلام في شيئين ، أحدهما : في كون المفضول يستحق تلك المنزلة دون الفاضل وهذا غاية الجهل والظلم .

كقول الرافضة الذين يقولون : إن عليا كان إمامًا عالمًا عادلا والثلاثة لم يكونوا كذلك .

وكذلك اليهود والنصارى الذين يقولون : إن موسى كان رسولا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن كذلك فإن هذا في غاية الجهل والظلم .

بخلاف من اعترف باستحقاق الاثنين للمنزلة ، ولكن فضل المفضول ، فهذا أقل جهلا وظلمًا .

ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون ، تارة في الكتب المنزلة عليهم ، وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم ، وتارة في الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل ، وتارة في أممهم .

فمن عنده علم وعدل ، فينظر في القرآن وفي غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل أو في معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعجزات غيره أو في شريعته ، وشريعة غيره ، أو في أمته وأمة غيره ، وجد من التفضيل على غيره ما لا يخفى إلا على

مفرط في الجهل أو الظلم .

فكيف يمكن مع هذا أن يقال هو كاذب مفتر ، وغيره هو النبي الصادق ؟!

نعم كثير من أهل الكتاب لم يعرفوا من أخباره ما يبين لهم ذلك ، كما أن كثيراً من الرافضة لم يعرفوا من أخبار الثلاثة ما يبين لهم فضيلتهم على علي رضي الله عنه .

فهؤلاء في الجهل ، وطلب العلم عليهم فرض ، خصوصاً أمر النبوة .

فإن النظر في أمر من قال : « إني رسول الله إليكم » مقدم على كل شئ إذ كان التصديق بهذا مستلزمًا لغاية السعادة والتكذيب به مقتضياً لغاية الشقاوة .

فبالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء ، وبين الحق والباطل ، الهدى والضلال ، والفرق بين أولياء الله وأعدائه .

وكما يسلك هذه الطريقة العقلية في القياس والاعتبار بأن يعتبر حال محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه وشرعه وأمته بحال غيره وكتابه وشرعه وأمته، وينظر هل هما متماثلان أو متفاضلان ؟ وأيهما أفضل ؟

وإذا تبين أن حاله أفضل ، كان تصديقه أولى ، وامتنع أن يكون غيره صادقا وهو كاذب .

بل لو كانا متماثلين لوجب كونه صادقا ، بل وكذلك لو كانا متقاربين وغيره أفضل .

فإن المتنبي الكذاب لا يقارب الصادق ، بل بينهما من التباين ما لا يخفى إلا على أعمى الناس .

فكذلك يسلك هذا الطريق في جنس الأنبياء عليهم السلام مطلقًا وأممهم ، بأن تعرف أخبار من مضى من الأنبياء وأممهم وترى آثار هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ، [الحج : ٤٦] وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ ، [يوسف : ١٠٩] وقال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون * حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين * لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب * ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ، [يوسف : الآيات : ١٠٩ - ١١١] .

وقال تعالى - لما ذكر آل فرعون - : ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ ، [القصص : ٤٢] ، وكذلك قال تعالى عن عاد : ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادًا كفروا ربهم ألا بعدًا لعاد قوم هود ﴾ ، [هود : ٦٠] وقال تعالى عن قوم شعيب : ﴿ ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ [هود : ٩٥] .

وإذا ذكر الأنبياء عليهم السلام ، قال تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين * سلام على نوح في العالمين ﴾ [الصافات : ٧٨ - ٧٩] ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ [الصافات : ١٢٠] ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ [الصافات : ١٣٠] وقال تعالى : ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ [مريم : ٥٠] ، ومثل هذا في القرآن كثير ، فيذكر من حال الأنبياء وأتباعهم وما حصل لهم من الكرامة ، وما حصل للكفار بهم من الخزي والعذاب ، وحسن حال هؤلاء وقبح حال هؤلاء .

ومما يوضح ذلك أن من اعتبر حال أهل الملل من المسلمين والنصارى وحال غيرهم في العلوم النافعة والأعمال الصالحة ، تبين أن حال أهل الملل أكمل بما لا يحصى .

وإذا نظر ما عند غير أهل الملل ، من الحكمة العلمية والعملية كحكمة الهند واليونان ، والعرب في الجاهلية والفرس وغيرهم ، وجد ما عندهم بعض ماعند أهل الملل من الحكمة العلمية والعملية .

فيمتنع أن يكون علماء اليونان والهند ونحوهم ، على حق وهدى ، وعلماء المسلمين واليهود والنصارى على باطل وضلال .

وكذلك يمتنع أن تكون تلك الأمة لها علم نافع وعمل صالح ، وأهل الملل ليسوا كذلك .

ففي الجملة لا يوجد في غير أهل الملل من علم نافع وعمل صالح ، عن حكمة علمية وعملية ، إلا وذلك في أهل الملل أكمل .

ولا يوجد في أهل الملل شر ، إلا وهو في غيرهم أكثر .

وهؤلاء فلاسفة اليونان ، الذين قد شهروا عند كثير من الناس باسم الحكمة ، وحكمتهم كحكمة سائر الأمم ، نوعان : نظرية وعملية .

والعملية في الأخلاق ، وسياسة المنزل ، وسياسة المدائن .

وكل من تأمل ما عند اليهود والنصارى ، بعد النسخ والتبديل ، من سياسة الأخلاق والمنزل والمدائن ، وجده خيراً مما عند أولئك بأضعاف مضاعفة .

فإن أولئك عمدة أمرهم ، الكلام على قوى النفس الشهوية والغضبية ، وقوى العلم والعدل ، كأمور من جنس آداب العقلاء ليس عندهم من معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله ، ومن عبادته وحده لا شريك له ، شئ له قدر .

والذي عندهم من العلوم الطبيعية والحسابية ، ليس مما ينفع بعد الموت إلا أن يستعان به على ما ينفع بعد الموت .

والذي عندهم من العلم الإلهي قليل جداً ، مع ما فيه من الخطأ الكبير .

وكل ما عندهم من علم نافع وعمل صالح ، فهو جزء مما جاءت به الأنبياء عليهم السلام .

فيمتنع أن يكون هؤلاء المسلمون بالحكماء وأتباعهم ، على حق في الاعتقاد ، وصدق في الأقوال ، وخير في الأعمال ، كما هو غاية مطلوبهم .

والأنبياء وأتباعهم ليسوا كذلك .

واعتبر ذلك بمن تعرف من خاصة هؤلاء وعامتهم ، وخاصة هؤلاء وعامتهم وإن كان بينهما من التفاوت ، كما بين أهل الجنة والنار .

فالاعتبار في مثل ذلك ، بما جاء به التنزيل ، قال تعالى : ﴿ الله خير أما يشركون ﴾ [النمل : ٥٩] والمقصود أنه بالاعتبار والقياس العقلي والموازنة توزن الشئ بما يناظره وتعتبر به قياس الطرد ، وقياس العكس .

فيظهر لكل من تدبر ذلك أن أهل الملل أولى بالحق والصدق والخير من غيرهم ، وإن كان لأولئك من الحكمة ما يناسب أحوالهم .

وحكماؤهم أفضل من عوامهم ، وهم خير من الكفار بالرسل الذين ليس لهم من الحكمة ما لهم ، وهذا مما استفادوه أتباع الأنبياء منهم ، فيكون هذا من دلائل نبوتهم وأعلام رسالتهم ، استدلالا بالأثر على المؤثر ، وبالمعلول على علته .

وكذلك من تدبر حال المسلمين وحال اليهود والنصارى ، تبين له رجحان حال المسلمين فيكون هذا من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعلام رسالته .

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن النبوة تعلم بطرق كثيرة وذكرنا طرقًا متعددة في معرفة النبي الصادق والمتنبي الكذاب ، غير طريق المعجزات فإن الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة الشئ ، يسر الله أسبابه ، كما يسر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد .

فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبذولا لكل أحد في كل وقت .

ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت ، كان وجود الماء أكثر لذلك .

فلما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم ، كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها .

ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك ، أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك ، أقام الله سبحانه من دلائل صدقهم ، وشواهد نبوتهم ، وحسن حال من اتبعهم وسعادته ونجاته وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح ، وقبح حال من خالفهم وشقاوته وجهله وظلمه ، ما يظهر لمن تدبر ذلك ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، [النور : ٤٠] .

وهذا الذي ذكرناه ، من اعتبار الشئ بنظرائه وموافقيه وأشباهه ، واعتباره بأضداده ومخالفيه ، حتى يعرف في المتشابهين أيهم أكمل وأفضل ، وفي المختلفين أيهم أولى بالحق والهدى ، والعدل موجود في سائر الأمور علمها وعملها ، كعلم الطب والحساب والنحو والفقه وغير ذلك ، فيمتنع - مع العلم والعدل - أن يقال : جالينوس كان طبيبًا ، أو بقراط لم يكن طبيبًا ، أو أن يقال : الأخفش كان نحويًا ، وسيبويه لم يكن نحويًا ، أو أن زفر والحسن بن زياد ، ويونس بن خالد السمتي كانوا فقهاء ، وأبو حنيفة لم يكن فقيهًا ، أو أن أشهب ، وابن القاسم ، وابن وهب كانوا فقهاء ، ومالك لم يكن فقيها ، أو أن المزني والبويطي والربيع كانوا فقهاء ، والشافعي لم يكن فقيهًا ، أو أن أبا داود وإبراهيم الحربي وأبا بكر الأثرم كانوا فقهاء وأحمد بن حنبل لم يكن فقيها ، أو أن عليا كان إمام عدل وأبو بكر وعمر لم يكونا إمامي عدل ، أو أن نور الدين الشهيد كان عادلاً وعمر بن عبد العزيز لم يكن عادلاً أو

أن كوشيار كان يعلم الهيئة وبطليموس لم يكن يعرف الهيئة ، أو أن أبا علي بن الهيثم كان يعرف علم الهندسة وإقليدس لم يكن يعرف ذلك ، أو أن النابغة الجعدي كان شاعراً ، والنابغة الذبياني لم يكن شاعراً ، أو أن يقال : إن القمر مستنير ، والشمس ليست مستنيرة ، أو أن عطارد نجم ثاقب ثقب ضوءه ، والمشترى ليس بنجم ثاقب ، أو أن مسلماً كان عالمًا بالحديث ، والبخاري لم يكن كذلك ، أو أن كتابه أصح من كتاب البخاري ، ونحو ذلك مما يطول تعداده .

فصـــل

والنصارى لهم سؤال مشهور بينهم ، وهو إن منهم من يقول : « محمد لم تبشر به النبوات ، بخلاف المسيح فإنه بشرت به النبوات » .

وزعموا أن من لم تبشر به ، فليس نبي .

وهذا السؤال يورد على وجهين :

أحدهما : ـ أنه لا يكون نبيًا حتى يبشر به .

والثاني : ـ أن من بشرت به أفضل أو أكمل ممن لم تبشر به ، أو أن هذا طريق تعرف به نبوة المسيح ، اختص به .

وأنتم قد قلتم : ما من طريق تثبت به نبوة نبي إلا ومحمد تثبت نبوته بمثل تلك الطريق وأفضل .

فأما هذا الثاني ، فيستحق الجواب ، وأما الأول فنحن نجيبهم عنه أيضًا لكن هل يجب الإجابة عنه ؟ فيه قولان بناء على أصل .

وهو أنه : ـ هل من شرط النسخ الإشعار بالمنسوخ ؟ ولنظار المسلمين فيه قولان :

أحدهما : ـ أنه لابد إذا شرع حكما يريد أن ينسخه ، فلابد أن يشعر المخاطبين بأني سأنسخه ، لئلا يظنوا دوامه ، فيكون ذلك تجهيلا لهم .

والثاني : ـ لا يشترط ذلك .

وأيضًا ، فمن بعث بعد موسى بشريعة ، هل يجب أن يكون مبشرًا به ؟ فيه قولان :

وبكل حال ، فلاريب عند علماء المسلمين أن المسيح عليه السلام بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم : يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ الآية ، [الصف : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ ، [الأعراف : ١٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ ، [الفتح : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ ، [البقرة : ١٤٦] ، و [الأنعام : ٢٠] في موضعين من القرآن ، أحدهما في التوحيد أو القرآن ، والآخر في القبلة ، والقرآن ومحمد .

فقال في الأول : ﴿ قل أي شئ أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل : لا أشهد قل : إنما هو إله واحد وإنني برئ مما تشركون * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ ، [الأنعام الآيتان : ١٩ ، ٢٠] وهذا في سورة الأنعام ، وهي مدنية .

وقال في سورة البقرة وهي مدنية : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك

قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون * ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [البقرة الآيات : ١٤٤ – ١٤٧].

وقال تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ، [البقرة : ٨٩] ، قال تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [الأنعام : ١١٤] ، وقال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ؟ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] ، وقال تعالى : ﴿ كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الرعد : ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ الآية [المائدة : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ ، [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [القصص : ٥٢ – ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ الآية ، [يونس : ٩٤].

وإذا كان كذلك ، فيقال : معلوم باتفاق أهل الملل ، أنه ليس من شرط نبوة كل نبي ، أن يبشر به من قبله ، إذ النبوة ثابتة بدون ذلك ، لاسيما ونوح وإبراهيم وغيرهما ، لم يعلم أنه بشر بهما من قبلهما، وكذا عامة الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل ، لم يتقدم لهم بشارات ، إذ كانوا لم يبعثوا بشريعة ناسخة ، كداود وأشعيا وغيرهما .

وإنما قد يدعى هذا ، فيمن جاء بنسخ بعض شرع من قبله ، كما جاء المسيح بنسخ بعض أحكام التوراة ، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم.

ففي مثل هذا يتنازع المتنازعون من علماء المسلمين وغيرهم : هل يشترط أن يكون قد أخبر بذلك قبل النسخ على قولين .

وحينئذ فنقول : فالمسلمون يقولون : شريعة التوراة والإنجيل لم تشرع شرعا مطلقًا بل مقيداً ، إلى أن يأتي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا مثل الحكم الموقت بغاية لا يعلم متى يكون ، كقوله تعالى : ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ [البقرة : ١٠٩] وقال تعالى : ﴿ فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ [النساء : ١٥] ومثل هذا جائز باتفاق أهل الملل .

وهل يسمى هذا نسخا ؟ فيه قولان :

قيل : لا يسمى نسخًا ، كالغاية المعلومة ، كقوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ [البقرة : ١٨٧] فإن ارتفاع وجوب الصيام بمجئ الليل ، لا يسمى نسخًا باتفاق الناس .

فقيل : إن الغاية المجهولة كالمعلومة .

وقيل : بل هذا يسمى نسخًا ، ولكن هذا النسخ جائز باتفاق أهل الملل ، اليهود وغيرهم.

وعلى هذا فثبوت نبوة المسيح ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما لا تتوقف على جواز النسخ المتنازع فيه ، فإن ذلك إنما يكون في الحكم المطلق ، والشرائع المتقدمة لم تشرع مطلقًا .

وسواء قيل : إن الإشعار بالناسخ واجب ، أو قيل : إنه غير واجب ، فعلى القولين قد أشعر أهل الشرع الأول ، بأنه سينسخ .

فإن موسى بشر بالمسيح ، وكذلك غيره من الأنبياء .

وموسى والمسيح وغيرهما من الأنبياء بشروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وإذا كان هذا هو الواقع ، فنبوة المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم ، لا تتوقف على ثبوت النسخ المتنازع فيه .

وحينئذ فنقول : العلم بنبوة محمد ونبوة المسيح لا تتوقف على العلم بأن من قبلهما بشر بهما ، بل طرق العلم بالنبوة متعددة .

فإذا عرفت نبوته بطريق من الطرق ، ثبتت نبوته عند من علم ذلك وإن لم يعلم أن من قبله بشر به .

لكن يقال : إذا كان الواجب أو الواقع ، أنه لابد من إخبار من قبله بمجيئه ، وأن الإشعار بنسخ شريعته من قبله واجب أو واقع ، صار ذلك شرطًا في النبوة ، ومن علم نبوته ، علم أن هذا قد وقع ، وإن لم ينقل إليه .

فإذا قال المعارض : عدم إخبار من قبله به ، قد يقدح في نبوته ، فإنه إذا قدر أنه لم يخبر به من قبله والإخبار شرطًا في النبوة ، كان ذلك قدحًا .

قيل : الجواب هنا من طريقين :

أحدهما : أن يقال : إذا علمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة ، فإما أن يكون تبشير من قبله به لازمًا لنبوته ، واجبًا أو واقعًا ، وإما أن لا يكون لازمًا .

فإن لم يكن لازما لم يجب وقوعه وإن كان لازما علم أنه قد وقع .

وإن كان ذلك لم ينقل إلينا ، إذ ليس كل ما قالته الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا .

وليس كل ما أخبر به المسيح ، ومن قبله من الأنبياء ، وصل إلينا وهذا مما يعلم بالاضطرار .

ولو قدر أن هذا ليس في الكتب الموجودة لم يلزم أن المسيح ومن قبله لم يذكروه ، بل يمكن أنهم ذكروه وما نقل ، ويمكن أنه كان في كتب غير هذه الكتب ، ويمكن أنه كان في نسخ غير هذه النسخ فأزيل من بعضها ونسخت هذه مما أزيل منه وتكون تلك النسخ التي هو موجود فيها غير هذه ، فكل هذا ممكن في العادة لا يمكن الجزم بنفيه .

فلو قدر أنه ليس في هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب لم يقطع بأن الأنبياء لم يبشروا به .

فإذا لم يمكن اليهود أن يقطعوا بأن المسيح لم يبشر به الأنبياء ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم تبشر به الأنبياء ، لم يكن معهم علم بعدم ذلك ، بل غاية ما يكون عند أحدهم ظن ، لكونه طلب ذلك فلم يجده .

ودلائل نبوة المسيح ومحمد قطعية يقينية لا يمكن القدح فيها بظن ، فإن الظن لا يدفع اليقين ، لاسيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمداً كان مكتوباً باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء ، كما في صحيح البخاري أنه قيل لعبد الله بن عمرو : « أخبرنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال : إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا

(١) رواه البخاري في كتاب « البيوع » باب « كراهية السخب في الأسواق » (٤٠٢/٤ح٢١٢٥)
ورواه أيضا برقم (٤٨٣٨)
ورواه أيضا في الأدب المفرد (٣٤٣/١ح٢٤٦) ونحوه (٣٤٦/١ح٢٤٧)
وانظر تحفة الأشراف (٣٦٣:٣٦٤ح٨٨٨٦) ومعها « النكت الظرف »

غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا تجزي بالسيئة السيئة ، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة ، وتعفو وتغفر ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، فأفتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صما ، وقلوبًا غلفا ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله » .

ولفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور ، قد يراد به الكتب المعينة ، ويراد به الجنس فيعبر بلفظ القرآن عن الزبور وغيره ، كما في الحديث الصحيح (١) عن النبي صلى الله عليه وسلم : « خفف على داود القرآن ، فكان ما بين أن يسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن » والمراد به قرآنه ، وهو الزبور ، ليس المراد به القرآن الذي لم ينزل إلا على محمد .

وكذلك ما جاء في صفة أمة محمد « أناجيلهم في صدورهم » فسمى الكتب التي يقرؤونها ـ وهي القرآن ـ أناجيل .

وكذلك في التوراة « إني سأقيم لبني إسرائيل نبيًا من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى » فسمى الكتاب الثاني توراة .

فقوله : « أخبرني بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة » قد يراد بها نفس الكتب المتقدمة كلها ، وكلها تسمى توراة ، ويكون هذا في بعضها ، وقد يراد به التوراة المعينة ، وعلى هذا فيكون هذا في نسخة لم تنسخ منها هذه النسخ ، فإن النسخ الموجودة بالتوراة التي وقفنا عليها ، ليس فيها هذا .

لكن هذا عندهم في نبوة أشعيا قال فيها : « عبدي الذي سرت به نفسي أنزل عليه وحيي ، فيظهر في الأمم عدلي ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته في الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصم ، ويحيي القلوب الغلف ،

---

(١) « صحيح » من رواية أبي هريرة
رواه البخاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » باب قوله تعالى ﴿ وآتينا داود زبورًا ﴾ (٦/ ٥٢٢ ح ٣٤١٧)
ورواه أيضًا في كتاب « التفسير » باب ٦ تفسير سورة الإسراء (٨ / ٢٤٩ ح ٤٧١٣)

وما أعطيه ، لا أعطي أحدا ، يحمد الله حمداً جديداً يأتي من أقصى الأرض ، وتفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكبرونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل إلى الهوى مشقح ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوي الصديقين ، وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذي لا يطفى أثر سلطانه على كتفيه » .

وهذه صفات منطبقة على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، وهي من أجل بشارات الأنبياء المتقدمين به .

ولفظ التوراة ، قد عرف أنه يراد به جنس الكتب التي يقر بها أهل الكتاب ، فيدخل في ذلك الزبور ، ونبوة أشعيا ، وسائر النبوات غير الإنجيل .

فإن كان المراد بلفظ التوراة والإنجيل في القرآن هذا المعنى ، فلا ريب أن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة بهذا الاعتبار ، كثير متعدد ظاهر ، كما سنبين بعضه وحينئذ فتكون التوراة في قوله : ﴿ يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : ١٥٧] متناولة لجنس الكتب التي يقربها أهل الكتاب .

ولفظ الإنجيل يختص بما عند النصارى ولهذا لم يذكر كونه في الزبور مع أنه مذكور فيه ، إذ كان مندرجا في لفظ التوراة .

الطريق الثاني من الجواب : ـ أن نبين أن الأنبياء قبله ، بشروا به .

وهذا هو دليل مستقل على ثبوته ، وعلم عظيم من أعلام رسالته .

وهذا أيضاً ، يدل على نبوة ذلك النبي إذ أخبر بأنباء من الغيب مع دعوى النبوة ، ويدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لإخبار من تثبت نبوته بنبوته .

هذا إذا وجد الخبر ممن لا نعلم ثبوته ، ولم يذكر في كتابنا .

وأما من ثبتت نبوته بطرق أخرى ، كموسى والمسيح ، فهذا مما تظاهر فيه الأدلة

على المدلول الواحد ، وهو أيضًا يتضمن أن كل ما ثبتت به نبوة غيره ، فإنه تثبت به نبوته ، وهو جواب ثان ، لمن يجعل ذلك شرطًا لازمًا لنبوته .

فصل

ثم العلم بأن الأنبياء قبله ، بشروا به يعلم من وجوه :

أحدها : ـ ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب من ذكره .

الثاني : ـ إخبار من وقف على تلك الكتب وغيرها ، من كتب أهل الكتاب ، ممن أسلم ، وممن لم يسلم ، بما وجدوه من ذكره بها .

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب ، كانوا يخبرون بمبعثه ، وأنه رسول الله ، وأنه موجود عندهم وكانوا ينتظرونه وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه ، من غير رهبة ولا رغبة .

ولهذا قيل : إن المدينة فتحت بالقرآن ، لم تفتح بالسيف كما فتح غيرها

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب في القرآن قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقًا كذبتم وفريقًا تقتلون * وقالوا : قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾ ، [البقرة : ٨٧ - ٩٠] .

ومثل ماتواتر عن أخبار النصارى بوجوده في كتبهم ، مثل إخبار هرقل ملك الروم ، والمقوقس ملك مصر صاحب الإسكندرية ، والنجاشي ملك الحبشة ، والذين

جاءوه بمكة ، وقد ذكر الله عنهم في القرآن في قوله عن اليهود ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ .

وقال عن النصارى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [المائدة : ٨٣] وقوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق من ربنا ﴾ ، [القصص : ٥٢ ، ٥٣] .

وقال ابن إسحاق (١) : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب ، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه » .

فقال معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يامعشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته

فقال سلام بن مشكم ، أخو بني النضير : ما جآءنا شئ نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ، [البقرة : ٨٩] .

وقال أبو العالية وغيره (٢) : كانوا - يعني اليهود - إذا استنصروا بمحمد على مشركي العرب يقولون : « اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى يعذب المشركين ويقتلهم » .

فلما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ورأوا أنه من غيرهم ، كفروا به حسداً

---

(١) « ضعيف »

رواه ابن اسحاق بلاغا كما في « سيرة ابن هشام » (٢/٢٢٤) ، ورواه الطبري في تفسيره (١/٣٢٥) ورواه أبو نعيم في الدر المنثور (١/٨٨) لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الدلائل .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (١/٣٢٦)

للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآيات ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴾ .

وروى ابن إسحاق (١) عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري ، ثم الطفري عن رجال من قومه قالوا : « ومما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ، أنا كنانسمع من رجال يهود ، كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل الكتاب ، عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزلت هؤلاء الآيات التي في البقرة : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ .

قال ابن إسحاق (٢) : وحدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ،

---

(١) «ضعيف»

رواه ابن إسحاق كما في « سيرة ابن هشام » (١/ ٢٧٠) ورواه أيضا (٣ / ٢١٦ ، ٢١٧) ورواه الطبري في « تفسيره » (١ / ٣٢٥) ، ورواه أبو نعيم في « الدلائل » (١ / ٩٤ - ٩٦) ، ورواه البيهقي في « الدلائل » (٢ / ٧٥ ، ٧٦) ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١ / ٨٧) لابن المنذر أيضًا .

والحديث ضعيف لجهالة شيوخ عاصم .

(٢) « ضعيف » رواه ابن اسحاق كما في سيرة ابن هشام (١ / ٢١١ ، ٢١٢) وسنده منقطع في قوله حدثني من شئت من قومي ، ورواه أبو نعيم في « الدلائل » (١ / ٨٦) ، وفيه :

الفضل بن غانم « قال عنه الذهبي في « الميزان » (٣ / ٣٥٧)

قال يحيى : ليس بشئ ، وقال الدارقطني : ليس بالقوى ، وقال الخطيب : ضعيف» وسلمة بن الفضل قال عنه ابن حجر في « التقريب » (١ / ٣١٨) « صدوق كثير الخطأ »

حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة الأنصارى قال : حدثني من شئت من رجال قومي عن حسان بن ثابت الأنصاري قال : « والله إني لغلام يفقه ، ابن سبع سنين أو ثمان سنين ، أعقل كل ما سمعت إذ سمعت يهوديًا يقول على أطم يثرب ، يصرخ : « يامعشر اليهود » فلما اجتمعوا عليه قالوا : « مالك ويلك ؟ » قال : « طلع نجم أحمد الذي يبعث الليلة » .

وروى أبو زرعة بإسناد صحيح (٢) عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مردفي ، ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم حار من أيام مكة ، حتى إذا كنا بأعلى الوادي لقيه زيد بن عمرو بن نفيل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياابن عمرو مالي أرى قومك قد شنفوك ؟ » .

قال : أما والله ، إن ذلك لغير مأثرة كانت مني فيهم ، ولكن أراهم على ضلال .

فخرجت أبتغي هذا الدين ، فأتيت إلى أحبار يثرب ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : « ما هذا بالدين الذي أبتغي » .

فخرجت حتى آتي أحبار خيبر ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : « ماهذا بالدين الذي أبتغي » .

---

(١) رواه النسائي في الكبرى في كتاب « المناقب » باب « زيد بن عمرو بن نفيل » (٥/ ٥٤، ٥٥ ح ٨١٨٨) ، ورواه البزار كما في « كشف الأستار » (٣ / ٢٨٣ ، ح ٢٧٥٥) وقال : لا نعلم رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا زيد بن حارثة بهذا الاستار.

ورواه الطبراني في « الكبير » (٥ / ٨٦ ، ٨٧ ح ٤٦٦٣) وأيضًا برقم (٤٦٦٤)

ورواه أبو يعلى (١٣ /١٧٠ - ١٧٢ ج ٧٢١٢) وعزاه ابن حجر في المطالبة (٩٥٤ - ٩٦ ح ٤٠٥٧) إلى أبي يعلى وحده .

ورواه البيهقي في « الدلائل » (٢ / ١٢٤ - ١٢٧) ، وذكره الهيثمي في « المجمع » /٩/ ٤١٧ - ٤١٨) وقال : « رواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أبي يعلى والبزار وأحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة ، وهذا حسن الحديث »

فقال لي حبر من أحبار الشام « إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخ بالجزيرة » .

فخرجت ، فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجت له ، فقال : « إن كل من رأيت في ضلالة ، ممن أنت ؟ » .

قال : قلت أنا من أهل بيت الله ، ومن أهل الشوك والقرظ .

فقال : إنه قد خرج في بلدك نبي ، أو خارج قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه واتبعه وآمن به ، فرجعت فلم أحس شيئًا بعد ، قال : فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره فقدمنا إليه السفرة .

قال زيد : ما أكل شيئًا ذبح لغير الله ، فتفرقا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطاف بالبيت .

قال زيد : وأنا معه ، وكان صنمان من نحاس يقال لهما « أساف » و « نائلة » مستقبل الكعبة ، يتمسح بها الناس إذا طافوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمسهما ، ولا تمسح بهما » .

قال زيد : فقلت في نفسي ، وقد طفنا ، لأمسهما حتى أنظر مايقول ، فمسستهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألم تنهه ؟ » فلا والذي أكرمه ما مسستهما حتى أنزل الله عليه الكتاب ، ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه يبعث أمة وحده » .

وروى البخاري (١) حديث خروج زيد بن عمرو قريبًا من هذا اللفظ .

---

(١) « صحيح »
رواه البخاري في كتاب « مناقب الأنصار» باب « حديث زيد بن عمرو بن نفيل » (١٧٦/٧ح٣٨٢٦ ، ٣٨٢٧) ورواه ـ أيضا ـ برقم (٥٤٩٩) من حديث بن عمر .

وقال ابن إسحاق (١) : حدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة بن وقس ، قال : « كان بين أبياتنا يهودي فخرج على نادي قومه بني عبد الأشهل ذات غداة ، فذكر البعث والقيامة ، والجنة والنار ، والحساب والميزان ، فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثا كائن بعد موت ، وذلك قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : « ويحك يا فلان » أو « ويلك » وهذا كائن ؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون من أعمالهم ؟

قال : نعم والذي يُحلف به ، لوددت أن حظي من تلك النار ، أن يوقدوا أعظم تنور في داركم ، فيحمونه ، ثم يقذفوني فيه ، ثم يطينون علي ، وإني أنجو من تلك النار غداً .

فقيل : يافلان فما علامة ذلك ؟ .

قال : نبي يبعث من ناحية هذه البلاد ، وأشار إلى مكة واليمن بيده .

قالوا : فمتى نراه ؟

فرمى بطرفه فرآني وأنا مضطجع بفنايات أهلي وأنا أحدث القوم فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

---

(١) « رجال ثقات »

رواه إبن إسحاق كما في « سيرة ابن هشام » (١ / ٢٧٠ ، ٢٧٢) ، ورواه أحمد (٣ / ٤٦٧) ، ورواه أبو نعيم في « الدلائل » (١ / ٨٤ - ٨٦ ح ٣٤) ، ورواه البيهقي في « الدلائل » (٢ /٧٨ ، ٧٩) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٧ / ٤١ ، ٤٢ ح ٦٣٢٧)

ورواه البخاري في « تاريخه » (٢ /٢ /٦٨ ، ٦٩)

ورواه الحاكم (٣ / ٤١٧ ، ٤١٨) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي .

وقال الهيثمي في « المجمع » (٨ / ٢٣٠) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ».

فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله وإنه لحي بين أظهرهم ، فآمنا به وصدقناه وكفر به بغيًا وحسدا .

فقلنا له : يافلان ، ألست الذي قلت ما قلت ، وأخبرتنا ؟ قال : ليس به

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن غلامًا يهوديًا كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فمرض ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوده ، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا يهودي أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي ؟ » قال : لا ، قال الفتى : بلى والله يارسول الله إنا نجد في التوراة نعتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أقيموا هذا من عند رأسه ولوا أخاكم » رواه البيهقي (١) بإسناد صحيح .

وقال ابن إسحاق (١) : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال : هل تدري عما كان إسلام أسيد وثعلبة ابني سعيد ، وأسد بن عبيد نفر من بني هذيل ، لم يكونوا من بني قريظة ، وبني النضير ، كانوا فوق ذاك ؟ فقلت : لا ، قال : فإنه قدم علينا رجل من الشام من يهود يقال له : ابن الهيبان ، فأقام عندنا ، والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس خيراً منه فقدم علينا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين ، وكنا إذا أقحطنا وقل علينا المطر نقول : يا ابن الهيبان ،

---

(١) رواه البيهقي في « الدلائل » (٢٧٢/٦)

(٢) « ضعيف »

رواه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢٧٢/١ ، ٢٧٣)

ورواه البيهقي في « الدلائل » (٨٠/٢ ، ٨٠ ، ٨١) ، (٣١/٤ ، ٣٢)

ورواه أبو نعيم في « الدلائل » (٩٤/١/٩٩ح٤٢)

وشيخ عاصم في الحديث مجهول !

اخرج فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة فنقول : كم ؟ فيقول : « صاعًا من تمر مُدَّين من شعير » فنخرجه ، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه ، فنستقي ، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمر الشعاب ، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة .

فحضرته الوفاة واجتمعوا إليه فقال : يامعشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قالوا : أنت أعلم ، قال : فإنه إنما أخرجني توقع خروج نبي قد أظل زمانه هذه البلاد ومهاجره ، فاتبعوه ولا تسبقن إليه إذا خرج ، يامعشر يهود ، فإنه يبعث بسفك الدماء ، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه ولا يمنعنكم ذلك منه ، ثم مات .

فلما كان الليلة التي فتحت فيها قريظة ، قال أولئك الثلاثة الفتية ، وكانوا شبانًا أحداثًا : يامعشر يهود والله إنه الذي ذكر لكم ابن الهيبان .

فقالوا : ماهو به . قالوا : « بلى والله إنه لصفته » ثم نزلوا فأسلموا وخلوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم .

قال ابن إسحاق : فلما فتح الحصن ، رد ذلك عليهم .

وفي الصحيحين (١) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب ، لما حدثه عن هرقل وقد تقدم حديثه في أول الكتاب وذكر فيه : أن هرقل لما سأله عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن يكن ماتقول فيه حقًا ، إنه لنبى . وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه منكم ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه

(١) مرّ تخريجه فى الجزء الأول

رواه البخاري في كتاب « بدء الوحي باب (٦) (١ / ٤٢ : ٤٤ ح٧) وقد ورد برقم (٥١ ، ٢٦٨١ ، ٢٨٠٤ ، ٢٩٤١ ، ٢٩٧٨ ، ٣١٧٤ ، ٤٥٥٣ ، ٥٩٨٠ ، ٦٢٦٠ ، ٧١٩٦ ، ٧٥٤١)

ورواه مسلم في كتاب « الجهاد » باب « كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل (٣ / ١٣٩٣ : ١٣٩٧ح١٧٧٣)

ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

وزاد البخارى في حديثه ، وقال ابن الناظور : وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم ، فنظر فقال : إن ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قال : تختتن اليهود فلا يهمنك شأنهم ، وابعث إلى من في مملكتك من اليهود فيقتلونهم .

ثم وجدنا إنسانًا من العرب فقال : انظروا ، أمختتن هو، ؟ فنظروا ، فإذا هو مختتن .

وسأله عن العرب فقال : يختتنون .

وقال فيه : وكان برومية صاحب له ، كان هرقل نظيره في العلم ، فأرسل إليه وسار إلى حمص ، فلم يرم من حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأيه على خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنه نبى .

وكذلك النجاشي ملك الحبشة ، لما هاجر الصحابة إليه ، لما أذاهم المشركون ، وخافوا أن يفتنوهم عن دينهم ، وقرءوا عليه القرآن ، قال : فأخذ عودًا بين إصبعيه فقال : ماعدا عيسى ابن مريم ماقلت هذا العود ، فتأخرت بطارقته فقال : وإن نخرتم اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى ، يعنى أنتم آمنون .

وقال هذا ، لأن قريشًا أرسلوا هدايا إليه وطلبوا منه أن يرد هؤلاء المسلمين وقالوا : « هؤلاء فارقوا ديننا ، وخالفوا دينك » والحديث رواه أحمد وغيره (١) .

---

(١) رواه أحمد (١ / ٢٠١ - ٢٠٣) ، (٥ / ٢٩٠ - ٢٩٣)

ورواه ابن إسحاق كما في السيرة لابن هشام (١ / ٤١٣ - ٤١٧)

ورواه أبو داود الطيالسي كما في « منحة المعبود » (٢ / ٨٩ ، ٩٠) ، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤ - ٢٧) « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع ورواه البزار كما في كشف الأستار (٣ / ٢٨٥ ، ٢٨٦ ح ٢٧٥٧) من طريق ابن مسعود .

ورواه أبو نعيم في الدلائل (١/٣٢٣ - ٣٢٧ ح ١٩٤)

وفي الصحيحين (١) حديث ورقة بن نوفل الذي ترويه عائشة رضى الله عنها في بدء الوحى قالت : « أول مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، وكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد إلى أن قالت : فأتت به خديجة ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، فقالت : اسمع من ابن أخيك ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مارأى ، فقال ورقة : « هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ، ليتنى جذعًا أنصرك نصراً مؤزراً إذ يخرجك قومك؛ ، قال : أَوَمُخْرِجِيَّ هم قال : نعم . لم يأت أحد بمثل ماجئت به إلا عُودِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً » ثم لم ينشب ورقة أن توفى » .

وقال ابن إسحاق (١) : وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا أو قريب من ذلك - وهو بمكة - من النصارى ، حين ظهر خبره بالحبشة ، فوجدوه في المجلس فكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم .

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخاري في كتاب « بدء الوحي » باب (٣) (١/٣٠، ٣١ ج ٣)

ورواه أيضًا برقم (٣٣٩٢ ، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٥ ، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧ ، ٦٩٨٢)

ورواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « بدء الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (١ / ١٣٩ - ١٤٢ ج ٢٥٢) ، ورواه أيضًا برقم (٢٥٣ ، ٩٥٤)

(٢) « ضعيف » رواه ابن إسحاق معلقًا كما في سيرة ابن هشام (٢ / ٣٦ ، ٣٧)

ورواه البيهقي في « الدلائل » (٢ / ٣٠٦ ، ٣٠٧) من طريه

والخبر فيه . « أحمد بن عبد الجبار » قال عنه ابن حجر في « التقريب » (١ / ١٩) : « ضعيف ، وسماعه للسيرة صحيح »

« ويونس يونس بن بكير » قال عنه ابن حجر في « التقريب » (٢ / ٣٨٤) « يخطئ »

فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن .

فلما سمعوا ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ماكان يوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا من عنده اعترضهم أبوجهل في نفر من قريش فقال : خيّبكم الله من ركْبٍ ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم ، فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، مانعلم ركبًا أحمق منكم ، أو كما قالوا لهم .

فقالوا: سلام عليكم لانجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم .

ويقال : فيهم نزل قوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ الآية [القصص : ٥٢ ـ ٥٣] .

وعن محمد بن عمر بن سعيد بن محمد بن جبير : حدثتنى جدتى أم عثمان بنت سعيد بن محمد بن جبير عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه قال : سمعت أبى جبيراً يقول : « لما بعث الله نبيه ، وظهر أمره بمكة ، خرجت إلى الشام ، فلما كنت ببصرى ، أتتنى جماعة من النصارى ، فقالوا لى : أمن الحرم أنت ؟ قلت : نعم ، قالوا : فتعرف هذا الذى تنبأ فيكم ؟ قلت : نعم قال : فأخذوا بيدى فأدخلوني ديراً لهم ، فيه تماثيل وصُوَر ، فقالوا لى : انظر هل ترى صورة هذا النبى الذي بعث فيكم ؟ فنظرت فلم أر صورته قلت : لا أرى صورته .

فأدخلونى ديراً أكبر من ذلك الدير ، فيه صور أكثر مما في ذلك الدير .

فقالوا لي : انظر هل ترى صورته ؟ فنظرت . فإذا أنا بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصورته ، وإذا أنا بصفة أبى بكر وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فقالوا لى : انظر هل ترى صفته ؟ قلت : نعم . قالوا : هو هذا ؟ وأشاروا إلى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : اللهم نعم . أشهد أنه هو .

قالوا : أتعرف هذا الذى أخذ بعقبه ؟ قلت : نعم .

قالوا : نشهد أن هذا صاحبكم ، وأن هذا الخليفة من بعده » رواه البخارى في تاريخه (١) ، وقال فيه : « قال الذى أراه الصور: لم يكن نبى إلا كان بعده نبى ، إلا هذا النبى » ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة .

وروى موسى بن عقبة أن هشام بن العاص ، ونعيم بن عبدالله ، ورجلا آخر ، قد سماه ، بعثوا إلى ملك الروم زمن أبى بكر ، قال : فدخلنا على جبلة بن الأيهم وهو بالغوطة ، فذكر الحديث وأنه انطلق بهم إلى الملك وأنهم وجدوا عنده شبه الربعة العظيمة مذهبة ، وإذا فيها أبواب صغار ففتح منها بابا ، فاستخرج منه خرقة حرير سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وذكر صفة آدم ، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج منه حريرة وفيها صورة نوح ، ثم إبراهيم ، ثم أراهم حريرة فيها صورة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : هذا آخر الأبواب لكنى عجلته لأنظر ماعندكم ، ثم فتح أبوابا أخر وأراهم صورة بقية الأنبياء ، موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى ابن مريم عليهم السلام ، وصفة لوط ، وصفة إسحاق ، وذكر أن هذا عندهم قديمًا من عهد آدم ، وأن دانيل صورها بأعيانها .

وروى مثل هذا عن المغيرة بن شعبة ، أنه لما دخل على المقوقس ملك مصر والإسكندرية ملك النصارى ، أخرج له صور الأنبياء ، وأخرج له صورة نبينا صلى الله عليه وسلم فعرفها .

---

(١) رواه البخاري في « تاريخه » (١ /١ /١٧٩) ، رواه الطبراني في « الكبير » (٢ / ١٢٥ ح ١٥٣٧) ورواه أبو نعيم في « الدلائل » (١ / ٥٥ ، ٥٦ ح ١٢) ، وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٤٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه من لم أعرفهم » . اهـ

والوجه الثالث :ـ نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة ، واستشهاده بأهل الكتاب وإخباره بأنه مذكور في كتبهم ، مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً في كتبهم ، فإنه لاريب عند كل من عرف حال محمد من مؤمن وكافر ، أنه كان من أعقل أهل الأرض ، فإن المكذبين له ، لايشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق ، ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم ، الذي لم يحصل لأحد مثله ، لاقبله ولابعده ، فعلم ضرورة أنه لايفعله ولايخبر به ، وهو من أحرص الناس على تصديقه ، أخبرهم بالطرق التى يصدق بها . وأبعدهم عن أن يفعل مايعلم أنه يكذب به .

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم ، بل علم انتفاء ذلك ، لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة ، ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه ، فإن هذا لايفعله إلا من هو أقل الناس عقلا ، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم ، وعند من يخبرونه ، وهو ضد مقصوده ، وهو بمنزله من يريد إقامة شهود على حقه فيأتي إلى من لايعلم أنه لايكذب . ويعلم أنه ليس بشاهد ولاحضر قضيته ، ويقول : هذا يشهد لى ، وهذا يشهد لى .

فإنهم كانو حاضرين هذه القضية ، فيقول أولئك : لسنا نشهد له . ولا حضرنا هذه القضية .

فهذا لايفعله عاقل ، يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين ، وأنهم يكذبونه ولايشهدون له .

الرابع :ـ أن يقال : لما قامت الأعلام على صدقه ، فقد أخبر أنه مكتوب في الكتب المتقدمة وأن الأنبياء بشروا به ، علم أن الأمر كذلك ، لكن هذا لايذكر إلا بعد أن يقام دليل منفصل على نبوته .

والطريق الأول ، هو من أظهر الحجج على أهل الكتاب ، وأظهر الأعلام على نبوته

وقد استخرج غير واحد من العلماء من الكتب الموجودة الآن في أيدى أهل الكتاب من البشارات بنبوته مواضع متعددة ، وصنفوا في ذلك مصنفات وهذه البشارات من هذه الكتب من جنس البشارات بالمسيح صلى الله عليه وسلم .

ولااليهود يقرون باللفظ ، لكن يدّعون أن المبشَّر به ليس هو المسيح عيسى ابن مريم ، وإنما هو آخر ينتظر .

وهم - في الحقيقة - لاينتظرون إلا المسيح الدجال ، وينتظرون أيضًا مجئ المسيح عيسى ابن مريم إذا نزل من السماء ، كما بسط في موضع آخر ، ويحرفون دلالة اللفظ ويقولون : إنها لاتدل على نبى منتظر ، كما قالوا في قوله : « سأقيم لبنى إسرائيل نبيًا من إخوتهم مثلك ياموسى أنزل عليه توراة مثل توراة موسى ، أجعل كلامى على فيه » .

قال بعضهم : ليس هذا إخبارا ، بل هذا استفهام إنكار ، وقدروا ألف استفهام ، وليس في النص شئ من ذلك .

فاليهود يحرفون الدلالات المبشرة بالمسيح ، وذلك عند المسلمين والنصارى لايقدح في البشارات بالمسيح ، بل تبين دلالة النصوص عليه ، وبطلان تحريف اليهود وكذلك البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة ، لايقدح فيها تحريف أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ؛ بل تبين دلالة تلك النصوص ، على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبطلان تحريف أهل الكتاب .

الوجه الخامس :- أن يقال معلوم أن ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم في مشارق الأرض ومغاربها ، أعظم حادث حدث في الأرض .

فلم يعرف قط دين ، انتشر ودام كانتشاره ودوامه ، فإن شرع موسى وإن دام ، فلم ينتشر انتشاره ودوامه ، بل كان غاية ظهوره ببعض الشام .

وأما شرع المسيح ، فقبل قسطنطين ، لم يكن له ملك ، بل كانوا يكونون ببعض

بلاد الروم وغيرها ، وكانوا مستضعفين بقتل أعيانهم أو عامتهم في كثير من الأوقات .

ولما انتشر تفرق أهله فرقا متباينة ، يكفر فيها بعضهم بعضًا .

ثم إن شرع محمد صلى الله عليه وسلم ، ظهر في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي وسط الأرض المعمورة الإقليم الثاني والثالث والرابع ، وظهرت أمته على النصارى في أفضل الأرض وأجلها عندهم ، كأرض الشام ومصر والجزيرة ، وغيرها ودام شرعه ، فله اليوم أكثر من سبعمائة سنة .

ومعلوم أن هذا المدعي للنبوة ، سواء كان صادقًا أو كاذبًا ، لابد أن يخبر به الأنبياء فإنهم أخبروا بظهور الدجال الكذاب ، تحذيرًا للناس من فتنته ، وأنه كذاب يظهر على يده أمور يفتتن بها الناس ، مع أن الدجال مدته قليلة ، فلو كان مايقوله المكذب لمحمد حقًا وأنه كاذب ليس برسول لكانت فتنته أعظم من فتنة الدجال من وجوه كثيرة ، لأن الذين اتبعوه أضعاف أضعاف من يتبع الدجال ؟ فلو كان كاذبًا ، لكان الذين افتتنوا ، به أضعاف أضعاف من يفتتن بالدجال ، فكان التحذير منه أولى من التحذير من الدجال ، إذ ليس في العالم من زمان آدم إلى اليوم ، كذاب ظهر ودام هذا الظهور والدوام ؛ فكيف يغفل الأنبياء التحذير عن مثل هذا لو كان كاذبًا ؟

وإذا كان صادقًا ، فالبشارة للإيمان به ، من أولى مايبشر به الأنبياء من المستقبلات ويخبر به ، فعلم أنه لابد أن يكون في الكتب ذكره .

وقد وجد مواضع كثيرة في الكتب ، تزيد على مائة موضع ، استدلوا بها على أنه مذكور ، وتواتر عن خلق كثير من أهل الكتاب أنه موجود في كتبهم ، وتواتر عن كثير ممن أسلم أنه كان سبب إسلامهم ، أو من أعظم سبب إسلامهم ، علمهم بذكره في الكتب المتقدمة .

إما بأنه وجد ذكره في الكتب ، كحال كثير ممن أسلم قديمًا وحديثًا .

وإما بما ثبت عندهم من أخبار أهل الكتاب ، كالأنصار فإنه كان من أعظم أسباب إسلامهم ماكانوا يسمعونه من جيرانهم أهل الكتاب من ذكره ونعته ، وانتظارهم إياه ، وأن من خيارهم من لم يسكن أرض يثرب مع شدتها ، ويدع أرض الشام مع رخائها إلا لانتظاره لهذا النبي العربي الذى يبعث من ولد إسماعيل .

ولم يمكن أحد قط أن ينقل عن شئ من الكتب أنه وجد فيها ذكره بالذم والتكذيب والتحذير كما يوجد ذكر الدجال .

وعند أهل الكتاب من ذكر أصحابه كعمر بن الخطاب وغيره ، وعدلهم وسيرتهم عن المسيح وغيره ، ماهو معروف عندهم .

فإذا كان الذين استخرجوا ذكره من كتب أهل الكتاب ، والذين سمعوا خبره من علماء أهل الكتاب إنما يذكرون نعته فيها بالمدح والثناء ، علم بذلك أن الأنبياء المتقدمين ، ذكروه بالمدح والثناء ، ولم يذكروه بذم ولاعيب .

وكل من ادّعَى النبوة ومدحه الأنبياء وأثنوا عليه ، لم يكن إلا صادقا في دعوى النبوة ، يمتنع أن الأنبياء يثنون على من يكذب في دعوى النبوة ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إليَّ ولم يوح إليه شئ ﴾ [الأنعام : ٩٣] وهذا مما يبين أنه لابد أن يكون الأنبياء ذكروه وأخبروا به ، وأنهم لم يذكروه إلا بالثناء والمدح ، لا بالذم والعيب ؛ وذلك ـ مع دعوى النبوة ـ لايكون إلا إذا كان صادقا فى دعوى النبوة فتبين أنهم بشروا بنبوته ، وهو المطلوب .

تبين من ذلك أن الأنبياء أخبروا أهل الكتاب بما سيكون منهم من الأحداث ، ومايسلط عليهم من الملوك الذين يقتلونهم ويخربون بلادهم كـ « بخت نصّر » وسنجاريب .

ولكن هؤلاء الملوك لم يدّعوا أنهم أنبياء ، ولم يَدْعُوا إلى دين فلم تحتج الأنبياء إلى التحذير من اتباعهم وقد حذروا من اتباع من يَدَّعِي النبوة وهو كاذب .

ومحمد صلى الله عليه وسلم قد قهر أهل الكتاب ، وسبى من سبى ، وقتل من قتل ، وأخرجهم من ديارهم ، فلابد أن يذكروه ويذكروا الأحداث تجرى عليهم في أيامه .

وإذا كان كاذبًا مُدَّعيًا للنبوة . فلابد أن يحذروهم من اتباعه .

ومعلوم أن عامة أهل الكتاب ومن نقل عنهم إما أن يقول : ليس موجودًا في كتبنا أو يقول : إنه موجود بالمدح والثناء ، لايمكن أحد أن ينقل عن الكتب المتقدمة أنه موجود فيها بالذم والتحذير .

ولو كان مذكورًا عندهم بالذم والتحذير ، لكان هذا من أعظم مايحتجون به عليه في حياته ، وعلى أمته بعد مماته ، ويحتج به من لم يسلم منهم على من أسلم .

فإنه معلوم أن كثيرًا من أهل الكتاب ، كان عندهم من البغض له والعدواة وتكذيبه والحرص على إبطال أمره ، ما أوجب أن يفتروا أشياء لم توجد ، ونسبوا إليه أشياء يعرف كذبها كل من عرف أمره حتى آل الأمر ببعضهم إلى أن فسروا قول المسلمين « الله أكبر » بأنه أكبر صنم وأن النبى أمرهم بتعظيم هذا الصنم .

وقال بعضهم فيه : إنه أوجب الزنا على المرأة المطلقة . ثلاثا ، عقوبة لزوجها بأنه لاينكحها حتى يزنى بها غيره .

وقال بعضهم : إنه تعلم من بحيرا الراهب ، مع علم كل من عرف سيرته بأنه لم يجتمع بـ « بحيرا » وحده ، ولم يره إلا بعض نهار ومع أصحابه لما مروا به لما قدموا الشام في تجارة ، وأن بحيرا ، سألهم عنه ولم يكلمه إلا كلمات يستخبره فيها عن حاله ولم يخبره بشئ .

ومع طعن بعض أهل الكتاب فيه بأنه بعث بالسيف ، حتى يقولوا إنما قام دينه بالسيف ، وحتى يوهموا الناس أن الذين اتبعوه إنما اتبعوه خوفًا من السيف ، وحتى يقولوا : إن الخطيب إنما يتوكأ على سيف يوم الجمعة إشارة إلى أنه إنما يقوم الدين

بالسيف ، إلى أمثال هذه الأمور التي هي من أظهر الأمور كذبا عليه ، يعرف أدنى الناس معرفة بحاله أنها كذب ، وهم - مع هذا - يتشبثون بها .

فلو كان عندهم أخبار عن الأنبياء توجب ذمه وتكذيبه والتحذير من متابعته ، لكان إظهارهم لذلك ، واحتجاجهم به ، أقوى وأبلغ ، وكان ذلك مما يجب في العادة اشتهاره بين خاصتهم وعامتهم ، قديمًا وحديثًا ، وكان ظهور ذلك فيهم أولى من ظهور خبر الدجال فيهم وفي المسلمين ؛ فإن هذا الأمر من أعظم ماتتوفر الهمم والدواعى على نقله واشتهاره .

فإذا لم يكن كذلك ، علم أنه ليس في كتب الأنبياء مايوجب تكذيبه وذمه ، وقد قام الدليل على أنه لابد من أن تذكره الأنبياء ، وتخبر بحاله ، فإذا لم يخبروا أنه كاذب ، علم أنهم أخبروا أنه نبى صادق ، كما شاع ذلك وظهر واستفاض من وجوه كثيرة .

فالكتاب الذي بعث به . مملوء بشهادة أهل الكتب له ، والكتب الموجودة فيها مواضع كثيرة شاهدة له من وجوه متعددة ، والأخبار متواترة عمن اطلع على مافيها بذلك ، والأخبار متواترة عمن أسلم لأجل ذلك ؛ وهذا مما يوجب القطع بأنه مذكور فيها مما يدل على صدقه في دعوى النبوة ، وليس فيها مايخبر بكذبه والتحذير منه ، وهذا هو المطلوب .

وفي الجملة أمره أظهر وأشهر ، وأعجب وأبهر ، وأخرق للعادة من كل أمر ظهر في العالم من البشر .

ومثل هذا إذا كان كاذبًا ، فلكذبه لوازم كثيرة جدًا تفوق الحصر ، متقدمة ومقارنة ومتأخرة .

فإن من هو أدنى دعوة منه إذا كان كاذبًا ، لزم كذبه من اللوازم مايبين كذبه ، فكيف مثل هذا ؟ فإذا انتفت لوازم المكذب انتفى الملزوم .

وصدقه لازم لأمور كثيرة كلها تدل على صدقه ، وثبوت الملزوم يقتضى ثبوت اللازم ، ماضيه ومقارنه ومتأخره .

ومدعي النبوة لايخلو من الصدق أو الكذب ، وكل من الصدق والكذب له لوازم وملزومات ، فأدلة الصدق مستلزمة له ، وأدلة الكذب مستلزمة له ، والصدق له لوازم والكذب له لوازم .

فصدقه يعرف بنوعين : بثبوت دلائل الصدق المستلزمة لصدقه وبانتفاء لوازم الكذب الموجب انتفاؤها انتفاء كذبه .

كما أن كذب الكذاب يعرف بأدلة كذبه المستلزمة لكذبه ، وبانتفاء لوازم الصدق المستلزم انتفاؤها لانتفاء صدقه ، والله أعلم .

والشئ يعرف تارة بما يدل على ثبوته ، وتارة بما يدل على انتفاء نقيضه ، وهو الذي يسمى قياس الخلف .

فإن الشئ إذا انحصر في شيئين ، لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر ، ومن انتفاء أحدهما ثبوت الآخر .

ومدعي النبوة إما صادق ، وإما كاذب ، وكل منهما له لوازم . يدل انتفاؤها على انتفائه ، وله ملزومات ، يدل ثبوتها على ثبوته .

فدليل الشئ مستلزم له كأعلام النبوة ودلائلها ، وآيات الربوبية ، وأدلة الأحكام الشرعية وغير ذلك .

وإنتفاء الشي يعلم بما يستلزم نفيه كانتفاء لوازمه مثل صدق الكذاب .

يقال : لو كان صادقا ، لكان متصفًا بما يتصف به الصادقون .

وكذلك كذب الصادق يقال : لو كان كذابا لكان متصفًا بما يتصف به الكذاب فإنه قد عرف حال الأنبياء الصادقين والمتنبئين الكذابين ، فانتفاء لوازم الكذب ، دليل

صدقه ، كما أن ثبوت مايستلزم الصدق دليل صدقه .

وكذلك الكذاب يستدل على كذبه بما يستلزم كذبه ، وبانتفاء لوازم صدقه ، وهكذا سائر الأمور .

فصل

ومما ينبغي أن يعرف ماقد نبهنا عليه غير مرة ، أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إما شهادتها بنبوته ، وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله . وهو حجة على أهل الكتاب وعلى غير أهل الكتاب من أصناف المشركين والملحدين . كما ذكر الله هذا النوع من الآيات في غير موضع من كتابه .

كما في قوله تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ [الشعراء : ١٩٧] وقوله : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾ [يونس : ٩٤] وقوله : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [الرعد : ٤٣] وقوله : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ [الأنعام : ١١٤] وقوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ [البقرة : ١٤٦] وقوله : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لانؤمن بالله وماجاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ [المائدة : ٨٤] وقوله : ﴿ إن الذين أوتو العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، ذلك مثل قوله في التوراة ماقد ترجم بالعربية . « جاء الله من طور سينا » وبعضهم يقول في الترجمة : « تجلى الله من طور سينا وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » .

قال كثير من العلماء - واللفظ لمحمد بن قتيبة - ليس بهذا خفاء على من تدبر ولاغموض ، لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا ، كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح وكان المسيح من ساعير — أرض الخليل بقرية تدعى « ناصرة » – وباسمها سمي من اتبعه من نصارى .

وكما وجب أن إشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وجبال فاران هي جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة ، فإن ادعوا أنها غير مكة ، فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم .

قلنا : أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران ؟ وقلنا : دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه ، واسمه فاران والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح . أو ليس « استعلن » و « علن » هما بمعنى واحد ؟ وهو ما ظهر وانكشف .

فهل تعلمون ظهر دين ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه ؟ وقال أبو هاشم بن ظفر : « ساعير » جبل بالشام ، منه ظهرت نبوة المسيح قلت : وبجانب بيت لحم ، القرية التي ولد فيها المسيح ، قرية تسمى إلى اليوم ساعير ، ولها جبال تسمى ساعير .

وفي التوراة : أن نسل العيص كانوا سكانا بساعير ، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم .

وعلى هذا ، فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقًا ، جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه ، ومنه كان نزول أول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم وحوله من الجبال ، جبال كثيرة ، حتى قد قيل : إن بمكة اثنى عشر ألف جبل وذلك المكان

يسمى فاران ، إلى هذا اليوم ، وفيه كان ابتداء نزول القرآن .

والبرية التي بين مكة ، وطور سينا تسمى برية فاران ، ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه - بعد المسيح - نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبي .

فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو - سبحانه - ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزماني ، فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ، ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه .

وقال في الأول : جاء أو ظهر ، وفي الثاني : أشرق ، وفي الثالث : استعلن ، وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر ، أو ما هو أظهر من ذلك ، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ازداد به النور والهدى .

وأما نزول القرآن ، فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء ، ولهذا قال : واستعلن من جبال فاران ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ، ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها ، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين ، كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها ، ولهذا سماه الله سراجاً منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً

والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج ، فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت ، بل قد يتضررون به بعض الأوقات .

وأما السراج المنير ، فيحتاجون إليه في كل وقت ، وفي كل مكان ، ليلا ونهاراً ، سرّاً وعلانية .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « زويت لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها » (١) .

---

(١) « صحيح » من رواية ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه مسلم في كتاب « الفتن » باب « هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض » (٤ / ٢٢١٥ ، ٢٢١٦ ح ٢٨٨٦)

وهذه الأماكن الثلاث أقسم الله بها في القرآن في قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : ١ - ٨] .

فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التي ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح ، وأنزل عليه فيها الإنجيل ، وأقسم بطور سينا ، وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى ، وناداه من واديه الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، وأقسم بالبلد الأمين ، وهي مكة ، والبلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه ، وهو الذي جعله الله حرمًا آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، وجعله آمنًا ، خلقًا وأمرًا ، قدرًا وشرعًا ، فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله ، فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ ، [إبرهيم : ٣٧] ، قال تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ ، [البقرة : ١٢٥ ، ١٢٦] .

فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدًا آمنا ، واستجاب الله لدعاء إبراهيم ، وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد

= ورواه أبو داود في كتاب « الفتن » باب « ذكر الفتن ودلائلها »(١١ / ٣٢٢ - ٣٢٤ ح ٤٢٣٢)
ورواه الترمذي في كتاب « الفتن » باب « سؤال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثًا في أمته »
(٦ / ٣٩٨ - ٤٠٠ ح ٢٢٦٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ورواه ابن ماجه في كتاب « الفتن » باب « ما يكون من الفتن » (٢ / ١٣٠٤ ح ٣٩٥٢)

من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، [البقرة : ١٢٧ - ١٢٩] ، وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وذكر ذلك في غير موضع قال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ ، [آل عمران : ٩٦ ، ٩٧] ، وقال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم * رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ ، [سورة قريش : ١ - ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرمًا آمنا يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ، [القصص : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ ، [العنكبوت : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئًا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ ، [الحج : ٢٦ - ٢٩] ، قال تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات والأرض وأن الله بكل شئ عليم ﴾ ، [المائدة : ٩٧] .

فقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين ﴾ إقسام منه

بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة ، التي ظهر فيها نوره وهداه وأنزل فيها كتبه الثلاثة التوراة ، والإنجيل ، والقرآن .

كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله : جاء الله من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال « فاران » .

ولما كان ما في التوراة خبراً عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزماني فقدم الأسبق فالأسبق .

وأما القرآن ، فإن أقسم به تعظيمًا لشأنها ، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته ، وكتبه ، ورسله .

فأقسم بها على وجه التدريج ، درجة بعد درجة ، فختمها بأعلى الدرجات ، فأقسم أولا ، بالتين والزيتون ، ثم بطور سينا ثم بمكة ، لأن أشرف الكتب الثلاثة ، القرآن ، ثم التوراة ، ثم الإنجيل ، وكذلك الأنبياء .

فأقسم بها على وجه التدريج ، كما في قوله : ﴿ والذاريات ذرواً * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا ﴾ ، [الذاريات : ١-٤] .

فأقسم بطبقات المخلوقات ، طبقة بعد طبقة ، فأقسم بالرياح الذاريات ، ثم بالسحاب الحاملات للمطر ، فإنها فوق الرياح ، ثم بالجاريات يسراً .

وقد قيل : إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هى الكواكب المذكورة في قوله : ﴿ فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس ﴾ (التكوير : ١٥ - ١٦) ، فسماها جوارى كما سمى الفلك جوارى في قوله : ﴿ ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام ﴾ (الشورى : ٣٢) والكواكب فوق السحاب .

ثم قال : (فالمقسمات أمراً) وهى الملائكة ، التي هى أعلا درجة من هذا كله

وماذكر ابن قتيبة وغيره من علماء المسلمين ، من تربية إسماعيل في برية «

فاران » فهكذا هو في التوراة ، قال فيها : « وغدا إبراهيم فأخذ الغلام وأخذ خبزا وسقاء من ماء ، ودفعه إلى هاجر ، وحمله عليها ، وقال لها : اذهبى فانطلقت هاجر فضلّت في برية سبع ، ونفد الماء الذي كان معها ، فطرحت الغلام تحت شجرة وجلست في مقابلته على مقدار رمية سهم ، لئلا تبصر الغلام حين يموت ، ورفعت صوتها بالبكاء ، وسمع الله صوت الغلام ، فدعا ملك الله هاجر وقال لها : مالك ياهاجر ؟ لاتخشى فإن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو ، فقومى فاحملى الغلام ، وشُدّى يديك به ، فإنى جاعله لأمة عظيمة » .

وفتح الله عينها فبصرت بئر ماء ، فسقت الغلام وملأت سقاءها ، وكان الله مع الغلام فربى وسكن في برية « فاران » .

فهذا خبر الله في التوراة أن إسماعيل رُبّىَ وسكن في برية فاران ، بعد أن كاد يموت من العطش ، وأن الله سقاه من بئر ماء .

وقد علم بالتواتر واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربى بمكة ، وهو وأبوه إبراهيم بنيا البيت ، فعلم أن أرض مكة من فاران .

والله تعالى قد اخبر في القران في غير موضع بكون إسماعيل كان بمكة ، فقال عن الخليل ﴿ واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد امنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ، ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (إبراهيم : ٣٥ - ٣٧) .

وقال تعالى ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما، قال ومن ذريتيى قال لا ينال عهدي الظالمين واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي

للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (البقرة : ١٢٤ - ١٢٩) .

وهذه البشارة التي في التوراة لهاجر بإسماعيل ، وقول الله (إني جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جدا جدا) وإن هاجر فتحت عينها فرأت بئر ماء فدنت منها ، وملأت المزادة ، وشربت وسقت الصبي ، وكان الله معها ومع الصبي حتى تربى ، وكان مسكنه في برية « فاران » .

وفي موضع آخر قال عن إسماعيل ، إنه يجعل يده فوق أيدي الجميع .

ومعلوم باتفاق الأمم ، النقل المتواتر أن إسماعيل تربى بأرض مكة ، فعلم أنها (فاران) ، وأنه هو إبراهيم بنيا البيت الحرام الذي مازال محجوجا من عهد إبراهيم ، تحجه العرب ، وغير العرب من الأنبياء وغيرهم ، كما حج إليه موسى بن عمران ، ويونس بن متى ، كما في الصحيح (١) من رواية ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بوادي الأزرق بين مكة والمدينة ، فقال : « أي وادٍ هـذا ؟! » فقالوا : هذا وادي الأزرق ، فقال : « كأني أنظر إلى موسى صلى الله عليه وسلم هابطًا من الثنية واضعًا إصبعيه في أذنيه له جؤار إلى الله عز وجل في التلبية مارًا بهذا الوادي » قال : « ثم سرنا حتى أتينا على ثنية » فقال : « أي ثنية هذه ؟ » قالوا : هو شئ فقال (كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء ، عليه جبة

---

(١) « صحيح »

رواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات وفرض الصلاة » ، (١ / ١٥٢ ح ٢٦٨) ، (١ / ١٥٢ ، ١٥٣ ح ٢٦٩) ،ورواه ابن ماجه في كتاب « الحج » باب « الحج على الرحل » ، (٢ / ٩٦٥ ح ٢٨٩١)

صوف . خطام ناقته ليف خلبة، ماراً بهذا الوادي ملبيا).

وفي رواية :(١) (أما موسى فرجل آدم ،جعل علي جمل أحمر مخطوم بخلبة ليف)

ولما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، أوجب حجه على كل أحد، فحجت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها.

والبئر الذي شرب منها إسماعيل وأمه ، هي بئر زمزم ،وحديثها مذكور في صحيح البخاري (٢) ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقا ليعفي أثرها على سارة.

ثم جاء بها إبراهيم ،وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم ، في أعلا المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندها جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفا إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل ، فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ، ليس فيه إنس ولاشيء فقالت . له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها.

فقالت له :الله أمرك بهذا. قال : نعم ، قالت : إذا لا يضيعنا .

---

(١)هذه الرواية « لابن عباس »

رواه البخاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » ، باب قوله تعالى ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ (٦ / ٤٤٦-٤٤٧ ح ٣٣٥٥)

(٢) « صحيح »

رواه البخاري في كتاب « أحاديث الأنبياء » باب « يزفون : النسلان في المشي » ، (٦ / ٤٥٥ ح ٣٣٦٢ ، ٣٣٦٣) ، (٦ / ٤٥٦ - ٤٥٨ ح ٣٣٦٤) ، (٦ / ٤٥٨ ، ٤٥٩ ح ٣٣٦٥)

ورواه النسائي في الكبرى في « المناقب » باب « هاجر رضي الله عنها » (٥ / ١٠٠ ، ١٠١ ح ٨٣٧٩) ، (٥ / ١٠١ ، ١٠٢ ح ٨٣٨٠)

وفي لفظ : وتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء ،نادته من وراء : يا إبراهيم الى من تتركنا . قال : إلى الله ، قالت : رضيت بالله ، ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم حتي إذا كان عند البيت ، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، فقال :﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتي بلغ يشكرون ﴾ .(إبراهيم :٣٧)

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء وعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو قال : يتلبط، انطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر ، هل ترى أحدآ فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي ، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتي جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت ، هل ترى من أحد فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما .

فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتا، فقالت : صه، تريد نفسها ثم سمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله أم إسماعيل ،لو تركت زمزم)،أو قال « لو لم تغرف من الماء ، لكان زمزم عينا معينا » .

قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لايضيع أهله.وكان البيت مرتفعامن

الارض كالرابية، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أوأهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائرا عايفا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي ، وما فيه ماء، فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال : وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم ، ولكن لاحق لكم في الماء فقالوا نعم.

قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم « فألفي ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل .

فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ، يطالع تركته فلم يجده ، فسأل امرأته فقالت خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت بشر نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه.

قال : إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل :كأنه أنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد ؟

قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشئ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ، وقال تغير عتبة بابك قال ذاك أبي ، قد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك فطلقها .

ثم تزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم ماشاء الله ثم أتاهم بعد ، فلم يجده.

فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت خرج يبتغي لنا.قال كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله .

فقال : ما طعامكم ؟ قالت ؟ اللحم ، قال فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم ، دعى لهم فيه » قال : « فهما لا يخلو عنهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه" .

قال : فإذا جاء زوجك ، فاقرئي عليه السلام ، ومريه أن يثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال:هل أتاكم من أحد ؟

قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة واثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير.

قال : فأوصاك بشئ قالت نعم ، هو يقرأ عليك السلام ويقول لك أن تثبت عتبة بابك .

قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك .

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم .

فلما رآه ، قام إليه ، فصنع كما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد.

ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمر . قال فاصنع ما أمرك ربك، قال وتعينني ؟ قال : وأعينك .

قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها.

قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء ،جاء بهذا الحجر فوضعه له ،فقام عليه

وهويني ، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ﴿ (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ قال : فجعلا يبنيان ، حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (البقرة : ١٢٧)

وكانت بئر زمزم قد عميت ثم أحياها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم وصارت السقاية في ولده في العباس وأولاده ، يسقون منها ، ويسقون أيضا الشراب الحلو من ذلك سنة.

والله تعالى قال في إسماعيل :(اني جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جداً جداً)

وهذا التعظيم المؤكد بـ (جدا جدا) يقتضي أن يكون تعظيما مبالغا .

فلو قدر أن البيت الذي بناه لا يحج إليه أحد، وأن ذريته ليس منهم شئ، كما يقوله كفرة أهل الكتاب ، لم يكن هناك تعظيم مبالغًا فيه بجدا جدا ، إذا أكثر ما في ذلك أن يكون له ذرية.

ومجرد كون الرجل له نسل وعقب ، لا يعظم به إلا إذا كان في الذرية مؤمنون مطيعون لله.

وكذلك قوله (أجعله لأمة عظيمة) إن كانت تلك الأمة كافرة، لم تكن عظيمة، بل كان يكون أبا لأمة كافرة، فعلم أن هذه الأمة العظيمة ، كانوا مؤمنين ، وهؤلاء يحجون البيت .فعلم أن حج البيت مما يحبه الله ويأمر به.

وليس في أهل الكتاب إلا المسلمون ، فعلم أنهم الذين فعلوا ما يحبه الله ويرضاه، وأنهم وسلفهم كانوا يحجون البيت . أمة أثنى الله عليها ، وشرفها ، وأن إسماعيل عظمه الله جدا جدا بما جعل في ذريته من الإيمان والنبوة﴿ وهذا هو، كما امتن الله على نوح وإبراهيم بقوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتها النبوة والكتاب ﴾ (الحديد : ٢٦) وقال في الخليل

﴿ وجعلنا في ذريته النبوة و الكتاب ﴾ (العنكبوت : ٢٧) ولما قال في نوح ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ (الصافات : ٧٧)كان في ذريته أهل الإيمان كلهم.

فعلم بذلك أن إسماعيل وذريته معظمون عند الله ممدوحون وأن إسماعيل معظم جدا جدا ، كما عظم الله نوحا وإبراهيم .وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل.

لكن المقصود أن هذا التعظيم له ولذريته إنما يكون إذا كانت ذريته معظمة على دين حق وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت ، ولا يحج إليه بعد مجئ محمد غيرهم.

ولهذا لما قال تعالى ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينآ فلن يقبل منه ﴾ (آل عمران : ٨٥)

قالت اليهود أو بعض أهل الكتاب فنحن مسلمون قال الله تعالى ﴿ ولله علي الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ (آل عمران : ٩٧) فقالوا : لا نحج . فقال : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ (آل عمران : ٩٧)

وأيضا فهذا التعظيم المبالغ فيه ، الذي صار به ولد إسماعيل فوق الناس ، لم يظهر إلا بنبوة محمد فدل ذلك على أنها حق مبشر به .

ومثل هذا بشارة أخرى بمحمد صلى الله عليه وسلم من كلام شمعون بما رضوه من ترجمتهم وهو : جاء الله بالبينات من جبال فاران ،وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

فهذا تصريح بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالنبوة من جبال فاران وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

ولم يخرج أحد قط ؛ وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته ،

مما يسمى فاران سوى محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن المسيح لم يكن بأرض فاران ألبتة .

وموسى إنما كلم من الطور . والطور ليس من أرض فاران ، وإن كانت البرية التى بين الطور وأرض الحجاز من فاران .فلم ينزل الله فيها التوراة ؛وبشارات التوراة قد تقدمت بجبل الطور وبشارة الإنجيل بجبل ساعير. ومثل هذا مانقل عن نبوة حبقوق أنه قال :جاءالله من التمين ،

وظهر القدس على جبال فاران وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وملك بيمينه رقاب الأمم ، وأنارت الأرض لنوره ، وحملت خيله فى البحر .

ومن ذلك مافى التوراه التى بأيديهم فى السفر الأول منها ، وهى خمسة أسفارفي الفصل التاسع فى قصة هاجر ، لما فارقت سارة وخاطبها الملك فقال : ياهاجر من أين أقبلت وإلى أين تريدين ؟ .

فلما شرحت له الحال قال :ارجعى فإنى سأكثر ذريتك وزرعك حتى لايحصون ، وهاأنت تحبلين وتلدين ابنا تسمينه إسماعيل ، لأن الله قدسمع تذللك وخضوعك ، وولدك يكون وحى الناس ، ويكون يده فوق الجميع ، ويد الكل به ، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته.

قال المستخرجون لهذه البشارة : معلوم أن يد بنى إسماعيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن فوق أيدى بنى إسحاق ، بل كان فى بنى إسحاق النبوة والكتاب ، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب فلم يكن لبنى إسماعيل فوقهم يد ، ثم خرجوا منها لما بعث الله موسى ، وكانوا مع موسى أعز أهل الأرض ، لم يكن لأحد عليهم يد ، ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود ، وملك سليمان الذي لم يؤت أحد مثله ، وسلط عليهم بعد ذلك بخت نصر، فلم يكن لبني إسماعيل عليهم أمر، ثم بعث المسيح وخرب بيت المقدس الخراب الثاني ،

حيث أفسدوا في الأرض مرتين ، ومن حينئذ زال ملكهم وقطعهم الله في الأرض أمما ، وكانوا تحت حكم الروم والفرس والقبط ، ولم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم ، فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم ، لا أهل الكتاب ولا الأميين فلم يكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع حتى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الذي دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث قالا ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (البقرة :١٢٩)

فلما بعث ، صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع ، فلم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانهم ، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم ، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين .

فظهر بذلك تحقيق قوله في التوراة : (وتكون يده فوق الجميع ، ويد الكل به) وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر .

فإن قيل هذه بشارة بملكه وظهوره

قيل : الملك ملكان ، ملك ليس فيه دعوى نبوة ، وهذا لم يكن لبني إسماعيل على الجميع ، وملك صدر عن دعوى نبوة .

فإن كان مدعي النبوة كاذبا ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شئ ﴾ ، وهذا من شر الناس وأكذبهم وأظلمهم وأفجرهم ، وملكه شر من ملك الظالم الذي لم يدع نبوة كـ (بختنصر) وسنجاريب

ومعلوم أن الإخبار بهذا لا يكون بشارة، ولا تفرح سارة وإبراهيم بهذا كما لو قيل يكون جبارا طاغيا يقهر الناس على طاعته ، ويقتلهم ، ويسبي حريمهم ، ويأخذ أموالهم بالباطل) فإن الإخبار بهذا لا يكون بشارة ، ولا بشر المخبر بذلك ، وإنما يكون بشارة تسره إذا كان ذلك بعدل وكان علوه محمودا لا إثم فيه وذلك من

مدعي النبوة لا يكون إلا وهو صادق لا كاذب .

فصل

وقال داود في الزبور في قوله (سبحوا لله تسبيحا جديدا) وليفرح بالخالق من اصطفى الله له أمته وأعطاه النصر ، وسدد الصالحين منهم بالكرامة ، يسبحونه على مضاجعهم ، ويكبرون الله بأصوات مرتفعة ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه.

وهذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته،

فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في أذانهم للصلوات الخمس وعلى الأماكن العالية ، كما قال جابر بن عبد الله : (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علونا كبرنا ، وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك) رواه البخاري (١)

وفي صحيح مسلم (٢) ، عن عبدالله بن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قفل من الجيوش ، أو السرايا ، أو الحج ،أو العمرة . إذا أوفى على ثنية

---

(١) صحيح من رواية جابر بن عبد الله

رواه البخاري في كتاب « الجهاد » باب « التسبيح إذا هبط واديًا » (٦ / ١٥٧ ح ٢٩٩٣ ، ٢٩٩٤) ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « عمل اليوم والليلة » باب « ما يقول إذا انحدر من ثنية » (٦ / ١٣٩ ح ١٠٣٧٥ ، ١٠٣٧٦)

(٢) « متفق عليه »

رواه البخاري في كتاب « الجهاد » باب « التكبير إذا علا شرفًا » (٦ / ١٥٧ ، ١٥٨ ج ٢٩٩٥) ، ورواه مسلم في كتاب « الحج » باب « ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره » (٢ / ٩٨٠ ح ١٣٤٤) ، ورواه أبو داود في كتاب « الجهاد » باب « التكبير على كل شرف » (٧ / ٤٥٨ ح ٢٧٥٣) ورواه الترمذي في كتاب « الحج » باب « ما جاء ما يقول عند القفول من الحج والعمرة » (٤ / ٢١ ح ٩٥٧) وقال : «حسن صحيح » ، ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « عمل اليوم والليلة » باب « ما يقول إذا أوفى على ثنية » ، (٦ / ١٣٨ ح ١٠٣٧٣) ورواه أيضا برقم (١٠٣٧٤)

أو فَدْفَدٍ . كبر ثلاثا ، ثم قال : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده) .

وفي صحيح البخاري (١) عن أنس قال : (صلى رسول الله عليه وسلم ونحن معه بالمدينة الظهر أربعا ، والعصر بذي الحليفة ركعتين ، ثم بات بها حتي أصبح ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء ، حمد الله وسبح وكبر ،ثم أهل بعمرة وحج) وذكر الحديث .

وعن أبي هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني قال (عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف فلما أن ولى الرجل قال : (اللهم ا طو له البعد وهون عليه السفر) رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي (٢) .

وروى ابن ماجه (٣) عنه: « أوصيك بتقوى الله ، والتكبير على كل

---

(١) « متفق عليه »
رواه البخاري في كتاب « تقصير الصلاة » باب « تقصير إذا خرج من موضعه » (٢ / ٦٦٣ ح ١٠٨٩) ، ورواه أيضًا برقم (١٥٤٦ ، ١٥٤٧ ، ١٥٥١ ، ١٧١٢ ، ١٧١٤ ، ١٧١٥ ، ٢٩٥١ ، ٢٩٨٦) ، ورواه مسلم في كتاب « صلاة المسافرين وقصرها » ، باب « صلاة المسافرين وقصرها » (١ / ٤٨٠ ح ٦٩٠) ، ورواه أبو داود في كتاب « الحج » باب « في الإقران » (٥ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ ح ١٧٧٩) ،ورواه النسائي في كتاب « الصلاة » باب « المقام الذي يقصر بمثله الصلاة » (٣ / ١٢١) ورواه في الكبرى في نفس الموضع برقم (١٩١٠)
(٢) « حسن »
رواه الترمذي في كتاب « الدعوات » باب « ٤٧ » ، (٩ / ٤٠٦ ح ٣٥٠٨) وقال : « هذا حديث حسن » ورواه النسائي في الكبرى في « عمل اليوم والليلة » باب « ما يقول الشاخص » (٦ / ١٣٠ ح ١٠٣٣٩) ،(٢ / ٩٢٦ ح ٢٧٧١)
ورواه أحمد (٢ / ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٤٤٣ ، ٤٧٦)
(٣) رواه ابن ماجه في كتاب « الجهاد » باب « الحرس والتكبير في سبيل الله » (٢ / ٩٢٦ ح =

شـرف » .

وروى أبـو داود (١) وغـيره بإسناد صـحيح عن ابن عـمـر عن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : كان الـنبى صلى الله عليه وسلم وجـيوشـه إذا علَوا شرفـا كبّروا ، وإذا هبطوا ، سبّحوا .

وهم يكبرون الله بأصوات عالية مرتفعة في أعيادهم ، عيد الفطر ، وعيد النحر ، في الصلاة والخطبـة ، وفي ذهابهم إلى موضع الصلاة ، وفي أيام « مِنَى » الحـجاج وسائر أهل الأمصار يكبرون عقب الصلوات : فإمام الصلاة يسن له الحمد والتكبير .

وذكر البخارى (٢) عن عمر بن الخطاب : أنه كان يكبر في قبة بمنى ، فيسمعه أهل المسجـد فيكبرون بتكبيـره . فيسمـعهم أهل الأسواق فيكبـرون ، حتى ترتج مِنَى تكبيراً .

---

(١) «صحيح »
رواه أبو داود في كتاب « الجهاد ، باب « ما يقول الرجل إذا سافر » (٥ / ٢٥٩ ، ٢٦٠ ج ٢٥٨٢)
وقد ورد الحديث دون ذكر الشاهد
رواه مسلم في كتاب « الحج » باب « ما يقول إذا ركب الحج أو غيره » (٢ / ٩٧٨ ج ١٣٤٢)
ورواه الترمذي في كـتاب « الدعوات » باب « ما جـاء ما يقول إذا ركب دابة » (٩ / ٤٠٩ ، ٤١٠ ج ٣٥١٢) ، ورواه النسائي في الكبرى فـي كتاب « عمل اليوم والليلة » باب « إذا أقبل من السفر » (٦ / ١٤١ ج ١٠٣٨٢)
ورواه أيضًا في كتاب « التفسير » باب (١) تفسير سورة الزخرف » (٦ / ٤٥١ ج ١١٤٦٦)

(٢) ذكره البخاري معلقًا في كتاب « العيدين ، باب التكبير أيام منى » (٢ / ٥٣٤) وكذا ذكره البغوى في شرح السنة (٤ / ٣٠١)
وقال ابن حـجر في الفتح (٢ / ٥٣٥) : « وصلة سعيد بن منصور من رواية عبـيد .... ووصله أبو عبيـد من وجه بلفظ التعليق ، ومن طـــريقه البيهـقي » أهـ مختصـراً وانظر تغليق التعليق (٢ / ٣٧٨ ، ٣٧٩)

وقال (١) : وكان ابن عمر وابن عباس ، يخرجان إلى السوق أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما . ويكبرون على قرابينهم وهَدْيهم وضحاياهم ، كما كان نبيهم يقول عند الذبح (٢): « بسم الله والله أكبر » ويكبرون إذا رموا الجمار ، ويكبرون عند الصفا والمروة ، ويكبرون في الطواف عند محاذاة الركن ، وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير غير مايسرونه .

---

(١) ذكره البخاري معلقًا في كتاب « العيدين » باب « فضل العمل في أيام التشريق » (٢ / ٥٣٠) « وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان .....»

فهذا الأثر ليس فيه ابن عباس ، ولكن ذكر ابن عباس قبله !

وقال الحافظ في الفتح (٢ / ٥٣١) عن هذا الأثر : « لم أره موصولاً عنهما ، وقد ذكره البيهقي أيضًا معلقًا عنهما وكذا البغوي » والأثر في شرح السنة للبغوي (٤ / ٣٠١) بصيغة التمريض . وانظر تغليق التعليق (٢ / ٣٧٧ ، ٣٧٨) ، وانظر أثرًا عن ابن عمر في السنن الكبرى للبيهقي (٣ / ٢٧٩)

(٢) « متفق عليه » عن أنس بن مالك

رواه البخاري في كتاب « الأضاحي » باب « من ذبح الأضاحي بيده » (١٠ / ٢٠ ح ٥٥٥٨)

ورواه أيضًا برقم (٥٥٦٥ ، ٧٣٩٩)

ورواه مسلم في كتاب « الأضاحي » باب « استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل والتسمية والتكبير » (٣ / ١٥٥٦ - ١٥٥٧ ح ١٩٦٦)

ورواه أبو داود في كتاب « الأضاحي » باب « ما يستحب من الضحايا » (٧ / ٤٩٦ ح ٢٧٧٧)

ورواه الترمذي في كتاب « الأضاحي » باب « في الأضحية بكبشين » (٥ / ٧٦ ح ١٥٢٧) وقال : « وهذا حديث حسن صحيح » وفي الباب عن علي وعائشة وأبي هريرة وجابر وأبي أيوب وأبي الدرداء وأبي رافع وابن عمر وأبي بكرة

ورواه النسائي في كتاب « الضحايا » باب « وضع الرجل على صفحة الضحية » (٧ / ٢٣٠) وباب « تسمية الله عز وجل على الضحية » (٧ / ٢٣٠) ، وباب « التكبير عليها » (٧ / ٢٣٠ ، ٢٣١)

وباب « ذبح الرجل أضحيته بيده » (٧ / ٢٣١)

ورواه ابن ماجه في كتاب « الأضاحي » باب « أضاحي رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢ / ١٠٤٣ ح ٣١٢٠)

قال تعالى لما ذكر صوم رمضان الذي يقيمون له عيد الفطر : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون ﴾ (البقرة : ١٨٥) وقال – لما ذكر الهدى الذي يقرب في عيد النحر ، وهو يوم الحج الأكبر قال – : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون * لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين ﴾ ، [الحج ٣٦ ، ٣٧] والنصارى يسمون عيد المسلمين « عيد الله الأكبر » لظهور التكبير فيه ، وليس هذا لأحد من الأمم ، لا أهل الكتاب ، ولا غيرهم من المسلمين ، وإنما كان موسى يجمع بنى إسرائيل بالبوق ، والنصارى شعارهم الناقوس .

وأما تكبير الله بأصوات مرتفعة ، فإنما هو شعار المسلمين ، فإن الاذان شعار المسلمين ، وبهذا يظهر تقصير من فسر ذلك بتلبية الحجاج .

وفي الصحيحين (١) عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا غزا أقوامًا ، لم يغز حتى يصبح ، فإن سمع أذانًا أمسك ، وإن لم يسمع أذانا أغار بعدما يصبح » .

وفي لفظ مسلم (٢) : « كان يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان ، فإن

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخاري في كتاب « الأذان » باب « ما يحقن بالأذان من الدماء » (٢ / ١٠٧ ح ٦١٠)

ورواه مسلم في كتاب « الصلاة » باب « الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان » (١ / ٢٨٨ ح ٣٨٢)

ورواه أبو داود في كتاب « الجهاد » باب « في دعاء المشركين » (٧ / ٢٩٧ ح ٢٦١٧)

ورواه الترمذي في كتاب « السير » باب « ما جاء في وصية النبي صلى الله عليه وسلم في القتال » (٥ / ٢٤٥ ، ٢٤٦ ح ١٦٦٨)

(٢) انظر : مسلم (١ / ٢٨٨ ح ٣٨٢)

سمع أذان أمسك وإلا أغار) فسمع رجلا يقول : الله أكبر الله أكبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (على الفطرة) ثم قال : (أشهد أن لا إله إلا الله) فقال : خرجت من النار) .

وعن عصام المزني قال (١) : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث السرية يقول : (إذا رأيتم مسجدًا أو سمعتم مناديًا فلاتقتلوا أحدًا) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

وكذلك قوله : (بأيديهم سيوف ذات شفرتين) وهي السيوف العربية التي بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد .

وقوله : (يسبحون على مضاجعهم) بيان لنعت المؤمنين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويصلى الفرض أحدهم قائمًا ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع ، فعلى جنب ، فلايتركون ذكر الله في حال ، بل يذكرونه حتى في هذه الحال ، ويصلون في البيوت على المضاجع . بخلاف أهل الكتاب .

والصلاة أعظم التسبيح كما في قوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾ (الروم : ١٧ - ١٨) .

---

(١) (صحيح)

رواه أبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في دعاء المشركين) (٧ / ٢٩٧ ، ٢٩٨ ح ٢٦١٨)

ورواه الترمذي في كتابه (السير) باب (٢) ، (٥ / ١٥٥ ج ١٥٨٩) وقال : (هذا حديث حسن غريب وهو من حديث ابن عيينه) اهـ

ورواه النسائي في الكبرى في كتاب (السير) باب (توجيه السرايا) (٥ / ٢٥٨ ح ٨٨٣١)

ورواه أيضًا في باب (بما يؤمرون) (٥ / ٢٦٠ ح ٨٨٣٨)

ورواه أحمد (٣/ ٤٤٨)

وقـــوله : ﴿ وسبح بـحـمـــد ربـك قبـــل طـــلوع الشمـــس وقـبل غروبـهـا ﴾ (طـه : ١٣٠) .

وفي الصحيحين (١) عن جرير بن عبدالله قال : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لاتضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴿ وَمِنْ آناءِ الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ وهذا معنى قول داود : سبحوا الله تسبيحا جديداً يعنى التسابيح التي شرعها الله جديداً ، كالصلوات الخمس التى شرعها للمسلمين جديدا .

ولما أقامها جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم قال : « هذا وقتك ، ووقت الأنبياء قبلك » .

فكان الأنبياء يسبحون في هذه الأوقات ، وذلك هو التسبيح المتقدم ، والتسبيح الجديد للمسلمين كما يدل عليه سائر الكلام .

---

(١) « متفق عليه »

رواه البخاري في كتاب « مواقيت الصلاة » باب « فضل صلاة العصر » (٢ / ٤٠ ح ٥٥٤)

ورواه أيضاً برقم (٥٧٣ ، ٤٨٥١ ، ٧٤٣٤ ، ٧٤٣٥ ، ٧٤٣٦)

ورواه مسلم في كتاب « المساجد ومواضع الصلاة » باب « فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما » (١ / ٤٣٩ ، ٤٤٠ ح ٦٣٣)

ورواه أبو داود في كتاب« السنة » باب « في الرؤية » (١٣ / ٥١ -٥٣ ح ٤٧٠٣) ورواه الترمذي في كتاب « صفة الجنة » باب « ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى » (٧ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ ح ٢٦٧٥)

ورواه النسائي في الكبرى في كتاب « التفسير » بلب « تفسير قوله تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ (٦ / ٤٠٧ ح ١١٣٣٠)

ورواه أيضاً برقم (١١٥٢٣ ، ١١٥٢٤)

ورواه ابن ماجه في « المقدمة » باب « فيما أنكرت الجهمية » (١ / ٦٣ ح ١٧٧)

ولايمكن أن يكون ذلك للنصارى ، لأنهم لايكبرون الله بأصوات مرتفعة ، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، ليتنقم الله بهم من الأمم ، بل أخبارهم تدل على أنهم كانوا مغلوبين مع الأمم ، ولم يكونوا يجاهدونهم بالسيف ، بل النصارى قد تعيب من يقاتل الكفار بالسيف .

ومنهم من يجعل هذا من معايب محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ويغفلون عما عندهم من أن الله أمر موسى بقتال الكفار ، فقاتلهم بنو إسرائيل بأمره ، وقاتلهم يوشع وداود وغيرهما من الأنبياء ، وإبراهيم الخليل قاتل ، لدفع الظلم عن أصحابه .

فصـــل

قالوا : وقال داود في مزاميره - وهي الزبور - : من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد - أيها الجبار - بالسيف لأن البهاء لوجهك ، والحمد الغالب عليك اركب كلمة الحق وسمه التأله ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة لهيبة بيمينك وسهامك مسنونة والأمم يخرون تحتك .

قالوا : فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود سوى محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي خرّت الأمم تحته ، وقرنت شرائعه بالهيبة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر » .

وقد أخبر داود أن له ناموسًا وشرائع وخاطبه بلفظ الجبار ، إشارة إلى قوته وقهره لأعداء الله بخلاف المستضعف المقهور .

وهو صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ونبى الملحمة وأمته أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين .

بخلاف من كان ذليلا للطائفتين ، من النصارى المقهورين مع الكفار أو كان عزيزًا على المؤمنين من اليهود ، بل كان مستكبرًا كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا .

فصل

قالوا : وقال داود في مزمور له : « إن ربنا عظيم محمود جدًا » وفي ترجمة إلهنا قدوس ، ومحمد قد عم الأرض كلها فرحًا .

قالوا : فقد نص داود على اسم محمد وبلده وسماها قرية الله ، وأخبر أن كلمته تعم الأرض كلها .

قلت : قد تقدم الحديث الصحيح (١) لما قيل لعبد الله بن عمرو ، وروى أنه عبدالله بن سلام في غير البخارى (٢) « أَخْبِرْنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة » فقال : « إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن » وذكر صفته موجودة في نبوة أشعياء ، وليست موجودة في نفس كتاب موسى .

وتقدم أن لفظ التوراة يقصدون به جنس الكتب التى عند أهل الكتاب .

وكذلك مايوجد كثيراً من قول كعب الأحبار وغيره ، ممن ينقل عن أهل الكتاب : قرأت في التوراة ، إنما يريدون به جنس الكتاب الذي عند أهل الكتاب ، لايخصون بذلك كتاب موسى .

وإذا كان هذا معروفا عندهم ، وقد خوطبوا بهذه اللغة فإن قوله تعالى في القرآن ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف : ١٥٧)يراد بالتوراة جنس الكتب التي عند أهل الكتاب ، فيتناول ذلك كتاب موسى ، وزبور داود ، وصحف سائر الأنبياء ، سوى الإنجيل ، فإنه ليس عند أهل الكتاب ، وإنما هو عند

---

(١) « صحيح » رواه البخارى ، وقد تقدم تخريجه (٢٩٣/٣)

(٢) أشار إلى ذلك البخاري عقب رواية عبدالله بن عمرو
رواه الدارمي في سننه في « المقدمة » باب « صفة النبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه » (١٦/١ح٦) وعزاه الحافظ في « الفتح » (٤٠٣/٤) إلى يعقوب بن سفيان في تاريخه والطبراني ، وأيضا ابن سعد من طريق آخر، وله شاهد ضعيف عند الترمذي (٨٦/١٠ : ٨٧ح٣٦٩٦) وقد ورد نحوه عن كعب عند الدارمي ، وانظر « المشكاة »(١٦٠٦/٣ : ١٦٠٧ح٥٧٧١)

النصارى خاصة ، وأما سائر كتب الأنبياء ، فالأمتان يقرّان بها ويؤيد ذلك أن الله كثيرا مايقرن في القرآن بين التوراة والإنجيل وإنما يذكر الزبور مفردا كقـــوله تعالى ﴿ الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ ، [آل عمران : ١-٤] وقوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ (التوبة :١١١) وقوله تعالى ﴿ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ (الأعراف : ١٥٧) وأهل الكتاب يجدونه مكتوبا في الكتب التي بأيديهم ، وهو في كثير منها أصرح مما هو في كتاب موسى خاصة .

فإذا أريد بالتوراة جنس الكتب ، فلايستريب عاقل في كثرة ذكره ونعته ونعت أمته في تلك الكتب .

ومعلوم أن الله أراد بذلك الاستشهاد بوجوه في تلك الكتب ، وإقامة الحجة بذكره فيها .

فإذا كان ذكره في غير كتاب موسى أكبر وأظهر عندهم ، كان الاستدلال بذلك أولى من تخصيص الاستدلال بكتاب موسى .

فإذا حمل لفظ التوراة في هذا على جنس الكتب ، كما هو موجود في لغة من تكلم بذلك من الصحابة والتابعين ، كان هذا في غاية البيان والمدح للقرآن والكتب المتقدمة ، وتصديق بعضها بعضاً .

وقد أمرنا أن نؤمن بما أوتى النبيون مطلقًا كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موســـى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٦] وقال : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر

والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ [البقرة : ١٧٧] والزبور ذكره مفردًا في موضعين من القرآن في قوله : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ﴾ [النساء : ١٦٣ - ١٦٤] وقال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾ [الإسراء : ٥٥] فذكره مفرداً .

وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة ، لابلفظ التوراة في غير موضع فقال : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ [هود : ١٧] وقال ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين ﴾ [الأحقاف : ١٠] إلى قوله : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ [الأحقاف : ١٢] وقال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شئ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ﴾ [الأنعام : ٩١] .

وقال تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن ﴾ [الأنعام : ١٥٤] .

وإذا كان لفظ التوراة يتناول الكتب التى عند أهل الكتاب جميعًا ، وغيره داخل في هذا الاسم ، كان ظهور اسمه ونعته في التوراة ووجودهم ذلك فيما عندهم وتكرره في غاية القوة ، وكان معرفتهم لذلك ، كما يعرفون أبناءهم واضحًا بينًا ، وإن قدر أن هذه الكتب التي يعترف بها عامتهم لم يكتم منها بل هي باقية كما كانت .

فصـل

وقالوا : قال داود في مزموره « لترتاح البوادي وقراها ، ولتصر أرض « قيذار » مروجًا ، وليسبح سكان الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب ، ويذيعوا تسابيحه في الجزائر » .

قالوا : فلمن البوادي من الأمم سوى أمة محمد ، ومن « قيذار » سوى ابن إسماعيل جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ومن سكان الكهوف وتلك الجبال سوى العرب ؟

فصـل

وقالوا : وقال داود في مزمور له « ويجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض ، وبحر أهل الجزائر بين يديه ، ويلحس أعداؤه التراب ، ويسجد له ملوك الفرس ، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ، ويخلص البائس المضطهد ممن هو أقوى منه ، وينقذ الضعيف الذي لاناصر له ؛ ويرأف بالمساكين والضعفاء ، ويُصلَّى عليه ويبارك في كل حين » .

وهذه الصفات منطبقة على محمد وأمته ، لاعلى المسيح .

فإن محمدًا جاز من البحر الرومىّ إلى البحر الفارسى ، ومن لدن الأنهار ، كسيحون وجيحون ، إلى منقطع الأرض بالمغرب ، كما قال : « زُوِيَت لي الأرض ، مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى مازُوِيَ لى منها » (١) .

وهو يصلى عليه ويبارك في كل حين ، في كل صلاة من الصلوات الخمس وغيرها ، يقول كل من أمته : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، فيصلى عليه ويبارك .

وقد خرت أهـــل الجزائر بين يديه ، وأهل جزيرة العرب وأهل الجزيرة التى بين

---

(١) تقدم ص (٣١٧)

الفرات ودجلة ، وأهل جزيرة قبرص ، وأهل جزائر الأندلس .

وخضعت له ملوك الفرس ، فلم يبق منهم إلا من أسلم أو أدّى الجزية على يدٍ وهم صاغرون ، بخلاف ملوك الروم ، فإن فيهم من لم يسلم ويؤدى الجزية . فلهذا خص ملوك فارس ودانت له الأمم .

فعامة الأمم التى تعرفه وتعرف أمته ، كانت إما مؤمنة به أو مسلمة له منافقة ، أو مهادنة مصالحة ، أو خائفة منهم ، وأنقذ الضعفاء من الجبارين .

وهذا بخلاف المسيح ، فإنه لم يتمكن هذا التمكن في حياته ، ولامَن اتبعه بعد موته تمكنوا هذا التمكن ولاجازوا ماذكر ، ولاصُلِّيَ عليه وبورك عليه في اليوم والليلة ، فإن النصارى يدّعُون إلهية المسيح ، فلايصلون عليه ، وإنما يصلون له .

فصـــل

وقالوا في نبوة أشعياء : قال أشعياء : « فقيل لي : قم نظاراً ، فانظر ماذا ترى ، فقلت : أرى راكبين مقبلين ، أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل وأصحابها للمنحر » .

قالوا : فراكب الحمار هو المسيح ، وراكب الجمل هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار .

وبمحمد صلى الله عليه وسلم سقطت بابل .

فصـــل

ومما ينبغى أن يعرَف : أن الكتب المتقدمة بشّرَت بالمسيح ، كما بشّرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أنذرت بالمسيح الدجال .

والأمم الثلاثة – المسلمون واليهود والنصارى – متفقون على أن الأنبياء أنذرت

بالمسيح الدجال وحذرت منه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح (١) : « مامن نبى إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال ، حتى نوح أنذر أمته وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لأمته : إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه ك ف ر ، [يقرأه كل مؤمن قارى وغير قارى] (٢) .

والأمم الثلاثة متفقون على أن الأنبياء بشروا بمسيح من ولد داود .

فالأمم الثلاثة متفقون على الإخبار بمسيح هدًى من نسل داود ، ومسيح ضلالة وهم متفقون على أن مسيح الضلالة لم يأت بعد ، وسيأتى ، ومتفقون على أن مسيح الهدى سيأتى .

ثم المسلمون واليهود والنصارى متفقون على أن مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم ، واليهود ينكرون أن يكون هو عيسى ابن مريم مع إقرارهم بأنه من ولد داود .

قالوا : « لأن المسيح المبشّر به تؤّمن به الأمم كلها » وزعموا أن المسيح ابن مريم إنما بعث بدين النصارى ، وهو دين ظاهر البطلان ، ولهذا إذا خرج المسيح الدجال اتبعوه ، فيخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان (٣) .

ويسلط المسلمون على اليهود، فيقتلونهم حتى يقول الحجر والشجر (٤):

---

(١) « متفق عليه » من رواية أنس

رواه البخاري في كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال» (١٣ / ٩٧ ح ٧١٣١) ورواه أيضًا برقم (٧٤٠٨) ، ورواه مسلم في كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال وصفة ما معه » (٤ / ٢٢٤٨ ح ٢٩٣٣) ، ورواه أبو داود في كتاب « الملاحم » باب « خروج الدجال » (١١ / ٤٤٠ ح ٤٢٩٤) ورواه الترمذي في كتاب « الفتن » باب « ٥٣ » (٦ / ٥١٤ ح ٢٣٤٦)

(٢) وردت هذه الزيادة عند « مسلم » بلفظ « يقرءوه كل مسلم » عن أنس في نفس الموضوع السابق (٤ / ٢٢٤٨) ، ووردت عند « مسلم » بلفظ « يقرءوه كل مؤمن كاتب وغير كاتب » وفي نفس الموضع (٤ / ٢٢٤٩) ، ووردت أيضًا عند ابن ماجه في كتاب « الفتن » باب « فتنة الدجال ... » عن أبي أمامة (٢ / ١٣٥٩ ح ٤٠٧٧)

(٣) رواه مسلم في كتاب « الفتن » باب « في بقية من أحاديث الدجال » (٤/٢٢٦٦ح٢٩٤٤)

(٤) « متفق عليه» من حديث ابن عمر ، رواه البخاري في كتاب « الجهاد » باب « قتال اليهود » (٦/١٢١ح٢٩٢٥) ، ورواه أيضا برقم (٣٥٩٣) ، ورواه مسلم في كتاب « الفتن » باب « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل .. » (٤/٢٢٣٨: ٢٢٣٩ح٢٩٢١) ، ورواه الترمذي في كتاب « الفتن » باب « ما جاء في الدجال » (٦/٤٩٤ح٢٢٣٧) ، وفي الباب عن أبي هريرة وهو « متفق عليه » أيضا

« يامسلم هذا يهودى ورائى ، تعالى فاقتله » كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح .

والنصارى يقرون بأن المسيح مسيح الهدى بُعِث ويقرون أنه سيأتى مرة ثانية ، لكن يزعمون أن هذا الإتيان الثانى ، هو يوم القيامة ، ليجزى الناس بأعمالهم ، وهو - في زعمهم - هو الله ، والله الذي هو اللاهوت ، يأتي في ناسوته ، كما زعموا أنه جاء قبل ذلك .

وأما المسلمون ، فآمنوا بما أخبرت به الأنبياء على وجهه ، وهو موافق لما أخبربه خاتم الرسل حيث قال في الحديث الصحيح (١) : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلا ، وإمامًا مقسطًا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية » .

وأخبر في الحديث الصحيح (٢) أنه إذا خرج مسيح الضلالة الأعور الكذاب ،

---

(١) « متفق عليه »
رواه البخاري في كتاب « البيوع » باب « قتل الخنزير » (٤ / ٤٨٣ ح ٢٢٢٢)
ورواه أيضًا برقم (٢٤٧٦ ، ٣٤٤٨ ، ٣٤٤٩)
ورواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب « نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم » (١ / ١٣٥ ، ١٣٦ ح ١٥٥)
ورواه الترمذي في كتاب « الفتن » باب « ما جاء في نزول عيسى بن مريم » (٦ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ ح ٢٢٣٤)
ورواه ابن ماجه في كتاب « الفتن » باب « فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم » (٢ / ١٣٦٣ ح ٤٠٧٨)
(٢) هذا جزء من حديث طويل ورد عن طريق « النواس بن سمعان » صحيح .
رواه مسلم في كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال وصفة ما معه » (٤ / ٢٢٥٠ - ٢٢٥٥ ح ٢٩٣٧)
ورواه أبو داود في كتاب « الملاحم » باب « خروج الدجال » (١١ / ٤٤٥ - ٤٤٧ ح ٤٢٩٩)
ورواه الترمذي في كتاب « الفتن » باب « ما جاء في فتنة الدجال » (٦ / ٤٩٩ - ٥٠٨ ح ٢٣٤١)
وقال : « هذا حديث حسن غريب حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ...١ هـ

نزل عيسى ابن مريم على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهروذتين واضعاً يديه على منكبي ملكين ، فإذا رآه الدجال إنماع كما ينماع الملح في الماء ، فيدركه فيقتله بالحربة ، عند باب لُد الشرقيّ ، على بضع عشرة خطوة منه ، وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ [النساء : ١٥٩] أي يؤمن بالمسيح قبل أن يموت ، حين نزوله إلى الأرض ، وحينئذ لايبقى يهودى ولانصرانى ، ولايبقى دين إلا دين الإسلام ، وهذا موجود في نعته عند أهل الكتاب .

ولكن النصارى ظنوا أن ذلك مجيئه بعد قيام القيامة ، وأنه هو الله ، فغلطوا في ذلك كما غلطوا في مجيئه الأول . حيث ظنوا أنه هو الله .

واليهود أنكروا مجيئه الأول ، وظنوا أن الذي بُشِّرَ به ليس هو إياه ، وليس هو الذي يأتى آخراً ، وصاروا ينتظرون غيره ، وإنما هو بعث إليهم أولاً فكذبوه ، وسيأتيهم ثانياً ؛ فيؤمن به كل من على وجه الأرض من يهودى ونصرانى ، من قتل أو مات ، ويظهر كذب هؤلاء الذين كذبوه ، ورموا أمه بالفرية ، وقالوا : إنه ولد زنا وهؤلاء الذين غلَوْا فيه وقالوا : إنه الله .

ولما كان المسيح عليه السلام نازلا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، صار بينه وبين محمد من الاتصال ، ماليس بينه وبين غير محمد ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح (١) « إن أولى الناس بابن مريم لأنا ، إنه ليس

ورواه النسائي في الكبرى مختصراً في كتاب «فضائل القرآن» باب «سورة الكهف» (٥ / ١٠ ح ٨٠٢٤)

ورواه أيضاً برقم (١٠٧٨٣)

ورواه ابن ماجه في كتاب «الفتن» باب «فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم ...» (٢ / ١٣٥٦ - ١٣٥٩ ح ٤٠٧٥)

(١) «متفق عليه»

رواه البخاري في كتاب «أحاديث الأنبياء» باب قوله تعالى «واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها» سورة مريم الآية ١٦ ، (٦ / ٥٥٠ ح ٣٤٤٢)

ورواه مسلم في كتاب «الفضائل» باب «فضائل عيسى عليه السلام» (٤ / ١٨٣٧ ح ٢٣٦٥) =

بيني وبينه نبي » .

وروي (١) : « كيف تهلك أمة أنا في أولها ، وعيسى في آخرها » .

وهذا مما يظهر به مناسبة اقترانهما فيما رواه أشعيا حيث قال : « راكب الحمار وراكب الجمل » .

فصـــل

قالوا : وقال أشعيا النبي عليه السلام مثنيًا على مكة شرفها الله : « ارفعي إلى ماحولك بصرك ، فستبتهجين وتفرحين من أجل أن يصير إليك ذخائر البحرين ، وتحج إليك عساكر الأمم ، حتى يعم بك قطر الإبل المؤبلة ، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك ، وتساق إليك كباش مدين ، ويأتيك أهل سبأ ، ويسير إليك أغنام فاران ، ويخدمك رجال مأرب » يريد سدنة الكعبة وهم أولاد مأرب بن إسماعيل .

قالوا : فهذه الصفات كلها حصلت بمكة ، فحملت إليها ذخائر البحرين ، وحج إليها عساكر الأمم ، وسيقت إليها أغنام فاران - الهدايا والأضاحي - و « فاران » هي البرية الواسعة التي فيها مكة ، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل المؤبلة الحاملة للناس ، وأزوادهم إليها ، وأتاها أهل سبأ ، وهم أهل اليمن .

فصـــل

قالوا : وقال أشعياء للنبي صلى الله عليه وسلم معلنًا باسم رسول الله صلى

=ورواه أبو داود في كتاب « السنة » باب « في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام » (١٢ / ٤٣١ ، ٤٣٢ ح ٤٦٥٠)

(١) ضعفه المناوي في فيض القدير (٥ / ٣٠١) وعزاه لأبي نعيم في أخبار المهدي عن ابن عباس .
وقال الألباني في « ضعيف الجامع » (صـ ٦٩٠ ح ٤٧٨٠): « موضوع » وعزاه لأبي نعيم في « أخبار المهدي »

الله عليه وسلم: « إني جعلت أمرك محمداً ، يامحمد ياقدوس الرب ، اسمك موجود من الأبد » .

قالوا : فهل بقى بعد ذلك لزائغ مقال ، أو لطاعن مجال ؟

وقول أشعياء : إن اسم محمد موجود من الأبد ، موافق لقول داود الذي حكيناه أن اسمه موجود قبل الشمس .

وقوله : « ياقدوس الرب » يعنى يامن طهره الرب ، وخلصه من شوائب بشريته واصطفاه لنفسه .

فصل

قالوا : وقال أشعياء « وشهد لهذه الأمة بالصلاح والديانة ، سأرفع علمًا لأهل الأرض بعيداً ، فيصفر لهم من أقاصى الأرض ، فيأتون سراعًا » .

والنداء ، هو ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، من التلبية في الحج ، وهم الذين جعلوا لله الكرامة ، فوحّدوه وعبدوه ، وأفردوه بالربوبية ، وكسروا الأصنام ، وعطلوا الأوثان .

والعلم المرفوع ، هو النبوة ، وصفيره : دعاؤهم إلى بيته ومشاعره ، فيأتونه سامعين مطيعين .

فصل

قالوا : وقال أشعياء النبى والمراد مكة ، شرفها الله تعالى « سيرى واهتزى أيتها العاقر ، التي لم تلدى ، وانطقى بالتسبيح ، وافرحى إذا لم تحبلى . فإن أهلك يكونون أكثر من أهلى » – يعنى بأهله بيت المقدس – ويعنى بالعاقر مكة شرفها الله – لأنها لم تلد قبل نبينا عليه السلام .

ولايجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس ، لأنه بيت للأنبياء ، ومعدن الوحى ،

فلم تزل تلك البقعة ولادة .

فصــل

قالوا : وقال أشعياء النبي ونص على خاتم النبوة « وُلِدَ لنا غلام ، يكون عجبًا وبشرًا ، والشامة على كتفيه ، أركون السلام ، إله جبار ، وسلطانه سلطان السلام ، وهو ابن عامله ، يجلس على كرسى داود » .

قالوا : الأركون ، هو العظيم بلغة الإنجيل ، والأراكنة المعظمون .

ولما أبرأ المسيح مجنونا من جنونه ، قال اليهود : « إن هذا لايخرج الشياطين من الآدميين إلا بأركون الشياطين » يعنون عظيمهم .

وقال المسيح في الإنجيل : « إن أركون هذا العالم يدان » يريد إما إبليس أو الشرير العظيم الشر من الآدميين ، وسماه إلهًا على نحو قول التوراة « إن الله جعل موسى إلهًا لفرعون » أى حاكما عليه ومتصرفًا فيه ، وعلى نحو قول داود للعظماء من قومه : « إنكم آلهة » .

فقد شهد أشعياء بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووصفه بأخص علاماته وأوضحها ، وهي شامته ، فلعمرى لم تكن الشامة لسليمان ولا للمسيح ، وقد وصفه بالجلوس على كرسى داود ، يعنى أنه سيرث بنى إسرائيل ، نبوتهم وملكهم ، ويبتزهم رياستهم .

فصــل

قالوا : وقال أشعياء في وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم : « ستمتلئ البادية والمدن من أولاد قيذار ، يسبحون ، ومن رؤوس الجبال ينادون ، هم الذين يجعلون لله الكرامة ، ويسبحونه في البر والبحر » .

قلت : وقيذار ، هو ابن إسماعيل باتفاق الناس ، وربيعة ومضر من ولده ،

ومحمد صلى الله عليه وسلم من مضر .

وهذا الامتلاء والتسبيح في البر والبحر ، لم يحصل لهم إلا بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، والتسبيح الصلوات الخمس ، وقد جعلت لهم الأرض مسجداً وطهوراً ، فهم يصلون الخمس في البر والبحر .

فصل

قالوا : وقال أشعياء ، والمراد مكة : « أنا رسمتك على كفي ، وسيأتيك أولادك سراعا ، ويخرج عنك من أراد أن يخيفك ويخربك ، فارفعي بصرك إلى ماحولك ، فإنهم سيأتونك ويجتمعون إليك ، فتسمى باسمى إنى أنا الحى ، لتلبسى الحلل ، وتزينى بالإكليل مثل العروس ، ولتضيقن خراباتك من كثرة سكانك والداعين فيك ، وليهابن كل من يناويك ، وليكثرن أولادك حتى يقول : من رزق هؤلاء كلهم ؟ وأنا وحيدة فريدة ، يرون رقوب ، فمن ربى لى هؤلاء ، ومن تكفل لى بهم ؟ »

قالوا : وذلك إيضاح من أشعياء بشأن الكعبة ، فهى التى ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة ، ووكل بخدمتها الخلفاء والملوك ، ومكة هي التى بارك الله لها الأولاد من حجاجها ، والقاطنين بها .

قلت : وذلك أن مكة هي التى أخرج عنها كل من أراد أن يخيفها ويخربها ، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة ، لم يهنها أحد من البشر قط ، بل أصحاب الفيل لما قصدوها ، عذبهم الله العذاب المشهور ، ولم تزل عامرة محجوجة ، من لدن إبراهيم الخليل .

بخلاف بيت المقدس ، فإنه قد أخرب مرة بعد مرة ، وخلا من السكان واستولى العدو عليه وعلى أهله ، وكذلك إخباره بإهانة كل من يناويها ، هو للكعبة دون بيت المقدس كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

أليم ﴾ . [الحج : ٢٥]

والحجاج بن يوسف كان معظمًا للكعبة لم يرمها بمنجنيق ، وإنما قصد ابن الزبير خاصة . وأما كثرة أولادها ، وهم الذين يحجون إليها أو يستقبلونها في صلاتهم ، فهم أضعاف أضعاف أولاد بيت المقدس .

فصل

قالوا : وقال أشعياء – حاكيًا عن الله تعالى – : « اشكر حبيبى وابنى أحمد » . فسماه الله حبيبًا وسماه ابنا .

وداود ابنا ، غير أن الله خصه عليهم بمزية فقال : « حبيبى ابنى اشكره » فتعبد أشعيا لشكر محمد ، ووجب عليه وعلى قومه شكره وإجلاله ، ليتبين قدره ، ومنزلته عنده وتلك منزلة لم يؤتها غيره من الرسل .

وقال أشعياء : « إنما سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد » وهذا إفصاح من أشعيا باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليُرِنَا أهل الكتاب نبيًا نصَّت الأنبياء على اسمه صريحًا ، سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصل

قالوا : وقال حبقوق – وسمى محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين في نبوته – « إن الله جاء من التيمن والقدوس من جبال فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ، وامتلأت الأرض مع حمده ، شعاع منظره مثل النور ، يحوط بلاده بعزه ، تسير المنايا أمامه ، وتصحب سباع الطير أجناده ، فأمَّ فسيح الأرض ، فتضعضعت له الجبال القديمة ، وانخفضت الروابي ، وتزعزعت ستور أهل مدين ، ولقد حاز المساعى القديمة » .

ثم قال « زجرك في الأنهار واختتام صوامك في البحار ، ركبت الخيول وعلوق مراكب الإيقاد ، وستنزع في قسيك أعراقًا ونزعًا ، وترتوى السهام بأمرك

يا محمد ارتواءَ ، ولقد رأتك الجبال فارتاعت ، وانحرف عنك شؤبوب السيل ، وتعبرت المهاوى تعبراً ورعبًا ، رفعت أيديها وجلاً وخوفًا ، وسارت العساكر في بريق سهامك ولمعان تباريك ، تدوخ الأرض غضبًا ، وتدوس الأمم زجرًا ، لأنك ظهرت بخلاص أمتك ، وإنقاذ تراث آبائك ».

قالوا : وهذا تصريح بمحمد ، ومن رام صرف نبوة حبقوق هذه عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد رام ستر النهار ، وحبس الأنهار ، وأنى يقدر على ذلك ؟!

وقد سماه باسمه مرتين ، وأخبر بقوة أمته وسير المنايا أمامهم ، واتباع جوارح الطير آثارهم .

وهذه النبوة لاتليق إلا بمحمد ، ولاتصلح إلا له ، ولاتدل إلا عليه . فمن حاول صرفها عنه ، فقد حاول ممتنعًا .

قلت وقد ذكر فيها مجيء نور الله من التيمن ، وهي ناحية مكة والحجاز ، فإن أنبياء بني إسرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام ، ومحمد صلي الله عليه وسلم جاء من ناحية اليمن، وجبال فاران هي جبال مكة ، كما تقدم بيان ذلك، وهذا مما لا يمكن النزاع فيه.

وأما امتلاء السماء من بهاء أحمد ، فأنوار الإيمان والقرآن ظهرت منه ومن أمته.

وامتلاء الأرض من حمده وحمد أمته في صلواتهم ، فأمر ظاهر، فإن أمته هم الحمادون ، لابد لهم من حمد الله في كل صلاة وكل خطبة، ولابد لكل مصل في ركعة من أن يقول (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين).

فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله حمدني عبدي ، فإذا قال الرحمن الرحيم ، قال أثني علي عبدي، فإذا قال مالك يوم الدين ، قال مجدني

عبدي (١) ، فهم يفتتحون القيام في الصلاة بالتحميد ويختمونها بالتحميد وإذا رفعوا رءوسهم من الركوع ، يقول إمامهم سمع الله لمن حمده ، ويقولون : جميعا : ربنا ولك الحمد ، ويختمون صلاتهم بتحميده ، بجعل التحيات له والصلوات والطيبات ، وأنواع تحميدهم فيه والثناء عليه ، مما يطول وصفه .

فصل

قالوا : وقال دانيال وهو يهدد اليهود ، ويصف لهم أمة محمد صلي الله عليه وسلم (وإن الله يظهرهم عليكم ، وباعث فيهم نبياً ، ومنزل عليهم كتاباً ، ومملكهم رقابكم يقهرونكم ويذلونكم بالحق ، ويخرج رجال قيدار في جماعات الشعوب معهم ملائكة علي خيل بيض متسلحين ، فيحيطون بكم ، وتكون عاقبتكم إلي النار ، نعوذ بالله من النار).

قلت : وذلك أن رجال بني قيدار، هم ربيعة ومضر أبناء عدنان، وهما جميعًا من ولد قيدار بنْ إسماعيل ، والعرب كلهم من بني عدنان وبني قحطان فعدنان أبو ربيعة ومضر وأنمار من ولد إسماعيل باتفاق الناس .

---

(١) هذا جزء من حديث « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي .. »

رواه مسلم في كتاب « الصلاة » باب « وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة .. » (١/٢٩٦.٢٩٧ح٣٩٥)

ورواه أبو داود فى كتاب « الصلاة» باب « مَنْ ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب » (٢/٣٨ : ٤١ ح ٨٠٦)

ورواه الترمذي في كتاب « التفسير » باب « ومن سورة فاتحة الكتاب » (٨/٢٨٣ : ٢٨٥ ح ٤٠٢٧)

وقال : « هذا حديث حسن »

ورواه النسائي في كتاب «الإفتتاح » باب « قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب » (٢/١٣٥ ، ١٣٦)

ورواه ابن ماجة في كتاب « الأدب » باب « ثواب القرآن » (٢/١٢٤٣، ١٢٤٤ح٣٧٨٤)

وانظر تحقيق : « تفسير النسائي » (١/١٥٧ : ١٥٩ ح ٢)

وأما قحطان ، فقيل : هم من ولد إسماعيل ؛ وقيل : هم من ولد هود ومضر ولده إلياس ابن مضر ، وإلياس بن مضر وقريش ، هم من ولد إلياس بن مضر.

وهوازن ، مثل عقيل ، وكلاب ، وسعد بن بكر ، وبنو نمير ، وثقيف وغيرهم ، هم من ولد إلياس بن مضر.

وهؤلاء انتشروا في الأرض ، فاستولوا علي أرض الشام والجزيرة ومصر والعراق وغيرهم ، حتي إنهم لما سكنوا الجزيرة بين الفرات ودجلة ، سكنت مضر في حران وما قرب منها ، فسميت ديار مضر ، وسكنت في الموصل وماقرب منها فسميت ديار ربيعة .

وقال : (تنزل الملائكة على خيل بيض) وهذا مما تواترت به الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض ، فإنها نزلت يوم (بدر) لنصر النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، ونزلت يوم الأحزاب ، وأحاطت ببني قريظة.

تم بحمد الله ، وجميل توفيقه ، وحسن معونته

طبع الجزء الثالث من كتاب (الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

ويليه الجزء الرابع ، وأوله(فصل وقال دانيال عليه السلام).

والله المستعان على الإتمام ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وصلي الله على محمد عبد الله ورسوله، وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس الجزء الثالث من
كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)

* الحسن بن أيوب ، يتحدث عن اضطراب النصارى في اتهامهم الإسلام ٣
* احتجاج (بطريرك الاسكندرية) علي البدع (الكنيسة) ١١
* قسطنطين وأثره في الديانة النصرانية. ١٧
* عيد الفصح عند النصارى واليهود . ٢٤
* قصة (وجود الصليب) واكتشافه. ٢٦
* استبداد الملوك النصاري مع المخالفين لهم في الدين . ٢٨
* مجمع القسطنطينية – ولعنهم المخالفين لأفكارهم. ٣١
* ظهور أهل الكهف في عهد (ثلدوس) ٣٣
* مجمع (أفسس) لمناقشة مقالة (نسطورس). ٣٦
* ابن تيمية يناقش (المتحدث باسم المسيحية المحرفة) من وجوه. ٤٤
* اختلاف طوئف النصارى في (الولادة والصلب). ٤٦
* وجوه اتفاق القائلين (بوحدة الوجود) كابن عربي ،
والقائلين باتحاد (اللاهوت والناسوت) من النصارى . ٧٤
* الرد على خرافة حلول (اللاهوات) في (الناسوت). ٨٤
* ومن خرافات النصارى ، تمثيل حلول عيسي بالكلمة
الموجودة في العقل ٩١
* الرد على من يدعي المشابهة بين عقيدة المسيحيين في
(المسيح) وعقيدة المسلمين في أزلية القرآن. ٩٣
* كيف يصلب الإله ويموت ١٠٨
* الإمام أحمد كره أن يتكلم في (مسألة حلول كلام الله
في العباد) بنفي وإثبات. ١٢١
* بدء اعتناق الحكومات للدين المسيحي. ١٢٧
*ردود مقنعة على الذين يدعون حلول اللاهوت في الناسوت . ١٣٠
* الكلام عن الله بغير علم. ١٣٥
* مناظرة بين مسلم ونصراني –حول التثليث عند النصارى
وتوحيد الصفات عند المسلمين ١٤٣

* الفرق بين (توحيد الصفات) و(القول بالتجسيم). ١٤٥
* قول النصارى في عقيدتهم أقبح قول قاله أهل الملل. ١٨٢
* من النصارى من يجعل مريم إلها مع الله. ٢٠٤
* لفظ(الابن)و(روح القدس)قد وردفي (الإنجيل)في حق غير المسيح. ٢٠٧
* من ضلال المسلمين – من قال بالاتحاد أو الحلول . ٢١٠
*بحث منطقي كلامي حول الصفات – هل هي جواهر أو أعراض ٢١٣
* أرسطو.... والمقولات العشر. ٢٢٤
* فلاسفة الملل، أرادوا أن يقربوا بين ما يراه أرسطو ، وبين
ما تقرره أديانهم. ٢٢٥
* المسيحيون يرون أن شريعة (التوراة) شريعة العدل ، وأن شـــريعة
(الإنجيل) شريعة الفضل – وأنه لا حاجة بالناس إلى شريعة الإسلام
وابن تيمية يرد عليهم. ٢٣٨
* نماذج مما في (الشريعة الإسلامية) من فضل – عما في التشريعتين السابقتين ٢٤٦
* (شريعة القرآن) هي الوسط بين (شدة التوراة) و(لين الإنجيل). ٢٥٠
* على المسيحين إن أرادوا أن يكون احتجاجهم بالتوراة والإنجيل علميا ،
أن يقيموا الأدلة على نبوة من يحتجون بكلامهم . ٢٧١
* لا يقوم علي الباطل دليل صحيح. ٢٧٣
* هل خالف محمد صلى الله عليه وسلم ، في الخبريات الأنبياء السابقين ٢٧٦
* هل من لم تبشر به النبوات ليس بنبى ٢٨٨
* شهادات الكتب المتقدمة لمحمدصلى الله عليه وسلم . ٣١٥
* داود يبشر في مزاميره بمحمد صلى الله عليه وسلم . ٣٣١
* الديانات السابقة بشرت بمحمد والمسيح. ٣٣٨
* أشعيا يتحدث عن مكة شرفها الله . ٣٤٣
* أشعيا يصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ٣٤٤
* دانيال يصف الأمة المحمدية. ٣٥٣